ورحل ابن خلدون إلى الأندلس ، واتصل بصديقه سلطان غرناطة محمد
ابن يوسف [illegible] بني الأحمر ووزيره الأديب لسان الدين بن الخطيب ،
فقدمه السلطان إلى مجلسه [illegible]
وبين ملك وسائله وحسن السفارة ، وكافأه السلطان بالإقطاعات والثروة .
ولكن السعاية حملت صديقه الوزير [illegible] قربه من السلطان ،
واسعى لتسميم العلاقة بينهما حتى أحس ابن خلدون بالاختناق في هذا الجو
المليء بالحسد ، واستحال عليه أن يعيش في هذه الرحابة ، فانتهز الفرصة حين
استدعاه أمير بجاية بالمغرب أوليه منصب الحجابة .

عاد ابن خلدون إلى المغرب [illegible] من الأندلس [illegible] أرقى
مناصب الدولة ، وهو منصب الحجابة ، لتساوي منصب رئيس الوزراء في الدول
الحديثة [illegible] منصب الخطيب [illegible] ، [illegible]
السلاطين [illegible] والرحمة [illegible]

ولكن [illegible] أن وقعت بينه وبين [illegible] الذين [illegible]
على الدولة ، فرأى أن يعتزل السياسة ويخلد إلى الراحة [illegible]

غير أن مغريات السياسة عادت فاجتذبته من جديد ، فعاد إلى المغامرات ،
وعادت السياسة تلعب به ويلعب بها دهرا وحدها صعودا وهبوطا ، وكان دائم
التنقل والتطواف بين بلاد المغرب ، فما يستقر في بلد حتى يهرع منه ، وما
تستقبله مدينة بالحفاوة والإجلال حتى تودعه هاربا منها تحت جناح الظلام .

بعض كتبه في قلعة بني سلامة ، وتشوف — كما نعرف — إلى مطالعة الدواوين التي لا توجد إلا بالأمصار بعد أن أملى الكثير من حفظه وأراد التنقيح والتصحيح ، ذلك إلى جانب المرض الذي أصابه ، فجعله يحن إلى مسقط رأسه ، فبادر إلى خطاب سلطان تونس ، يطلب الفيئة والمراجعة [1] .

وهكذا بدأ بتصفية الجو بينه وبين حكام تونس الغاضبين عليه بسبب سياسته المعادية ، ولم يجد هؤلاء الحكام خطرا في عودة ابن خلدون الذي أراد أن يعود هذه المرة باحثا مؤرخا منقبا عن مصادر تاريخ البلاد . لا منافسا سياسيا ، ولا ساعيا إلى المناصب ، ولا داعية انقلاب . وكذلك عاد إلى تونس بعد أن هجرها حوالى ربع قرن، متحولا بين المغرب والأندلس . وأقام بتونس أربع سنوات يشتغل بالتدريس والتأليف حتى أكمل كتابه التاريخي وأهداه مع مقدمته إلى سلطان تونس .

وأرادت السياسة أن تقتحم عليه حياته من جديد . حين رغب السلطان أن يزج به في غمارها . ولكن ابن خلدون كان قد صمم على أن يعتزلها إلى الأبد ، فاحتال لذلك باستئذان السلطان في الحج فأذن له . فبارح ساحل تونس متوجها نحو الشرق ، وكأنه يودع بلاد المغرب إلى غير رجعة

فقد ألقت به السفينة مراسيها على ساحل الإسكندرية في عيد الفطر من عام ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) ثم لم يلبث أن نزح بها إلى القاهرة ليقيم بها ، مؤجلا حجه إلى أجل غير موقوت .

(١) التعريف بابن خلدون ، ص ٢٣٠ ط لجنة التأليف .

وانتهت هذه الفترة برحلة ثانية إلى الأندلس ، ولكنها كانت رحلة خاطفة إذ لم يجد الجو بها ملائماً للإقامة بها . فعاد إلى المغرب ، وإلى حياته المضطربة التي ضاق بها ، وتمنى لو أتيح له أن ينسل منها إلى حياة الهدوء والاستقرار ، حيث يفرغ للعلم والدرس والتحصيل والتأليف .

وتم له ذلك حين اعتزل بقلعة بني سلامة بمقاطعة وهران من بلاد الجزائر . فقضى في معتزله أربع سنوات كانت أخصب سني حياته الفكرية[1] حيث فرغ للقراءة والدرس والتدوين ، واجترار معارفه الواسعة وتجارب الحياة الصاخبة التي حاصها بالطول والعرض والعمق ، وصبها في مقدمته الشهيرة التي كشفت عن عقلية ناضجة ، وفكر أصيل ، وعبقرية فذة ، وغدت من التراث الإنساني الخصب الذي لم يسبق إليه سابق في أخصب عصور التاريخ العامي . فقد كشفت لأول مرة عن علم كامل هو علم الاجتماع ، وشرعت منهجاً لفلسفة جديدة في التاريخ .

ثم أخذ بعدها في تدوين تاريخه الشامل المعروف باسم : (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) .

وقد انتهى من كتابة المقدمة في شهور لأنها كانت تسجيلا لتجاربه ، ونتاجاً لعبقريته ، ولكنه لما أوغل في تسجيل الأحداث التاريخية ووقائع الكتاب احتاج إلى مراجعتها في المراجع الكبيرة التي يخلو منها

---

(١) الأستاذ ساطع الحصري – مجلة العربي عدد يونيه ١٩٥٩ ص ١١٩

المتقاضين ، وأبطل الشفاعات ، وتوخى الصرامة في الحق ، ومبادئ الأحكام على الخاصة والعامة ، ولكن هذه الخطة لم تكن للناس بها عهد ، فصادف بها الكثير من العناية ، كما ضاق بصاحبها كثير من العلماء المتطلعين إلى هذا المنصب المرموق الذى احتله شخص مهما تكن مكانته العلمية فهو — في رأيهم — غريب عن ديارهم .

وهكذا تواطأ جمعهم على السعاية به ، فأعفى من منصب القضاء مكرما وبقى له منصب التدريس ، واستأذن في الحج فأذن له ، ولما عاد أضيفت إليه مناصب أخرى ، إذ عين شيخا لخانقاه بيبرس أكبر ملاجئ الصوفية .

ويرى الأستاذ ساطع الحصرى أن الفترة التى قضاها في مصر بين القضاء وتدريس الفقه والحديث باعدت بينه وبين مناحى التفكير العقلى ، وأغرته بالاسترسال في الأبحاث الفقهية والشرعية ، حتى اضطر إلى مصاحبة شيوخ الطرق الصوفية ومخالطتهم[1] .

يريد بذلك أن فترة التفكير الخصب والابتكار المثمر في حياة ابن خلدون قد انتهت لتحتل مكانها فترة استرسال في العلوم النقلية ، ولكن ابن خلدون ما زال يعيد ويبدئ ، ويزيد في تاريخه وينقح في مقدمته ويضيف إليهما فصولا وآراء وأفكارا سنتحدث عنها طول مقامه في مصر .

وفي عام ٨٠١ أعيد إلى منصب القضاء ، وسافر إلى فلسطين لزيارة الأراضي المقدسة ، ولما عاد إلى مصر في العام التالى عزل عن القضاء .

---

(١) العربى عدد يونيو ١٩٥٩ ص ١١٩

وكان ابن خلدون — بعد طول المطاف — لم يجد بلداً ينأى به عن عواصف السياسة ، ويوفر له الفراغ ، ويهيئ له الأداة العلمية الصحيحة سوى مدينة القاهرة ، حصن الفكر ، ومحط الأمان إذ ذاك .

صحيح أنه وجد الهدوء الكامل فى قلعة بنى سلامه بالجزائر ، ولكن أعوزته الوسائل العلمية التى تعينه على العمل ، وصحيح كذلك أنه وجد الكتب والمراجع فى تونس ، ولكنه افتقد الهدوء ، وأشفق من عواصف السياسة أن تجتاحه .

اما فى القاهرة فقد وجد كلتا الحسنيين ، ولقى معهما الرعاية والتكريم من الحكام الذين كانوا يؤازرون العلم و ينشدون الإصلاح ، كما لقى الترحيب من العلماء الذين سبقه إليهم صيته ، فأعجبوا به مفكراً وعالما ومؤلفا ، وكان تبادل الكتب والعلماء بين الأقطار الإسلامية يومذاك قد حقق جانباً كبيراً من الوحدة الثقافية بين الأقطار العربية .

ووجد ابن خلدون أخيراً فى ساحة الأزهر العتيد حقلا خصباً يزرع فيه بذور عبقريته ، فأخذت حلقات درسه تتسع ، وأخذ طلابه يكثرون ، و يزداد إقبالهم على ماعند المفكر العبقرى من بضاعة جديدة .

وعينه السلطان برقوق فى مناصب التدريس ثم فى منصب قاضى قضاة المالكية لما توسمه فيه من القيام بحق الوظيفة ، وتحرى العدالة والحق ، والإعراض عن الجاه [1] فأصلح القضاء ، وعمل على تحقيق العدالة بين

---

(١) التعريف ص ٣٦٩ .

البيئة الطبيعية التي عاش فيها ابن خلدون ، وإلى جولاته الواسعة في ربوع البلاد العربية شرقيها وغربيها ، ومخالطته الساسة والقادة الذين يصنعون واقع هـذا العالم العربي ويشكلون مصيره ، مع اشتراكه الفعلي في صنع الأحداث وتدبيرها ، وتسنمه ذروات المناصب الخطيرة في مختلف بلدان هذا العالم .

كل ذلك وأمثاله أتاح لابن خلدون خبرة فاحصة ووعيا مستنيرا استطاع بهما أن يتدسس إلى ماوراء الظواهر من الأشياء والأحداث والأعمال والأقطار ، وأن يستملي من واقع الحياة الصاخبة التي عاشها وخبرها ، فيبلور هذه التجارب والأحداث والخبرات علوما ، وأصولا لعلوم ونظريات ، وخطوطا عريضة مازالت تلتمع عنـد الآفاق الفكرية ، تهدى وتضيء ، وتمد مدها في الكيان الثقافي الراهن .

وإذا اتهم بعض الباحثين ابن خلدون في استقامة خلقه كإنسان صاحب قيم مثالية ، [1] فعذره أن خط الحياة التي بدأ بها مبكرا ، وخط الحياة التي جرفته إلى السياسة ، قد فرضا عليه أن يكون صاحب شخصية مزدوجة ، وكان ازدواج شخصيته شدا حتميا لرحال ورع حياته بين قصبة الثقافة وإثراء العقل البشري ، وبين تواهات السياسة ودروبها الملتوية ، فصحح واقعيته حيث أخفق المتنبي تخيلاته ومثالياته ، ومهد لنفسه مكانا مرموقا في الدائرة العاملة الناصبة لم يستطع أبو العلاء المنأى على الحياة أن يتخذه منها . وللسياسة مبادئ كثيرة

---

(١) الدكتور على عبد الواحد — مقدمة ابن خلدون جـ ١ ص ٤٣

وفى عام ٨٠٣ خرج مع السلطان على رأس الجيش لصد المغول التتارى بقيادة تيمورلنك عن إقليم سوريا ، ولكن الفتنة التى حدثت ضد السلطان جعلته يعود إلى مصر تاركا الحالة الحربية مضطربة ، ثم حصل أهل الرأى طالبون الصلح تيمورلنك [illegible] فيهم ابن خلدون ، فحادثه فى أحوال العالم الإسلامى ، واستفسره عن الكثير من أحوال المغرب ومدنها وسواحلها وجغرافيتها ، ولم يكتف بإجاباته فطلب منه أن يكتب له بيانا مفصلا عن دقائق حياة هذه البلاد .

وطال تردد ابن خلدون على تيمورلنك فأعجب بذكائه وعلمه، وأعطاه من الاحترام ما هو جدير به ، فكان لا يلقاه إلا واقفا ، ولا يجلس حتى يفسح له عن يمينه ، وجعله شافعا فى الكثير من العلماء والكتاب وذوى الرأى ، وعندما أراد تيمورلنك مبارحة سوريا أذن له فى العود إلى مصر ، بعد أن تبادلا الهدايا (١) .

ولما رجع إلى مصر تداول منصب القضاء مرات عديدة بالتولية والعزل حتى مات وهو فى هذا المنصب فى رمضان عام ٨٠٨ هـ (مارس ١٤٠٦ م) ودفن بباب النصر بالقاهرة .

من هذا العرض السريع لهذه الحياة الطويلة العريضة الحافلة بالعمل والإنتاج نستطيع أن نلمح مكونات هذه الشخصية الفذة ، وأن نجملها فى هذه العقلية الممتازة ، والذكاء اللماح ، والقراءات المستوعبة للتراث الثقافى الذى حفلت به الفترة التى سبقت مجىء ابن خلدون ، بالإضافة إلى

---

(١) التعريف ص ٣٧٧ ؛ ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩

لدنه ، هو علم الاجتماع ، قبل أن يطوف بأذهان الفلاسفة والمفكرين فى الشرق أو فى الغرب بعدئذ قرون . وأنه قد وفق إلى وضع فلسفة للتاريخ لم يصل إلى مثالها رواد التاريخ الحديث إلا بعد مئات السنين .

ذلك إلى ما كشفت لنا مقدمته بوجه خاص عما وعاه من ثقافة عامة مستوعبة لفروع المعرفة الإنسانية من سياسة واقتصاد وقانون وتربية ، وكثير من النظرات السليمة فى الآداب والفنون والفلك والطب والجغرافيا ومجموعة المعارف السائدة فى عصره على مستوى من العمق والاستيعاب يعز على المتخصصين فى عصور التخصص التى جاءت بعده .

وإذا كان الكثير من آراء ابن خلدون قد أصبح قريبا إلى أفكارنا ، مألوفا للمثقفين من جيلنا ، فلا بد لكى نصف ابن خلدون أن نأخذ فى حسابنا مرور ستة قرون من عمر الزمن ، تقدمت فيها البشرية خطوات موفقة عبر كفاحها المستمر فى سبيل الكمال ، ويسرت كثيرا من وسائل المعرفة والعلم كانت تعتبر معجزات فى عصر ابن خلدون .

وثمة حسنة من حسنات ابن خلدون سبق بها المؤرخين ، تلك هى التفاته إلى الشعوب فى مسيرها وتحركاتها ، وشمول تاريخه للمجتمع بكافة طبقاته : فإن المؤرخين قبله — إذا استثنينا ابن مسكويه — يكادون يقصرون جانبهم وأقلامهم على تاريخ الملوك والقواد والعلية من الأقوام ، حتى إذا جاء ابن خلدون ، ونظرته الشاملة فى المجتمع البشرى ، أعطى الشعوب

[illegible] الاستقامة [illegible] فقد تكون الاستقامة أقرب الطرق إلى أهدافها .

وهكذا كان لا [illegible] يحاول في مجالات السياسة ويدور معها أينما دارت مع أصحاب الحظوة [illegible] نراه [illegible] عمالقة الفكر في مدار الفكر البشري المتئد بالأناة والحكمة .

وكذلك كان يتقن المبادئ والنظريات فيبلغ بها الأوج في الفلسفة والفكر ، ولكنه يقف عند السفح في العمليات التطبيقية التي يقوم بها في حياة العامة والخاصة حتى إن بعض الناظرين في كتابه يشكون أن يكون كاتب المقدمة هو صاحب الكتاب ، لأن فلسفته كثيرا ما تخلت عنه وهو يطبق مبادئه في فلسفة التاريخ على كتابه الذي كان فيه راوية للتاريخ [1]

وقد قال روبرت فلينت المؤرخ الإنجليزي : « إذا نظرنا إلى ابن خلدون كمؤرخ وجدنا من يتفوق عليه حتى من كتاب العرب أنفسهم ، وأما كواضع نظريات في التاريخ ، فإنه منقطع النظير في كل زمان ومكان » [2] وذلك بلا شك أثر من آثار ازدواج شخصية ابن خلدون حتى في مادة تخصصه .

ومهما يقل في ابن خلدون . فالذي لا شك فيه أنه قمة من القمم الشامخة بين بناة الفكر الإنساني في أوسع نطاقه .

ويكفي أنه قد سبق إلى تأسيل علم جديد استكمل كل مقوماته على

---

(١) طه حسين في كتاب التوجيه الأدبي ص ١١٣ . وإيف لاكوست في كتابه «ابن خلدون واسع علم ومعجزة استقلال» ترجمة رهبر فتح الله ص ٤٠

(٢) مجلة العربي عدد يوليه ١٩٥٩ ص ١٢٠

وإذا لم يكن بد من المنافسة المثمرة بين الشرق والغرب ، بعد أن طغى التعصب زمنا جعل الناس هناك يغمضون أعينهم عن كل عبقرية عربية أو شرقية ، ويسدلون حجابا كثيفا بيننا وبين الفكر الحديث . . اذا كان لابد من المنافسة ، فإن السبق الذى ظفر به الفكر العربى قبل هذه الهجمة الجافية يضعنا اليوم فى صدر الحلبة .

ولقد أحس المنصفون من علماء الغرب مدى الجناية التى جناها الغرب على الحضارة وعلى الفكر الإنسانى حينما حاولت المدنية العربية فى بدايتها أن تحمل مفكرى الشرق ، وتوصد الباب دون آرائهم فبدأوا يضعون ابن خلدون فى مكانه بين رواد الفكر الإنسانى . إنهم يجعلون منه أستاذا لعلمى الاجتماع والتاريخ المحدثين بلا منازع؛ لما وفق إليه من سبق فى تحرير النظريات الكاملة بل إنهم ليرفعون منزلته فوق منزلة أرسطو وأفلاطون .

أما شهادة علماء الاجتماع فيقولها « جوميلوفيتش » أحد زعماء علم الاجتماع الألمان :

« إن ابن خلدون يعتبر مفكرا عصريا بكل معنى الكلمة . . إنه درس الحوادث الاجتماعية بعقل هادئ رزين . وأبدى آراء عميقة جدًّا ، ليس قبل « كونت » فحسب ، بل قبل « فيكو » أيضا . والحقيقة أن ما كتبه ابن خلدون هو ما نسميه اليوم علم الاجتماع » .

كما يقول « استفانو كوليزيو » الإيطالى :

[illegible] من دنيا البشر .

[illegible] تيارا [illegible] الشعب

[illegible] أن [illegible] الدول

نفسه وهو يتعامل مع الجماهير فى ميدان السياسة . وبدرك الأسباب الحقيقية

لقيام الدول على العصبية متجمعة من سواعد الشعوب وأهوائها . وسقوط

هذه الدول إذا تخلت عنها القوى الجماهيرية .

[illegible] هذه الخطوة الجريئة لفلسفة التاريخ كثيرا من اعتباره .

[illegible] الذى لا يقتصر حسابه فى عموم الأشخاص والأعمال . بعد

أن كان وقفا بفسح الطريق للسادة والملوك .

وفعلت هـذه الخطوة التقدمية فعلها فى مستقبـل التاريخ والإنسانية

حيث حددت المؤرخين خط سيرهم . وأنصفت المجتمع البشرى بعضه

من بعض .

وحسنة أخرى تحسب لابن خلدون، هى تجميعه للعرب والعروبة بمفهومها

الواسع على الصعيد الفكرى التقدمى . ومزاولة القومية مزاولة عملية ، فقد مثل

بنفسه دور « المواطن العربى » حينما جاب هذا الوطن من غربه إلى شرقه

وشغل نفسه بقضايا العرب أينما حل ، وتكلم باسمهم فى كل محفل ، وسفر عنهم .

وفاوض فى شئونهم . وقضى بينهم ، واستهدف إصلاح جماعاتهم بما أوتى من

قوة الشخصية . وحصافة الفكر ، وجاه المنصب .

أما عالم التاريخ وبهذا « فيلمت » يقول : « من وجهة علم التاريخ أو فلسفة التاريخ يتحلى الأدب العربي باسم من ألمع الأسماء . فلا العالم الكلاسيكي في القرون القديمة ، ولا العالم المسيحي في القرون الوسطى يستطيع أن نقدم اسما يضاهي في لمعانه ذلك الاسم .. إنه كواضع نظريات في التاريخ منقطع النظير في كل زمان ومكان ، حتى ظهور فيكو بعده بأكثر من ثلثمائة عام .. ليس أفلاطون ولا أرسطو ولا القديس أوغسطين بأنداد له ، وأما الباقون فلا يستحقون حتى الذكر بجانبه .. إن أول كاتب بحث في التاريخ كموضوع علم خاص هو ابن خلدون » .

وقال توينبي أشهر مؤرخي الإنجليز المعاصرين : « إن ابن خلدون — في المقدمة التي كتبها لتاريخه العام — قد أدرك وأنشأ فلسفة للتاريخ ، وهي بلا شك أعظم عمل من نوعه أبدعه أي عقل بشري في أي زمان ومكان » (١)

وسارتون في كتابه « مدخل لتاريخ العلم » يقول : « إنه لمن المدهش أن يكون ابن خلدون قد توصل في تفكيره إلى اصطناع ما سمى اليوم بطريقة البحث التاريخي » (٢)

إذا كانت هذه هي نظرة علماء الغرب المحدثين لابن خلدون ، فليس في وسعنا إلا أن نعتز بهذه العبقرية العربية . وفي غمرة هذا الاعتزاز لا ننسى أن

---

(١) مجلة العربي عدد يوليو ١٩٥٩ ص ١٢٠ — ١٢١

(٢) ابن خلدون . لإيف لاكوست ترجمة زهير فتح الله ص ٣٩

[illegible] إلى ابن خلدون

[illegible]

[illegible] الاجتماعية والاقتصاد

السياسي قبل كوندرسيه وماركس و[illegible] كوين بخمسة قرون .

إذا كانت نظريات ابن خلدون في حياة المجتمع تضعه في طليعة فلاسفة

التاريخ فإن ما عزوه من شأن كبير إلى دور العمل والأجرة والملكية تجعله

إماما لاقتصاديي هذا العصر » .

ويقول « فارد » من كبار علماء الاجتماع الأمريكان : « كانوا يظنون

أن أول من قال بمبدأ الحتمية في الحياة الاجتماعية هو مونتسكيو أو فيكو ، في

حين أن ابن خلدون قال بذلك ، وأظهر تبعية المجتمعات لقوانين ثابتة قبل

هؤلاء في القرن الرابع عشر ، حينما كان الغرب مستسلما للفلسفة الدرسانية

والكلامية استسلاما تاما » .

وقال « ناتانيل شميت » الأمريكي : « إنه فيلسوف مثل أوجست كونت

وتوماس بكل وهربرت سبنسر ، وقد تقدم في علم الاجتماع إلى حدود لم يصل

إليها كونت نفسه في النصف الأول من القرن التاسع عشر .

والمفكرون الذين وضعوا أسس علم الاجتماع لو كانوا قد اطلعوا على

مقدمة ابن خلدون في حينها ، واستعانوا بالحقائق التي اكتشفها والطرائق

التي أوجدها ذلك العبقري قبلهم بمدة طويلة ، لاستطاعوا أن يتقدموا بهذا

العلم الجديد أكثر مما تقدموا به فعلا » .

ألحقه بالكتاب يعرف بنفسه . ولكنه عاد فكتب منه نسخة مستقلة أضاف إليها ووسعها ونقح فيها . وقد طبع مرة فى ذيل كتاب التاريخ وأخرى على هامش المقدمة ، وآخر طبعاته صدرت فى مجلد مستقل عام ١٩٥١ عن لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة فى ٤٠٩ صفحة بتقديم محمد بن تاويت الطنجى وتحقيقه .

أما المقدمة فموضوعها طبيعة العمران فى الخليقة ، وقد صدرها بخطبة الكتاب ، ومقدمة فى فضل علم التاريخ ومذاهبه وأغلاط المؤرخين . ثم تناول الموضوع فى ستة أبواب :

الأول فى العمران البشرى ، والثانى فى العمران البدوى والأمم الوحشية والثالث فى الدول والخلافة والملك ، والرابع فى العمران الحضرى ، والخامس فى الصنائع والمعاش والكسب ، والسادس فى العلوم واكتسابها وتعلمها .

وقد طبعت المقدمة طبعات مختلفة ، تارة على أنها الجزء الأول من كتاب التاريخ ، وتارة على أنها ذات موضوع مستقل .

وأول طبعات ظهرت المقدمة طبعتان ، صدرتا عام ١٨٥٨ إحداهما فى مصر بإشراف الشيخ نصر الهورينى ، وعنها صدرت كل الطبعات المتداولة فى العالم العربى اليوم .

والثانية فى باريس بإشراف المستشرق كاترمير ، وبينهما اختلاف حيث تزيد طبعة باريس أحد عشر فصلا غير موجودة فى طبعة مصر ، وتزيد الأخيرة فصلا لم يوجد فى طبعة باريس .

[illegible] وحتى يبدأ من
[illegible]

إن ابن خلدون على سعة معارفه وموسوعيته كان أميل إلى التخصص فجاءت مؤلفاته محدودة معدودة ، وكان أول مؤلفاته هذه المقدمة التي كانت في الأصل مقدمة لكتابه في التاريخ ، ولكنها هي التي جعلت منه رائد علم الاجتماع ، وواضع فلسفة التاريخ .

أما مؤلفه التاريخي فهو « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر . . »

وقد وقفه على رواية تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من النبط والسريان والفرس والإسرائيليين والقبط واليونان والروم والترك . . الخ وقد بدأه منذ بدء الخليقة حتى وصل إلى عام ٧٩٦ هـ وقد نشر في مصر عام ١٨٦٨ م .

وتأتي مؤلفاته المعروفة كتاب « التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا » وقد أرخ فيه حياته تأريخا مستوعبا يتناول دقائقها بصدق وشجاعة ويسجل أحداثها وأحداث الحياة من حوله ، ويترجم للعلماء والعظماء والساسة والقادة الذين عاشرهم أو عرفهم ، كما يلم بدقائق الظروف السياسية والاجتماعية في البلاد الإسلامية التي تنقل فيها .

ويعد هذا الكتاب أول تجربة ناجحة للترجمة الذاتية في اللغة العربية ، وكما كانت المقدمة مجازا إلى كتاب التاريخ ، فقد كان كتاب « التعريف » تذييلا

٣ — طبعة المطبعة البهية المصرية وصفحاتها ٥٦٨ صفحة من القطع الكبير .

٤ — طبعة باريس بإشراف كاترمير ١٨٥٨ م في ثلاثة مجلدات صفحاتها ٤٣٣ ، ٤٠٨ ، ٤٣٤ من القطع الكبير وهي من النسخ النادرة التي نمى إليها الأستاذ ساطع الحصري وهي محفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٢٧٣٤ تاريخ .

٥ — طبعة لجنة البيان العربي بتحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي ؛ والجزءان اللذان صدرا منها في ٨٣٤ صفحة .

وكل هذه الطبعات الأربع تزخر بالأخطاء المطبعية والتصحيفات والتحريف خالية تقريباً من التعليق الذي نجده لمحقق الطبعة الأخيرة في هذه الناحية . فقد بذل فيه عناء .

وقد كان هدفي من التيسير أن أقرب إلى القارئ العربي آراء ابن خلدون وأفكاره العميقة الدقيقة في يسر وسهولة . وأن أحاول في الوقت نفسه إغراءه بالرجوع إلى النص الكبير ليرتوي مما في المقدمة نفسها من استيعاب وتفصيل .

لهذا حاولت أن أزيل من طريقه ما يعترض وصوله إلى جوهر المقدمة من الزوائد والشروح والاستطرادات والإطنابات فيما أصبح من البديهيات الحياة اليوم .

وعلقت بعض التعليقات الخفيفة التي تساعد على اجتلاء الغامض ؛ وترجمت لبعض الأعلام من غير المشاهير .

وإلى جانب ذلك حاولت أن أحافظ على ألفاظ ابن خلدون وعباراته

ومن الطبعات المتداولة طبعة بولاق ١٨٦٨ م وطبعة البستاني ، وطبعة المطبعة التجارية ، وطبعة التقدم ١٣٣٩ هـ ، وطبعة الخشاب ١٣٣٢ هـ وطبعة البهية المصرية ، وطبعة لجنة البيان العربي بالقاهرة بتحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي ، وتمتاز هذه الطبعة باستيفاء كل ما في الطبعات المختلفة والمخطوطات المعروفة من فصول كما تمتاز بالشرح ، والتوضيح ، والنقد والتكملة ، والتحقيق ، وترجمة الأعلام ، والضبط والفهرسة ، واستخدام علامات الترقيم وإصلاح الأخطاء الكثيرة المنتشرة في معظم الطبعات سواء منها أخطاء الطبع أو النسخ أو التأليف ، وقد مهد لها المحقق ببحث شامل عن ابن خلدون ومكانته العلمية ، ولولا ما فيها من إغفال بعض الحقائق التاريخية والمعلومات الجغرافية لكانت أوفى الطبعات كلها .

وقد صدر منها جزءان أحدهما عام ١٩٥٧ والآخر عام ١٩٥٨ وبقي جزءان سيصدران تباعا ، ولعل الدكتور يعنى في هذين الجزءين الباقيين بتدارك ما في الجزءين السابقين من هنات يسيرة .

وقد اعتمدت في التيسير على معظم الطبعات السابقة ، وأخص منها :

١ — طبعة مطبعة التقدم ١٣٣٩ هـ وصفحاتها ٧٠٣ صفحة من القطع المتوسط .

٢ — طبعة المطبعة التجارية ، مشكولة شكلا كاملا في ٥٩٩ صفحة من القطع الكبير .

ت من أنه كان أعماله وسيرته ومؤلفاته ورحلاته ومشاركته النافعة فى حياة العرب أثناء حلهم من ديارهم . كان داعية للوحدة العربية فى هذا الوقت الباكر من حياة العروبة . وقد آن أن تجمع أعماله فى أى حدبة كى أن تكون الثقافة العربية وسيحة موثقة من أبناء العروبة جميعا . وفى هذه الفترة التى عاشها ابن خلدون استطاع — على رغم التفكك السياسى والاجتماعى — أن يمنحنا الثقة فى إمكان قيام وحدة عربية سليمة البنيان أساسها الفكر واللغة والأدب والجهود الثقافية النافعة الخالصة .

وأثبت فى هذه الظروف العصيبة بما لا يدع مجالا للشك أن وحدة اللغة العربية وما تحمل من سمات فكرية وعاطفية وثقافية — تصلح أن تكون جسر الأمان الذى يعبره العرب إلى وحدتهم المتكاملة إذا تحررت الإرادة وتواءمت الخطى وطهرت الخبايا .

لقد كانت العروبة هى الشعاع المضىء عبر كل ما كتب ابن خلدون . فمن أجل العرب وقف جهوده على تسجيل تاريخهم ورواية أمجادهم القديمة ليشحذ عزائم الأجيال الراهنة والمقبلة . وليدل على المعدن الأصيل الذى أنجب هذه الأمة ، وليصور كيف كان العرب هم السواد من عين الخليقة . وكل الأمم من حولهم حواش وأهداب .

إنى لسعيد أن أبعث من وراء الأجيال صوت العربى العبقرى ابن

قدر ما استطعت [illegible] أن أسلوب ابن خلدون يعتبر من النماذج العالية في النثر الفنى [illegible] أني أسلوب عصره [illegible]

[illegible] كل الفصول والأبواب التى انفردت بها طبعة [illegible] دون كل الطبعات العربية .

وقد استدعانى الأمر أن أدمج بعض الفصول والفقرات ، وأن أكمل السابق منها باللاحق ، وأستغنى ببعض الفصول التى تكررت فى الأبواب المختلفة عن بعضها الآخر ، وأن أستغنى عن بعض الفقرات مثل : الموازنة بين الحروف العربية والأجنبية ، وحقيقة المهدى ، وأسماء الموازين والملاحم ، وكتاب الجفر وطريقة المنجمين ، وقلة المدن بأفريقية ، ومبانى العرب يسرع إليها الخراب ، وإبطال صناعة النجوم ، لأن بعضها جاء استطرادا ، وبعضها تلعب فيه الخرافة دورا كبيراً .

وأنا أرجو فى النهاية أن أكون قد وفقت إلى وضع خلاصة مركزة لهذا العمل العبقرى الفذ بين يدى القارئ العربى الحديث ، ومع ذلك فلا أحب أن أخدعه بهذه الخلاصة عما فى الأصل من فكرة مبسوطة ، وآراء مستجمعة ، وتحليل نابض بالحياة ، بل إننى لأتمنى أن يتخذ من هذه الخلاصة التى بين يديه معبرا إلى الساحة الرحبة ، حيث يلتقى هناك بالعبقرى العربى الملهم ابن خلدون وجها لوجه .

ويسعدنى أن يكتشف القارئ فى حياة ابن خلدون وأعماله ما تكشف

مقدّمة ابن خلدون

[illegible] محدثها ، وجمع قواها [illegible]
[illegible] واحدة ، وأزجاها والقوة
[illegible] وعزة

[illegible] يونيه ١٩٥٩

رضوان إبراهيم

خطبة المؤلف

يقول عبد الرحمن بن خلدون :

الحمد لله ، له العزة والجبروت ، وبيده الملك والملكوت ، وله البقاء والنعوت ، وهو الحى الذى لا يموت .

والصلاة والسلام على محمد النبى العربى وعلى آله وأصحابه .

أما بعد :

فإن فن التاريخ من الفنون التى تتداولها الأجيال ، وتشد إليها الرحال ؛ إذ هو فى ظاهره إخبار عن الأيام والدول ، وفى باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها .

وإن فحول المؤرخين فى الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها . وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وضعوها . واقتفى تلك الآثار من بعدهم . فلم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ، والناقد البصير قسطاس فيما ينقلون ، فللعمران طبائع ترجع إليها الأخبار .

وأكثر التواريخ لهؤلاء عامة المناهج ؛ فمنهم من استوعب ما قبل الملة الإسلامية كالمسعودى (١) ، ومنهم من قيد شوارد عصره ، وأخبار قطره كأبى حيان

---

(١) على بن الحسين ، مؤرخ ، رحالة ، من بغداد ، أشهر مؤلفاته كتاب « مروج الذهب » . توفى سنة ٣٤٦ هـ



المقدمة

في فضل التاريخ ومذاهبه ومغالط المؤرخين وأسبابها   ص :

فن التاريخ :

فن التاريخ يوقفنا على أحوال الأمم والأنبياء والملوك ، لتتم فائدة الاقتداء في الدين والدنيا ، فهو محتاج إلى معارف وحسن نظر وتثبت ، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على النقل ، ولم تحكم العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاجتماع ـ لم يؤمن العثور .

مغالط المؤرخين وأسبابها :

كثيرا ما وقع المؤرخون في المغالط ، لاعتمادهم على النقل والحكايات للوقائع : لم يعرضوها على أصولها ، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات ، فضلوا في بيداء الوهم ، لاسيما في إحصاء الأموال والعساكر .

بنو إسرائيل :

من أمثلة ذلك ما حكى المسعودي عن جيوش بني إسرائيل ، وأن موسى أحصاهم فكانوا ستمائة ألف ، ويذهل عن تقدير مصر والشام

مؤرخ الأندلس [illegible] وابن الرقيق (١) مؤرخ إفريقيا (٢) . ثم لم يأت من بعد هؤلاء [illegible] الأخبار صورا تجردت عن موادها ، وحوادث لم تعلم أصولها ، يكررون [illegible] الأخبار المتداولة ، ويغفلون الأجيال الناشئة ، إذا تعرضوا لذكر الدولة نسقوا أخبارها ، لا يتعرضون لبدايتها ، ولا يذكرون السبب الذي رفع رايتها .

ثم جاء آخرون بإفراط الاختصار والاكتفاء بأسماء الملوك ، منقطعة عن الأسباب والأخبار كما فعله ابن رشيق .

ولما طالعت كتب القوم نبهت القريحة ، فأنشأت في التاريخ كتابا ، رفعت فيه عن الناشئة من الأجيال حجابا ، وأبديت فيه لأولية الدول والعمران أسبابا ، ونبهته على أخبار الأمم الذين عمروا المغرب في هذه الأعصار وما كان لهم من الدول ، وهم العرب والبربر .

---

(١) إبراهيم بن القاسم مؤرخ من القيروان ، أشهر مؤلفاته « تاريخ إفريقية والمغرب » توفي سنة ٤٠٠ هـ

(٢) كان هذا الاسم يطلق على إقليم تونس وما جاورها في ذلك العهد .

بأذربيجان، وإلى الثالث فيرمينية. وأغرى ثلاثة من أبنائه ببلاد فارس. فسار الأول إلى سمرقند، ووجد الثاني قد سبقه: فأتيا في الصين، ورجعا بالغنائم، وتركا قبائل من حمير، وبلغ الثالث القسطنطينية.

وهذه الأخبار بعيدة عن الصحة: لأن ملك التبابعة كان بجزيرة العرب ويحيط بها البحر من ثلاث جهاتها. فلا يجد السالكون إلى المغرب طريقا غير السويس. والمسالك هناك قدر مرحلتين، ويبعد أن تمر به ملك في عساكر موفورة من غير أن يصير من ممالكه، ولم ينقل أن التبابعة ملكوا تلك الأعمال. وإذا ساروا في غير أعمالهم احتاجوا إلى انتهاب البلاد. وإن نقلوا كفايتهم فلا تفي لهم الرواحل، وإن قلنا إن العساكر تمر بهؤلاء الأمم من غير أن تهيجهم فذلك أبعد. وأما غزوهم بلاد المشرق فهو وإن كان طريقه أوسع، إلا أن الشقة أبعد، وهو ممتنع عادة من أجل الأمم المعترضة والحاجة إلى الأزودة والعلوفات. فالأخبار واهية، ولو كانت صحيحة النقل لكان ذلك قادحا فيها، فكيف وهي لم تنقل من وجه صحيح؟

إرم ذات العماد:

وأبعد في الوهم ما يتناقله المفسرون في تفسير: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ (1) فيجعلون «إرم» اسما لمدينة ذات أساطين، وأنه كان لعاد بن عوص بن إرم ابنان: هما شديد، وشداد، ملكا من بعده،

---

(١) سورة الفجر: آيتا: ٦، ٧

[illegible] هذا [illegible] . وأيضا فالذى بين موسى وإسرائيل أربعة آباء .
[illegible] الأسباط وأولادهم حين أتوا إلى يوسف . وكان
[illegible] إلى [illegible] ماتين وعشرين سنة . [illegible] أن
تتشعب النسل فى أربعة أجيال إلى هذا العدد . والذى ثبت فى الإسرائيليات أن جنود سليمان كانت اثنى عشر ألفا ، خاصة وأن مقرباته كانت ألفا وأربعمائة فرس مرتبطة على أبوابه . هذا هو الصحيح من أخبارهم ، ولا تلتفت إلى خرافات العامة عنهم .

وقد نجد الكافة إذا أفاضوا فى الحديث عن جيوش المسلمين أو النصارى أو إحصاء الجبايات وخراج السلطان وبضائع الموسرين ـ توغلوا فى العدد . وجاوزوا العوائد ، فإذا استكشفت أصحاب الدواوين وأحوال الثروة لم تجد معشار مايعدونه ، وما ذلك إلا لولوع النفس بالغرائب . والغفلة على المتعقب حتى لا يحاسب نفسه ، ولا يرجعها إلى بحث وتفتيش .

ملوك التبابعة :

ومن الأخبار الواهية أخبار التبابعة[1] وأنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن إلى إفريقية والبربر .

وأن إفريقش بن قيس غزا البربر . وسماهم بهذا الاسم حين سمع رطانتهم وقال : ماهذه البربرة ؟ وحجز قبائل من حِمْيَر ، فأقاموا واختلطوا بأهلها .

وكذلك يقولون فى تبع الآخر ، أسعد بن كرب : إنه ملك الموصل

(١) ملوك اليمن القدامى .

... ... الحجر إنما أذن لهما في عقد النكاح بدون خلوة ... ...
حيلت في التماس الخلوة حتى واقعها في حال سكر، فحملت، ووشي بذلك
للرشيد فاستغضب.

وأين هذا من ابنة المهدي بن المنصور بن محمد بن علي
أبي الخلفاء ابن عبد الله ترجمان القرآن ابن العباس عم النبي؟ ابنة خليفة،
أخت خليفة، قريبة عهد ببداوة العروبة وسذاجة الدين. فأين يطلب الصون
والعفاف إذا ذهبا عنها؟ أو كيف تلحم نسبها بجعفر، وتدنس شرفها العربي
بمولى من العجم؟ وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالي الأعاجم على
بعد همته وعظم آبائه؟

وإنما نكب البرامكة استبدادهم، واحتجانهم أموال الجباية، حتى
شاركوا الرشيد سلطانه، وعمروا مراتب الدولة من وزارة، وكتابة، وقيادة،
وحجابة، وسيف، وقلم، وزاحموا أهل الدولة، فكان منهم حتى من كفله
هارون: ولي عهد، وخليفة. حتى كان يقال: بأن ... وجهة الإمارة من
السلطان لهم، وانصرفت نحوهم الوجوه، وخضعت لهم الرقاب، وتخطت
إليهم هدايا الملوك والأمراء، وأفاضوا في السعة والمراتب العطايا. ومدحوا
بما لم يمدح به خليفتهم، وسنوا الجوائز، واستولوا على القرى والضياع
فكسبت لهم وجوه الحسد، ودبت السعاية، وقارن ذلك عند مخدومهم
بوادئ الغيرة، وكامن الحقود إلى ... منهم الدالة، وانتهى بها الإصرار

[illegible] لأ [illegible]

[illegible]

[illegible] والأ [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] الا [illegible]

([illegible]) وحملوا (العرد) على الاساس [illegible]

[illegible] الاحمد واي ضرر لهذا المحمل [illegible]

[illegible] الله [illegible] الصحة [illegible]

نكبة البرامكة .

ومن الحكايات المدهشة [illegible] نكبة الرشيد للبرامكة ،

[illegible] « العباسة » اخته مع جعفر بن يحيى [1] . [illegible]

---

(1) جعفر بن يحيى [illegible]

ثم كان من بعده على قرب [illegible] حالهم [illegible] الخمر.
وحاله [في] الإسراف من أصحاب الخمر معلومة. وكان سيرته ملازمة [illegible]
[illegible] والرشيد وآباؤه كانوا على اجتناب المسكرات في دينهم ودنياهم.
والنحاة [illegible] وعادة العرب [illegible]
مذهب أهل العراق

يحيى بن أكثم والمأمون

وقريب من هذا ما ينقلونه عن يحيى بن أكثم القاضي نديم المأمون، وأنه سكر ليلة فدفن في الريحان حتى أفاق [illegible]

يا سيدي وأمير الناس كلهم ... قد جار في حكمه من كان يسقيني

إني غفلت عن الساقي فصيرني ... كما تراني سليب العقل والدين

وحال ابن أكثم والمأمون حال الرشيد. والسكر [illegible] من شأنهم.
وصحابته له دون صحابة في الدين. [illegible] كانا يصليان الصبح جميعاً.
ويحيى من أهل الحديث، أثنى عليه ابن حنبل، وخرج عنه الترمذي كتابه
الجامع. والبخاري روى عنه، فالقدح فيه قدح في جميعهم.

المأمون وبوران

ومن الحكايات في نسب [illegible] المأمون ابنة الحسن بن سهل (1) في
[illegible] وأنه عثر في بعض الليالي في طوافه ببغداد في زنبيل مدلى من بعض

(١) حسن بن سهل بن عبد الله السرخسي، وزير [illegible] توفي سنة ٢٣٦ هـ
(ابن خلدون ٣ — ٥٠٠)

إلى الخاتمة، كانتصارهم في يحيى بن عبد الله (١) الخارج على الرشيد، الذي استنزله الفضل من الديلم على أمان الرشيد، ودفعه الرشيد إلى جعفر فحبسه، ثم حمله الدالة على تخلية سبيله، وسأله الرشيد عنه فقال: أطلقته، فأبدى الاستحسان وأسرّها في نفسه حتى نال منهم، وحسبك الأرض بهم، إنما قتلهم الغيرة والمنافسة، وما يحتمل به أعداؤهم من الطعن، فما ينسب من الشعر احتيالاً على إسماعه للخليفة:

لَيْتَ هِنْدًا أَنْجَزَتْنَا مَا تَعِدْ … وَشَفَتْ أَنْفُسَنَا مِمَّا تَجِدْ
وَاسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً … إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِدْ

فلما سمعها الرشيد قال: إي واللهِ، إني عاجز.

وأما معاقرة الرشيد الخمر فحاشا لله، وأين هذا من الرشيد وما كان عليه من العبادة والصلوات، وأنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة، ويغزو عامًا وحج عامًا، وكان من العلم والسذاجة بمكان لأنه بعهد من سلفه أبي جعفر، القائل لمالك (٢): إنه لم يبق على وجه الأرض أعلم مني ومنك، وقد شغلتني الخلافة، فضع كتابًا تجنب فيه رخص ابن عباس وشدائد ابن عمر، ووطئه للناس توطئة. قال مالك: فوالله لقد علمني التصنيف

---

(١) هو يحيى بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، خرج على الدولة العباسية واعتصم بالديلم من بلاد فارس، ودعا لنفسه بالخلافة

(٢) هو مالك بن أنس بن مالك الأصبحي، إمام المدينة، وأحد الأئمة الأربعة، أشهر كتبه «الموطأ» وتوفي سنة ١٨٩هـ

الأكبر إلى المغرب من وقعة « فخ » (١) أوعز الهادى إلى الأغالبة أن يذكوا عليه العيون . فلم يظفروا به ، وخلص إلى المغرب ، وظهرت دعوته ، وظهر الرشيد على ما كان من عامله على الإسكندرية ــ بسبب التشيع ــ فى نجاة إدريس إلى المغرب فقتله ، ودس الشماخ ــ وهو من موالى المهدى ــ على إدريس . فأظهر البراءة من بنى العباس . فخالطه إدريس بنفسه . فناوله الشماخ سما استهلكه ، ووقع مهلكه من بنى العباس أحسن المواقع . ثم تأدى إليهم خبر الحمل ، وإذا بالدعوة عادت . والشيعة بالمغرب ظهرت . ودولتهم بإدريس تجددت ، ففزعوا إلى أوليائهم من الأغالبة . فكان الأغالبة عن برابرة المغرب الأقصى أعجز . لما كان قد طرق الخلافة فى بغداد من تغلب العجم على سلطانها ، وتصرفهم فى أحكامها طوع أغراضهم . فمشى الأغالبة . وأخذوا يمنون للخلافة بالمعاذير ، فطورا بتحقير المغرب وأهله . وطورا بالإرهاب بشأن إدريس : ينفذون سكّته (نقودا مضروبة باسمه) فى تحفهم ، وهداياهم ، وجباياتهم ، تعريضا باستفحال أمره ، وتعظيما لما دفعوا إليه من مطالبته . وتهديدا بقلب الدعوة إن ألجئوا إليه . وطورا يطعنون فى نسب إدريس تخفيضا لشأنه ، فقرعت هذه الكلمة أسماع الغوغاء . وصرّ عليها بعض الطاعنين أذنه ، واعتدّها ذريعة للنيل من حافدهم .

---

(١) وقعة بين العلويين بزعامة الحسين بن على بن الحسن ، وبين جيش الهادى سنة ١٦٩ هـ بفخ ، بين مكة والمدينة ، وقتل فيها الحسين . وبذلك شمل العلويين . وفر من الأحوال يحيى بن عبد الله إلى الديلم ، وإدريس إلى المغرب . وهى فى كل النسخ التى اطلعت عليها (فلج) ولكن الأستاذ البارودى يؤكد أنها محرفة عن كلمة (فخ) .

السطوح ، فأخذه ، وذهب به إلى مجلس ، وأن امرأة تبرز له من خلال الستور ، فيا [illegible] يفاوضها الحديث حتى الصباح ، وقد [illegible] على الإصهار إلى أبيها !!

وأين هـذا من المأمون فى علمه ودينه ، وأخـذه بسير الخلفاء ، وحفظه لحدود الله فى صلواته وأحكامه ؟ وأين ذلك من ابنة الحسن وشرفها ؟

وهـذه الحـكايات بعث على وضعها الانهماك فى اللذات ، وهتك المخدرات ، والتأسى بالقوم فى لذاتهم ، ولو ائتسوا بهم فى صفات الـكمال لـكان خيرا لهم

نسب الأدارسة :

ومن الأخبار الواهية مايتناجى به الطاعنون فى نسب إدريس بن إدريس ابن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على ، الإمام بعد أبيه بالمغرب الأقصى ، ويعرّضون بالحمـل المخلّف عن إدريس أنه لراشـد مولاهم ، أما يعلمون أن إدريس الأكبر ـ منذ دخل المغرب ـ عريق فى البدو ، وأحوال حرمهم بمرأى من جاراتهن ؛ لتلاصق الجـدران ، وتطامن البنيان ، وعـدم الفواصل بين المساكن ، وكان راشد يتولى خدمة الحرم بمشهد أوليائهم وشيعتهم .

وقد اتفق برابرة المغرب على بيعة إدريس الأصغر ، وخاضوا المنايا فى حروبه ، ولوجدتوا أنفسهم بمثل هذه الريبة لتجافَوا عن ذلك بعضهم .

إنما صدرت هـذه من بنى العباس وعمّالهم ، وذلك أنه لما فر إدريس

وما ظفرت برجال منهم على أهل الدولة . وربما الى حبائلهم . فقيام الدولة أعظم ما كان قوة ، واستفحلت في ذلك دعوة أتباعه . وقد تعود على الموت ، ووقود نفسهم ، وصبر والى الله في إظهار الدعوة . حتى غلب ، وظهر ، بأنه المتقشف والصبر . حتى قبضه الله وأسس على شيء من إمامة أو أولاد الذي صح إليه الغرض ، فما الذي قصد بذلك إن لم يكن وجه الله ؟ أم إنكارهم نسبه فلا يعضده حجة ، مع أنه إن ادعاه فلا دليل على بطلانه؛ لأن الناس مصدّقون في أنسابهم . والنسب الفاطمي لم يكن أمر المهدي يتوقف عليه ، ولا اتبعه الناس بسببه . وإنما بعصبيته .

الأخطاء الخفية في التاريخ :

ومن الغلط الخفي الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم بتبدل الأعصار . وهو داء شديد الخفاء ؛ إذ لا يقع إلا بعد أحقاب . ولا يتفطن له إلا الآحاد . وأحوال العالم لا تدوم على مناهج مستقرة في الأوقات والآفاق والأقطار والدول . فالفرس الأولى ، والسريانيون ، والنبط ، والتبابعة ، وبنو إسرائيل ، والقبط كانوا على أحوال خاصة في سياستهم ، وصنائعهم ، ولغاتهم ، ثم جاءت الفرس الثانية ، والروم والعرب فتبدلت الأحوال . ثم جاء الإسلام فانقلبت الأحوال انقلابة أخرى . ثم درست دولة العرب . وصار الأمر في أيدي سواهم . فاستحالت أحوال وعوائد ، وأغفل أمرها .

وما لهم والعدول عن الشريعة ، وإدريس ولد على فراش أبيه ، على أن
تنزيه أهل البيت من الإيمان ، فالله قد أذهب عنهم الرجس وطهرهم ، ففراش إدريس
طاهر منزّه بحكم القرآن . وإن الطاعنين هم الحسدة لأعقاب إدريس . وما
كان نسب بنى إدريس قد بلغ من الشهرة مبلغا لا يلحق ، إذ هو نقل الخلف
عن السلف ، وبيت جدهم مختط فاس [1] ، ومسجده لصق محلاتهم ، وسيفه
منتضًى برأس المئذنة العظمى ، فإذا نظر غيرهم إلى ما آتاهم الله ، وما عصد
شرفهم النبوى من جلال الملك الذى كان لسلفهم ـ غصّ بريقه ، وود لو يردهم
عن شرفهم حسدا ، فيرجع إلى العناد واللجاج بمثل هذا الطعن ، وهيهات !!
فليس فى المغرب من يبلغ فى صراحة نسبه مبالغ أعقاب إدريس .

زعيم الموحّدين :

ويُلحق بهـذه المقالات القدح فى المهدى صاحب دولة الموحدين [٢]
ونسبته إلى الشعوذة ، والتـكذيب لانتسابه فى أهل البيت .

وإنما حمل الفقهاء على تـكذيبه حسدٌ عليه . فإنهم لما رأوا مناهضته فى
العلم والدين ، ثم أنه مسموع القول ، غضّوا منه بالقدح والتـكذيب ، وكانوا
يأنسون من ملوك لمتونة أعدائه تجلّة وكرامة لهم ، فـكان لحملة العلم بدولتهم
مكان ، فأصبحوا شيعة لهم ، وحربا على عدوهم ، ونقموا على المَهْدِىّ مخالفتهم
تشيعا للمتونة ، وتعصبا لدولتهم .

---

(١) مدينة بالمغرب الأقصى .

(٢) دولة قامت بالمغرب سنة ٥١٤ هـ .

العصبية بالسلطان ، وترفع إليهم سواهم ، وأصبح حرفة للمعاش ، وشمخت أنوف المتربين عن التصدي للتعليم ، واختص انتحاله بالمستضعفين ، وصار منتحله محتقرا عند أهل العصبية والملك . والحجاج أبوه من سادات ثقيف ، ولم يكن تعليمه للقرآن حرفة للمعاش .

ألقاب ملوك الأندلس :

ومن هذا ما يتوهمه المتصفحون للتاريخ إذا سمعوا أحوال القضاة ، وما كانوا عليه من الرياسة في الحروب ، فيترامى بهم الهمم إلى تلك الرتب . حتى يسمعون بابن أبي عامر حاجب هشام ، والمستبد عليه ، وابن عباد من ملوك الطوائف . وأمثالهم : إن آباءهم كانوا قضاة . فيظنون أنهم مثل القضاة لعهدنا ولا يتفطنون لما وقع في القضاء من مخالفة العوائد ، وإن ابن أبي عامر وابن عباد كانا من العرب القائمين بالدولة ، ولم يناسبهم الملك خطة القضاء ، بل لقد كان القضاء لأهل العصبية . وانظر خروجهم بالعساكر وتقلدهم عظائم الأمور . وأكثر ما يقع في الغلط ضعفاء البصائر من الأندلس لفقدان العصبية . بفناء العرب ودولتهم ، وقد بقيت أنسابهم محفوظة ، والذريعة إلى العصبية مفقودة ، بل صاروا من الرعايا متخاذلين يحسبون أنسابهم هي التي بها التغلب ، فتجد أهل الحرف منهم ساعين في نسبه . أما من باشر أحوال العصبية ، فقلما يخطئون .

والسبب أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه . وأهل الملك إذا استولوا على الأمر فلابد أن يرجعوا إلى عوائد من قبلهم ، ولا يهملوا عوائد جيلهم ، فيقع في الدولة بعض المخالفة لعوائد الجيل الأول . فإذا جاءت دولة أخرى ومزجت من عوائدهم وعوائدها خالفتهم بعض الشيء ، وكانت للأولى أشد مخالفة ، ثم لايزال التدريج في المخالفة حتى ينتهى إلى المباينة .

والقياس والمحاكاة للإنسان طبيعة غير مأمونة ، تخرجه مع الذهول عن قصده ، فربما يسمع السامع أخبار الماضين ولا يتفطن لتغير الأحوال فيجريها على ماعرف ، فيقع في الغلط .

أبو الحجاج :

فمن هذا ماينقله المؤرخون عن الحجاج ، وأن أباه كان من المعلمين ، مع أن التعليم لذلك العهد من الصنائع البعيدة عن اعتزاز أهل العصبية . ويتشوف أهل الحرف إلى نيل الرتب التي ليسوا لها بأهل ، وربما انقطع حبلها من أيديهم ، فسقطوا في الهلكة وهم لا يعلمون استحالتها في حقهم ، وأنهم أهل صنائع للمعاش . وأن التعليم في صدر الإسلام والدولتين (الأموية والعباسية) لم يكن صناعة ، إنما كان نقلا للدين على جهة البلاغ ، فكان الدين قاموا بالملة هم الذين يعلمون كتاب الله وسنة نبيه على معنى التبليغ الخبرى ، إذ هو كتابهم ، والإسلام دينهم . فيحرصون على تفهيمه الأمة . لاتصدهم لائمة الكبر ، ويشهد لذلك بعث النبي أصحابه مع وفود العرب يعلمونهم . فلما استقرت الملة ، وكثر استنباط الأحكام ، احتاج ذلك لقانون ، وصار العلم ملكة ، واشتغل أهل

حدوثها ، وبدواعي كونها ، بأحوال القائمين بها ، وأخبارهم ، حتى يكون مستوعبا لأسباب كل حادث ، واقفا على أصول كل خبر . وحينئذ يعرض المنقول على ما عنده من القواعد والأصول ، فإن وافقها كان صحيحا ، وإلا زيّفه .

وما استكبر القدماء علم التاريخ إلا لذلك ، حتى انتحله علماء الأمة ، وقد ذهل الكثير عن السر فيه ، حتى استخف العوام مطالعته ، والخوض فيه ، والتطفل عليه ، فاختلط اللباب بالقشر ، والصادق بالكاذب .

التاريخ العام والتاريخ الخاص :

التاريخ ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل ، فأما ذكر الأحوال العامة للآفاق والأجيال فهو أُسّ المؤرخ ، وكان الناس يفردونه بالتأليف . كما فعل المسعودى في « مروج الذهب » ، شرح أحوال الأمم والآفاق في المائتين والثلثمائة ، فصار إماما للمؤرخين ، ثم فعل البكرى ذلك في « المسالك والممالك » خاصة دون غيرها من الأحوال لأن الأمم لعهده لم يقع فيها تغير . أما لهــذا العهد ــ آخر المائة الثامنة ــ فقد انقلبت أحوال المغرب واعتاض من البربر بمن طرأ من العرب من لدن المائة الخامسة . فانتزعوا عامة الأركان . هــذا إلى الطاعون الذى ذهب بالجيل ، وطوى محاسن العمران ، وجاء للدول على هرمها ، وانتقص عمــران الأرض ، فخربت الأمصار ، ودرست السبل وتبــدل الساكن ، وقد نزل بالمشرق ما نزل بالمغرب على مقدار عمرانه ، وإذا

تراجم الملوك :

ومن هــذا ما سلكه المؤرخون للدول وملوكها ، فيذكرون اسم الملك ونسبه ، وأباه ، وأمه ، ونساءه ، ولقبه وخاتمه ، وقاضيه وحاجبه ، ووزيره ، تقليداً لمؤرخي الدولتين ، الذين يضعون تواريخهم لأهل الدولة ، وأبناؤها متشوفون إلى سير أســلافهم ، ليقتفوا آثارهم ، حتى في اصطناع الرجال والقضاة ، فيحتاجون إلى ذلك

وأما حين تباينت الدول ، ووقف الغرض على معرفة الملوك ، خاصة ونسب الدول في قوتها ، ومن يناهضها من الأمم ـ فما الفائدة في ذكر النساء والخاتم من دولة قديمة لاتعرف فيها أنسابهم ؟

إنما ذلك التقليد والغفلة عن مقاصد المؤلفين وعن الأغراض من التاريخ .

ثقافة المؤرخ :

وقد زلت أقــدام كثير من المؤرخين في مثل هــذه الآراء ، ونقلها عنهم الــكافة ، وتلقوها من غير بحث ، حتى صار فن التاريخ مختلطا ، وعد من مناحي العامة .

وصاحب هذا الفن محتاج إلى العلم بقواعد السياسة ، وطبائع الموجودات ، واختلاف الأمم ، والبقاع ، والأعصار ، في السير ، والأخلاق ، والعوائد ، والنحل ، والمذاهب ، والإحاطة بالحاضر ، ومماثلة مابينه و بين الغائب ، وتعليل المتفق والمختلف ، والقيام على أصول الدول والملل ومبادئ ظهورها ، وأسباب

طبيعة العمران في الخليقة

—

التاريخ خبر عن الاجتماع الإنسانى الذى هو عمران العالم ، وما يعرض لطبيعته من التوحش والتأنس والعصبيات ، والتغلبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الدول ، وما ينتحله البشر من الكسب ، والمعاش ، والعلوم ، والصنائع . . . .

والكذب متطرق للخبر بطبيعته ، وله أسباب :

منها : التشيعات للآراء والمذاهب : فإن النفس إذا خامرها تشيع لرأى قبلت مايوافقها لأول وهلة ، وكان التشيع غطاء على بصيرتها ، فتقع في الكذب .

ومنها : الثقة بالناقلين دون تعديل أو تجريح .

ومنها : الذهول عن المقاصد .

ومنها : توهم الصدق .

ومنها : الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع .

ومنها : تقرب الناس لأصحاب المراتب بالثناء .

ومنها : — وهو سابق على الجميع — الجهل بطبائع الأحوال فى العمران : إذ لكل حادث من الحوادث — ذاتا كان أو فعلا — طبيعة فى ذاته وفيما يعرض له من أحوال .

تبدلت الأحوال تحول العالم وكأنه خلق جديد ، فاحتاج إلى من يدوّن أحوال الخليقة ، والعوائد التي تبدلت ، ويقفو مسلك المسعودي ليقتدى به من يأتي بعده من المؤرخين .

وأنا ذاكر في كتابي (العبر) ما أمكنني من ذلك .

مستحيلات أخرى :

ومن الأخبار المستحيلة ما نقله المسعودي في تمثال الزرزور الذي في مدينة رومة ، تجتمع إليه الزرازير في يوم معلوم حاملة الزيتون ، ومنه يتخذون زيتهم ، وما أبعد ذلك عن المجرى الطبيعي في اتخاذ الزيت !

ومنها ما نقله المسعودي في مدينة النحاس ، بصحراء سجلماسة [1] ظفر بها موسى ابن نصير [2] مغلقة الأبواب ، إذا أشرف الصاعد إليها على الحائط صفق ورمى بنفسه فلا يرجع آخر الدهر .

وصحراء سجلماسة قطعها الركاب ولم تعثر هذه المدينة على خبر ، وهذه الأحوال كلها مستحيلة ، وبالنسبة لما فيها من المعادن كما زاد من البعد والاستحالة .

أساس تمحيص الأخبار :

وأساس تمحيص هذه الأخبار إنما يكون بمعرفة طبائع العمران ، ولا يرجع إلى تعديل الرواة أو تجريحهم حتى يعلم أن الخبر ممكن ، فإذا كان مستحيلا فلا فائدة في التعديل والتجريح .

ولقد عد أهل النظر من المطاعن استحالة مدلول اللفظ ، وتأويله بما لا يقبله

---

(١) مقاطعة في جنوب المغرب .

(٢) فاتح المغرب والأندلس بمساعدة طارق بن زياد سنة ٩١ هـ في خلافة الوليد بن عبد الملك .

خرافة بناء الإسكندرية :

وكثيرا مايعرض للسامعين قبول الأخبار المستحيلة فينقلونها ، كما نقل المسعودى عن الإسكندر لما صدته دواب البحر عن بناء الإسكندرية ، وكيف اتخذ تابوتا فى باطنه صندوق الزجاج ، وغاص إلى قعر البحر حتى كتب صور الدواب الشيطانية وعمل تماثيلها ، ونصبها حذاء البنيان ، ففرت الدواب حين عاينتها ، وتم له بناؤها

وهى خرافة مستحيلة من قبل اتخاذه التابوت الزجاجى . ولأن الملوك لاتحمل أنفسها على هذا الغرر ، ولأن الجن لايعرف لها صور ، إنما هى قادرة على التشكل ، وما تذكر من كثرة الرءوس لها إنما المراد به البشاعة .

وهذه كلها قادحة فى الحكاية ، والقادح المحيل لها أن المنغمس فى الماء يضيق عليه الهواء للتنفس الطبيعى ، فيفقد الهواء البارد المعدل لمزاج الرئة ، ويهلك .

وهذا هو السبب فى هلاك أهل الحمامات والمداين فى الآبار والمطامير إذا سخن هواؤها بالعفونة . ولهذا السبب يكون موت الحوت إذا فارق البحر . فالهواء لايكفيه فى تعديل رئته ؛ إذ هو حار ، والماء الذى يعدله بارد ، والهواء الذى خرج إليه حار ، فيستولى الحار على روحه ويهلك ، ومنه هلاك المصعوقين .

العلوم أكثر مما وصل ، فأين علوم الفرس والكلدانيين والسريانيين ، وأهل بابل ، والقبط ؟ وإنما وصل إلينا علوم يونان خاصة لكلف المأمون بإخراجها من لغتهم بكثرة المترجمين وبذل الأموال .

وإذا كانت كل حقيقة متعقلة طبيعية يصلح أن يبحث عما يعرض لها من العوارض لذاتها . وجب أن يكون لكل مفهوم علم يخصه ، لكن الحكماء لعلهم لاحظوا العناية بالثمرات . وهذا الفن وإن كانت مسائله شريفة ، لكن ثمرته تصحيح الأخبار وهي ضعيفة فلهذا هجروه .

وهذا الفن تجد منه مسائل تجري عرضاً لأهل العلوم في براهين علومهم وهي من جنس مسائله بالموضوع والطلب . مثل ما يذكره الحكماء في إثبات النبوة من أن البشر متعاونون فيحتاجون إلى الحاكم والوازع . ومثل ما يذكر في أصول الفقه ، في إثبات اللغات من أن الناس محتاجون إلى العبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون . ومما يذكر في تعليل الأحكام الشرعية بالمقاصد ، من أن الزنا مخلط للأنساب ، والقتل مفسد للنوع ، والظلم مؤذن بخراب العمران ، فكانها مبنية على المحافظة على العمران ، فكان لها النظر فيما يعرض له .

ويقع إلينا القليل من مسائله في كلمات الحكماء ، لكنهم لم يستوفوه . فمن كلام الموبذان[١] لبهرام : « إن الملك لا يتم عزه إلا بالشريعة ، والقيام لله بطاعته ، والتصرف تحت أمره ونهيه ، ولا قوام للشريعة إلا بالملك ، ولا عز

---

(١) الموبذان : لقب لحكماء المجوس وعلمائهم .

العقل ، والتعديل هو المعتبر في الأخبار الشرعية ، لأن معظمها تكالي
أوجب الشارع العمل بها ، متى حصل الظن بصدقها ، وسبيل صحة الظن ال
بالرواة . وأما الإخبار عن الواقعات فلا بد في صدقها وصحتها من اعت
المطابقة ، فلذلك وجب أن ينظر في إمكان وقوعها ، وذلك أهم من التعديل
إذ فائدة الإنشاء مقتبسة منه ، أما فائدة الخبر فمنه ومن الخارج بالمطابقة .

والقانون في تمييز الحق بالإمكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشر
وتمييز ما يمكن أن يلحقه من الأحوال وما لا يمكن أن يعرض له . وذلك قا
في تمييز الحق بوجه برهاني . فإذا سمعنا عن الأحوال الواقعة في العمران ع
ما نحكم بقبوله مما نحكم بزيفه ، وكان ذلك معيارا صحيحا ، وهو غرض ه
الكتاب .

علم الاجتماع :

هو علم مستقل ، ذو موضوع هو العمران البشري والاجتماع الإنساني
وذو مسائل هي بيان ما يلحقه من العوارض ، وهذا شأن كل العلوم .

والكلام في هذا العرض مستحدث ، غريب الفائدة ، أعثر عليه
البحث ، وليس من علم الخطابة التي موضوعها الأقوال المقنعة في است
الجمهور ، ولا هو من علم السياسة التي هي تدبير المنزل أو المدينة بمقتضى
الأخلاق والحكمة ، من أجل حفظ النوع وبقائه .

إنما هو علم مستنبط ، لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخ
لا أدري ألغفلتهم ؟ أم لعلهم كتبوا ولم يصل إلينا ؛ فما لم يصل إلينا

[illegible] (1) [illegible]

[illegible]

[illegible] والآن [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

والآن [illegible]

والكسب [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

العمران [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] هذا [illegible]

[illegible] والعمران

البدوي والبدو [illegible] الحضري [illegible]

---

(1) [illegible]

بالإسكندرية [illegible] ٣٠٠ [illegible]

[illegible]

الملك إلا بالرجال، ولا قوام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل، والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة، نصبه الرب، وجعل له قيمًا هو المَلِك ».

ومن كلام أنو شروان في المعنى : « المُلك بالجُند، والجند بالمال، والمال بالخراج، والخراج بالعمارة، والعمارة بالعدل، والعدل بإصلاح العمال، وإصلاح العمال باستقامة الوزراء، ورأس الكل بافتقاد الملك حال رعيته بنفسه، واقتداره على تأديبها، حتى يملكها ولا تملكه ».

وفي كتاب أرسطو في السياسة جزء صالح منه، إلا أنه غير مستوف، وقد أشار إلى كلمات المو بذان وأنو شروان، وجعلها في الدائرة القريبة، وهو قوله : « العالم بستان، سياجه الدولة، الدولة سلطان تحيا به السنة، السنة سياسة يسوسها الملك، الملك نظام يعضده الجند، الجند أعوان يكفلهم المال، المال رزق تجمعه الرعية، الرعية عبيد يكنفهم العدل، العدل مألوف وبه قوام العالم، العالم بستان . . » فهذه ثمان كلمات سياسية، اتصلت في دائرة لا تتعين طرفيها، وقد فخر بعثوره عليها. وكلامنا في الدول والملك، مستمر ونفصيل. أطلعنا الله عليه من غير تعليم أرسطو، ولا إفادة مو بذان.

وفي كلام ابن المقفع من ذكر السياسات الكثير من مسائل كتابنا غير مبرهنة، إنما يجليها على منحى الخطابة في الترسل وبلاغة الكلام.

وما لم يكن التعاون فلا قوت ، ولا غذاء ، فلا تتم حياته ، ولا يحصل له دفاع ، فيعاجله الهلاك ، ويبطل نوع البشر ، وإذا كان التعاون حصل له القوت والسلاح .

وإذن فهذا الاجتماع ضروري له لتكمل وجوده باعتبار العالم . وهذا هو معنى العمران الذى جعلناه موضوعا لهذا العلم .

وإذا حصل الاجتماع للبشر ، وتم العمران ، فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض ، لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم ، وليست آلة السلاح كافية في دفع العدوان لأنها موجودة لجميعهم . فلا بد من شيء آخر يدفع بعضهم عن بعض . ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم وإلهاماتهم . فيكون ذلك الوازع واحدا منهم ، له الغلبة والسلطان ، واليد القاهرة ، حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان . وهذا هو معنى الملك ، وهو خاصة للإنسان طبيعية فيه . وقد يوجد في بعض الحيوانات إلا أنه بالفطرة لا بالفكرة .

ويزيد الفلاسفة إثبات النبوة بالدليل العقلي ، فيقررون أنه لا بد للبشر من الحكم الوازع . ثم يقولون : وذلك الحكم بشرع من الله يأتي به واحد من البشر مميز عما فيه من خواص هدايته ليقع التسليم والقبول منه .

والقضية غير برهانية ، إذ حياة البشر تتم بما يفرضه الحاكم لنفسه ، أو بالعصبية التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادته . فأهل الكتاب

الباب الأول

العمران البشري

ص ٣٥

الإنسان مدني بالطبع :

إن الله خلق الإنسان على صورة لا يصح نموها إلا بالغذاء . وهداه إلى التماسه بفطرته ، وركب فيه القدرة على تحصيله ، إلا أن قدرة الواحد قاصرة . ولو فرضنا أقل ما يمكن ، وهو قوت يوم من الحنطة ، فلا يحصل إلا بالطحن والعجن والطبخ ، وهو يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بحداد ، ونجار ، وفاخوري ، وهب أنه يأكله حبا فهو يحتاج إلى الزراعة ، والحصاد ، والدراس وإلى آلات وصنائع أكثر . ويستحيل أن توفي بذلك قدرة الواحد . فلابد من اجتماع القدر ليحصل بالتعاون قدر الكفاية .

وكذلك يحتاج في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه ، لأن الله جعل حظوظ الحيوانات من القدرة أكمل من حظ الإنسان . ولما كان العدوان طبيعيا في الحيوان جعل لكل منها عضوا يختص بمدافعة ما يصل إليه من عادية غيره ، وجعل للإنسان الفكر واليد ، فاليد مهيأة للصنائع بخدمة الفكر ، والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب عن الجوارح في الحيوانات ، ولا تفي قدرته بالآلات للمدافعة لكثرتها وكثرة الصنائع المعدة لها .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] (١) [illegible]

[illegible] والمراد [illegible]

---

(١) [illegible]
[illegible]
[illegible]

الأنهــــــار :

وفي المعمور أنهار كثيرة أعظمها النيل ، والفرات ، ودجلة ، وجيحون :
فالنيل مبدؤه جبل وراء خط الاستواء . ويخرج منه عيون تصب في بحيرة ،
يخرج منها نهران أحدهما إلى الشمال . فيمر بالنوبة ثم بمصر ، فإذا جاوزها تشعب
في شعب ، تصب كلها في البحر الرومي . ويسمى نيل مصر . ويذهب الآخر
إلى الغرب ، إلى أن يصب في المحيط وهو نهر السودان (الكنغو)

وأما الفرات فمبدؤه أرمينية [1] ، ويمر جنوبا في أرض الروم ، ويتخطى
إلى مَنْبِج وصِفِّين ، والرقة والكوفة إلى البطحاء بين البصرة وواسط ،
ويصب في البحر الهندي

وأما دِجلة فمبدؤه من أرمينية ويمر بالموصل ، وأذربيجان ، وبغداد إلى
واسط ، وإلى بحر فارس ، وبين الفرات ودجلة جزيرة الموصل .

وأما جَيحون فمبدؤه بلخ ويمر من الجنوب إلى الشمال ، بخراسان ، إلى
خوارزم ، فيصب في بحيرة الجرجانية ، وغربيّه خراسان ، وخوارزم ،
وشرقيه بخارى وترمذ وسَمَرقند [2] .

لماذا كان الربع الشمالي من الأرض أكثر عمرانا .

الأول والثاني من الأقاليم المعمورة أقل عمرانا ، وعمرانها تتخلله القفار

(١) إقليم في شمال العراق
(٢) مدن وأقاليم في بلاد فارس

انتهى إلى المحيط الشرقي إلى بلاد الصين ، ويسامت من الخط ـ وعلى ثلاث [illegible] (الخط الهندي) [illegible] إلى الحبشة ، والزنج ، وباب المندب ، وعليه من الجنوب بلاد الزنج ومقديشو ، ومن الشمال الصين ، والهند ، والسند ، واليمن ، والحبشة ، ويخرج منه بحران

أحدهما : عند باب المندب ، ناحية الشمال ، ويسمى بحر القلزم أو بحر السويس (البحر الأحمر) ، وعليه من الشرق سواحل اليمن ، والحجاز ، ومدين ، ومن الغرب الصعيد ، وعيذاب [1] ، وسواكن ، وزيلع ، والحبشة ، وآخره يسامت البحر الرومي عند العريش ، وما زال الملوك في الإسلام وقبله يرومون خرق ما بينهما [2] .

والثاني : يخرج ما بين السند والأحقاف ناحية الشمال إلى البصرة ، ويسمى الخليج الأخضر (الخليج الفارسي) وعليه السند ، ومكران ، وكرمان ، وفارس ، والأبلة شرقا ، والبحرين ، واليمامة ، وعمان ، والشحر ، والأحقاف غربا . وبينه وبين القلزم جزيرة العرب ، وتفضي للعراق بين الشام والبصرة . وفيها الحجاز في الغرب ، واليمامة ، والبحرين ، وعمان في الشرق ، واليمن في الجنوب .

---

(١) ميناء مصري على البحر الأحمر .
(٢) يشير إلى فكرة قناة السويس

[illegible]

[illegible]

وذلك لأن دائرة معدل النهار تقسم الفلك بنصفين ، والفلك يتحرك من المشرق إلى المغرب حركة يومية . وللكواكب حركة مخالفة . وحركات الكواكب في أفلاكها توازي دائرة الفلك وهي منطبقة لدائرة معدل النهار على نقطتين متقابلتين . فتقسم دائرة معدل النهار نصفين . نصف مائل الشمال . ونصف مائل الجنوب . وإذا وقع القطبان على الأفق في نواحي الأرض . خط الاستواء . سامتت دائرة معدل النهار . والعمران في الجهة الشمالية منه ، والقطب الشمالي يرتفع بالتدريج إلى أربع وستين درجة . وهنالك ينقطع العمران . وإذا ارتفع تسعين درجة صار القطب على سمت الرؤوس ، ودائرة معدل النهار على الأفق . والعمارة فيما بين الأربع والستين إلى التسعين ممتنعة . لأن الحر والبرد لا يحصلان ممتزجين فلا يحصل التكوين

فالشمس تسامت الرؤوس على خط الاستواء ثم تميل إلى رأس السرطان أو الجدي ، ويكون ميلها أربعا وعشرين درجة . فإذا ارتفع القطب الشمالي مالت دائرة معدل النهار بمقدار ارتفاعه وانخفض القطب الجنوبي بمقدار متساو وذلك هو المسمى عرض البلد . ثم إن الشمس عند المسامتة تبعث الأشعة على زوايا قائمة . ودون المسامتة على زوايا منفرجة وحادة . وإذا كانت قائمة عظم الضوء . بخلاف المنفرجة والحادة ، فلهذا يكون الحر عند المسامتة أكثر

وقد قسَّموا كل واحد من الأقاليم السبعة بعشرة أجزاء متساوية .

الإقليم الأول :

وفى غربيِّه الجزائر الخالدات [1] التى مرت بها سفائن الإفرنج ووقعوا وباعوا أساراهم بسواحل المغرب الأقصى ، فأخبروا عن بلادهم وأنهم يحتفرون الأرض للزراعة بالقرون ، لأن الحديد مفقود عندهم ، وعيشتهم الشعير ، وماشيتهم المَعْز ، وقتالهم بالحجارة ، وعبادتهم للشمس .

والجزء الأول من هـذا الإقليم فيـه مَصبُّ نيل السودان عند جزيرة أوليك ، وعلى هـذا النيل مدينة سَلَا وتَـكْرُور ، وغانَة ، وقرب شماليِّها بلاد (لَمْتُونة) وطوائف المُلَثَّمين ، [2] وفى جنوبىِّ النيل قوم (لَمْلَم) وهم كفار يكتَوُون فى وجوههم وأصداغهم ، وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ، ويسْبُونهم ، ويبيعونهم للتجار ، فيجلبونهم إلى المغرب ، وليس وراءهم فى الجنوب إلا أناسى أقرب إلى الحيوان يسكنون الكهوف ، ويأكلون العشب ، وربما يأكل بعضهم بعضا ، وكان فى غانة ملك ودولة لقوم من العَلَويِّين يعرفون بنى صالح .

وفى الجزء الثالث من هذا الإقليم نهر ينبع من الجبال ويمر مغرِّبا ، فيغوص فى رمال الجزء الثانى ، وفى شرقيِّه زَغَاوة المتصلة بالنوبة ، وفيه يمر نيل مصر .

---

(١) مجموعة جزر فى المحيط الأطلسى تجاه الشاطئ الشمالى الغربى لإفريقيا ، ولكن الظاهر أن ابن خلدون يريد مجموعة أخرى من الجزائر تسمى جزائر الرأس الأخضر تجاه ساحل غانة .

(٢) الملثمون أو المرابطون [illegible] دولة قامت بالمغرب سنة [illegible] هـ

الأقاليم السبعة

ص
٤٠

الجغرافيا :

ينقسم المعمور من الأرض على السبعة الأقاليم . فالأول مارٌّ من الغرب إلى الشرق مع خط الاستواء يحدّه من الجنوب ، وليس وراءه إلا القفار . ومن شماليّه الإقليمُ الثانى ثم الثالث . والسابع آخِر العمران من الشمال . والخلاء فى الشمال أقل منه فى الجنوب . ثم إن أزمنة الليل والنهار تتفاوت بسبب مَيْل الشمس عن دائرة معدل النهار . وينتهى طول الليل والنهار فى آخر الإقليم الأول ــ عند حلول الشمس برأس الجدى لليل ، وبرأس السرطان للنهار ــ إلى ثلاث عشرة ساعة ، وفى آخر الإقليم الثانى ينتهى طول النهار ــ عند حلول الشمس برأس السرطان ــ إلى ثلاث عشرة ونصف ، ومثله طول الليل عند منقَلَبِها الشّتوى برأس الجدى ، وفى آخر الإقليم الثالث ينتهيان إلى أربع عشرة ساعة ، وفى آخر الرابع إلى أربع عشرة ونصف ، وفى آخر الخامس إلى خمس عشرة ، وهناك ينقطع العمران ، فيكون التفاوت فى زمن هذه الأقاليم بنصف ساعة لكل إقليم من أوله فى الجنوب إلى آخره فى الشمال ، موزَّعة على أجزاء هذا البعد . وأما عرض البلدان فهو بُعْدُ ما بين سمت الرأس ودائرة معدل النهار ، وبمثله ينخفض القطب الجنوبى ويرتفع القطب الشمالى .

[illegible]

[illegible]

[illegible] الأحب [illegible]

حضرموت [illegible]

الإمام [illegible]

وهذا [illegible]

والذي في [illegible] لأعلى [illegible]

الأسماء [illegible] (١) [illegible]

[illegible] (٢) [illegible]

[illegible] أسود [illegible]

[illegible]

[illegible]

وفي [illegible]

[illegible]

[illegible] (٣) [illegible]

(١) [illegible]
(٢) [illegible]
(٣) [illegible]

[illegible] الاسـ [illegible]

[illegible]

[illegible]

ويقسم نصفين فيمر الغربي في السودان فيصب في المحيط . ويخرج الشرقي

في الشمال . . . في مصر . فيصب [illegible] جداولا في البحر الرومي عند

الاسكندرية ورشيد ودمياط . وداخل في جبال (الواحات) وعلى

النيل [illegible] الحبشة . والواحات . وخصر النوبة [illegible] شرقي النيل

وبعده جبل الجنادل . وهو جبال من جبال مصر . [illegible] النيل . فيصب في

بحور لا تمكن أن تسلكه المراكب

ووسط الاقليم في الجزء الخامس بلاد الحبشة على واد [illegible] من وراء

خط الاستواء في النوبة . ويصب في نيل مصر

وفي الجزء السادس جزيرة العرب ويشتمل على بلاد اليمن . والحجاز .

واليمامة . وعلى الساحل الغربي لبحر القلزم زيلع من الحبشة . وفيها جامع

[illegible] . وفيه جزيرة سواكن . وفي جنوبي [illegible] بربرة . ومنها

بلاد الزنج . وجزائر البحر الهندي وهي كثيرة . أعظمها سرنديب وفيها

الجبل المشهور . [illegible] الناس في الأرض على ما [illegible] جزيرة القمر وهي مستطيلة

تذهب إلى المشرق منحرفة الى الشمال . تقرب من سواحل أعالي الصين . وتحف

جنوبيها جزائر الواقواق . وشرقيها جزائر سيلان وجزائر أخرى فيها الطيب .

والذهب . وجزائر [illegible] واهلها على المجوسية . وفيها من أحوال العمران عجائب .

الاقليم الثالث :

فى الجزء الأول منه نحو الثلث من أعلاه : جبل دَرَن يسكنه البربر ، وبين الجبل والإقليم الثانى على المحيط : رَباط . ويتصل به شرقاً سُوس . وعلى سمتها دِرْعة . ثم سِجِلْماسَة ، ثم قطعة من صحراء بَسْتَر ، وهذا الجبل مُطِلٌّ على هذه البلاد كلها . وفى هذه الناحية منه قبائل صَنْهاجَة وبعض قبائل زَنَاتة [1] ، ويتصل به هنالك جبل أوراس . ودَرَن من غربيِّه مُطِلٌّ على بلاد المغرب الأقصى ، ففى جنوبيِّها مَرّاكُش ، وأَغْمات ، وعلى المحيط سَالَا ، وفى الجَوْف فاس ، ومَكْنَاسَة ، وتازا ، وقصر كتامه [2] ، وهذه تسمى المغرب الأقصى . وعلى المحيط أصيلا والعَرائِش ، وفى سَمْتها شرقاً المغرب الأوسط [3] وقاعدته تِلِمْسان . وفى سواحل البحر الرومى هُنَيْن ، ووَهْران ، والجزائر ، ويتصل بها بِجَايَة وقسنْطِينَة ، وعلى مرحلة فى الجنوب: أَمسِيلة [4] ، ثم الزّاب [5] ، وقاعدتها بَسْكَرَة تحت جبل أوراس .

والثانى : على هيئة الأول ، فيه القطعة الجنوبية من جبل درن ، غربيّها كله مَفاوز ، وشرقيّها غَدَامِس . وعلى الساحل نونَة . وشرقاً نُواس ، ثم

---

(١) قبائل من البربر .

(٢) أسماء مدن ومقاطعات فى المغرب الأقصى (مراكس) .

(٣) منطقة الجزائر .

(٤) بلدان ومقاطعات فى القطر الجزائرى .

(٥) مقاطعه مشهوره فى شمال جبل أوراس بالجزائر .

عند دِلاَص ، وشرقيَّ المقطم صحارى عَيْذَاب ذاهبةً فى الجزء الخامس إلى بحر السّويْس وفى عدوته الشرقية الحجاز من تَلمْلَمَ إلى يَثْرِب ، ووسطه مَكَّة ، وفى ساحلها جُدَّة [١] .

وفى الجزء السادس: من غربيه بلاد نجد ، وتَبالة ، وجَرَش إلى عكاظ من الشمال، وتحت نجد بقية الحجاز ، وفى الشرق نَجْران وخَيْبَر ، وتحتها اليمامة ، وعلى سمت نَجْران فى الشرق أرض سَبَا ، ومأرِب ، ثم الشِّحْر ، وينتهى إلى بحر فارس ، وتحتها عُمان ثم البَحْرَين وهَجَر [٢] .

وأعلى السابع : من غربيِّه قطعة من بحر فارس ، وعليه بلاد السِّند ، ونهره الآتى من ناحية الهند ، وهو يصب فى البحر الهندى .

وفى الثامن : من غربيّه تَاهَرَا وسمتها شرقا القَنْدَهَار ثم مِليبار، وفى الأعلى على ساحل الهندى كابُل ، وشرقا قَشْمِير الداخلة وقشمير الخارجة [٣] .

والتاسع : فى الغرب منه الهند الأقصى ، و يتصل من أعلاه إلى العاشر ، وتبقى فى أسفل ذلك قطعة من الصِّين ثم تتصل الصين فى العاشر كله بالمحيط .

---

(١) بلدان مشهورة فى الحجاز .
(٢) أماكن فى الجزيرة العربية .
(٣) أسماء بلدان ومقاطعات فى الهند .

من جزيرة قُبْرص ، وعلى ساحلها العَرِيش ، وعَسْقَلاَن، وتَنْحَطُّ هذه القطعة عند غَزَّة ، وعليه سواحل الشام : غَزَّة وعَسْقَلاَن وقَيْسَارِيَّة ، وعَكَّا [1] ، وصُور ، وصَيْدا [2] ويقابل هــذه البلاد جبل يخرج من القُلزم ناحية الشَّمال ويسمى اللُّــكام فى طرفه العقبة ، ثم مَدَّ فى الخليل عند جبل السَّراة ، وفى شرقه الحِجْر ، وديار ثَمُود ، وتَيْماء ، ودَوْمَة الجَنْدَل ، وهى أسافل الحجاز ، وفوقها رَضْوَى وخَيْبَر ، وتَبُوك [3] ، وشمالىَّ السَّراة : القُدْس ، والأُرْدُنّ ، وطَبَرِيَّة ، وشرقيَّها : الغَوْر [4] وعنــد منعطف اللُّــكام — للشمال — دمشق ، يقابلها صَيْدا و بَيْرُوت ، وعلى سمت دمشق — شرقًا — بَعْلَبَك ، ثم حِمْص [5] .

والسادس : أعلاه مجــالات الأعراب تحت نَجْد واليمــامة إلى البحرين وهَجَر [7] ، وأسافله الحِيرة والقَادِسِــيَّة ، وشرقًا البَصْرة ، وفيــه ينتهى بحر فارس عند عبادان والأُبُلَّة ، وفيه يصب دِجْلَة [7] .

وهذه القطعــة من البحر على عُدْوَتهــا الغربية أسافل البحرين وهَجَر

---

(١) موانئ فى الجزء المغتصب من فلسطين ماعدا غزة فإنها مازالت عربية .
(٢) مبناءان فى لبنان .
(٣) أماكن فى بلاد الحجاز .
(٤) بلدان فى المملكة الأردنية .
(٥) دمشق وحمص مدينتان معروفتان فى الإقليم السورى ، أما صيدا وبيروت وبعلبك فمن مدن الجمهورية اللبنانية .
(٦) مقاطعات وإمارات فى شرق الجزيرة العربية .
(٧) بلدان وأماكن فى العراق .

سجلماسة ، ثم [illegible] ، وفي جنوب [illegible] ، ثم قفصة ، ثم [illegible] على الساحل
قابس (١) ، وعلى ساحل البحر طرابلس (٢) .

وفي الثالث : ينتهي جبل درن في أسماء ويدخل في البحر الرومي ، ووراء
الجبل في الجنوب والغرب لمتونة وودّان . ومجالات العرب فيها ، ثم زَوِيلَةَ ابن
خطّاب ، وبين الجبل والبحر في الغرب سَرْت . ثم أَجْدَابِيَّة ثم بَرْقَة . (٣)

وفي الرابع : أعلى غربيّة صحارى بَرْقِيق ، ثم يدخل فيه البحر الرومي ، وبينه
وبين آخر الجزء صحارى ، وعلى سمتها شرقًا الفَيُّوم على مصب أحد شعبي
النيل الذي يصب في بحيرة فَيُّوم . وعلى سمته شرقًا مصر ومدينتها المشهورة على
الشّعب الثاني . ويفترق هذا الشّعب من تحت مصر على شعبين آخرين من
شَطَنُوف وزِفْتَى . وينقسم الأيمن بشعبين آخرين وتَصُبُّ جميعها في البحر
الرومي ، فعلى مصب الشعب الغربي مدينة الإسْكَنْدَرِيَّة ، وعلى الوسط رشيد
وعلى الشرق دِمْياط .

وفي الخامس : الشام . فبحر القُلْزُم ينتهي إلى السُّوَيْس ، ثم الطُّور ثم
أيْلَة (٤) . ثم الحَوْراء . وينعطف ساحله إلى الجنوب في الحِجْر ، وتملأ
هذا الجزء قطعة من البحر الرومي . عليها الفَرَما ، والعريش ، وفيها طائفة

---

(١) قابس في الجمهورية التونسية .
(٢) الإقليم الغربي للمملكة الليبية المتحدة .
(٣) الإقليم الشرقي للمملكة الليبية المتحدة .
(٤) أيلة في الشمال الشرقي لخليج العقبة (إيلات) :

الإقليم الرابع :

الجزء الأول : غربيُّه قطعة فى المحيط ، عليها فى الجنوب طَنْجَة ، ومن المحيط إلى البحر الرومى خليج بين طَرِيف والجزيرة الخضراء شمالا ، وقصر المجاز وسَبْتَة جنوباً ، ويذهب مُشَرِّقاً ، وينفسح بتدريج ، ويسمى البحر الشامى ، وفيه جزائر مَايُرْقة ، ومَنُرْقة ، وسَرْدَانِيَّة ، وصَقَلِّيَة ، وإِقْرِيطِش ، وقُبْرُص . ويخرج من الرومى خليج البنادقة إلى الشمال ، وخليج القُسْطَنْطِينِيَّة فى الشرق وينعطف إلى بحر نَيْطَش .

وبعد طَنْجَة — على مجمع البحرين — مدينتا سَبْتَة وقَطَاوْن ، وأكثر العمارة فى الشمال وهى الأَنْدَلُس ، وأَوَّلها طَرِيف وشرقيّها الجزيرة الخضراء ، ومَالَقَة ، والمَرِيَّة ، وشَرِيش ، وشرقيّها أَشْبِيلِيَّة ، وقُرْطُبَة وغَرْناطَة وجَيَّان وفى شرق الأندلس — على ساحل الرومى — قَرْطَاجَنَّة[1] ، وبَلَنْسِيَة ، وطَرْطُوشَة ، وشمالا طُلَيْطِلَة ، وسَرَقَسْطَة[2] .

والثانى : غمره الماء إلا قطعة من غربيِّه الشمالى ، فيها جبل البَرْتَات (البرانس) يبدأ من المحيط ويمر فى الجنوب إلى الشرق ، وعلى ساحل الرومى

---

(١) مقاطعة فى الجنوب الشرقى للأندلس على ساحل البحر الأبيض وتسمى قرطاجنة الحلفاء وهى غير قرطاجنة المشهورة فى تونس .

(٢) بلدان ومقاطعات بالأندلس .

والأَحْسَاء ، وعلى عُدوتها الشرقية سواحل فارس ، ووراءَها إلى الجنوب : جبال القَفْص من كِرْمان ، وشرقيّها على الساحل سِيرَاف ونُجَيْرِم ، وفى الشرق سَابُور ، ونَسَا وإِصْطَخْر ، والشَّاهْجَان ، وشِيرَاز ، وتحت فارس : الأَهْوَاز ، وأَرَّجَان ، ثم جبال الأكراد .

وأعلى السابع : من الغرب بقية جبال القَفْص ، والجنوب والشمال كِرْمان ومَكْران ، وتحت كِرمان إلى الشمال بقيةُ فارس وأَصْبَهان مابين غربه وشماله ، وفى المشرق عند كرمان : أرض سِجِسْتان وكُوهِسْتان .

والثامن : غربه وجنوبه مجالات الترك ، وفى الشمال جبال الغَوْر ، وقاعدتها غَزْنة ، وشمال الغور إِسْتِرَابَاذ ، وشمالُها هَرَاة ، وبها إِسْفَرَايِن ، وقَاشَان[1] ، وتنتهى خراسان إلى نهر جَيْحُون ، وعلى غربيّه بَلْخ ، وشرقيّه تِرْمِذ ، ويَمُدُّه خمسة أنهار ، ويصب فى بحيرة خُوَارَزْم .

والتاسع : غربيُّهُ التُّبَّت ، وجنوبيّها الهند ، وشرقيّها الصين .

أما العاشر : فالجنوب منه الصِّين ، وقُبالَتَها فى المحيط جزيرةُ الياقوت ، وسْط جبل صعب ، وفيها حصًى من الياقوت يحتال أهل الناحية فى استخراجه ، وأهل هذا الجزء رَحَّالة ، وفيهم مسلمون .

---

(١) بلدان وأقاليم فى بلاد فارس .

بطرسوس ، والمصيصة ، ويصب فى بحر الروم جنوبىّ سَلُوقِيَّة ، ويمر سيحان مُوازياً له ، فيُحاذى المعرة ومرعش إلى الشام ، فيختلط بجيحان عند المصيصة.

وأما بلاد الجزيرة ففى جنوبها بلد الرَّافِقَة ، والرَّقّة ، وحَرّان ، والرُّها ونَصِيبِين ، وآمَد ، وفى هذه القطعة الفرات ودجلة يجريان فى بلاد الأرمن جنوباً إلى أن يتجاوزا السلسلة .

والسادس : فى غربيه بلاد الجزيرة ، وشرقيها العراق ، ويعترضه جبل أَصْبَهان ، فيقطعه قطعتين ، فى الغربية من جنوبيّها مخرج الفرات ، وشماليّها مخرج دِجلة .

أما الفرات فينعطف للجنوب قرب الخابور إلى غرب الرَّحْبَة ، ويخرج مُشَرِّقاً إلى الزَّاب[1] والأَنْبار . ثم يمر جنوباً ، وينعطف شرقاً ، وينقسم لشُعَب يمر بعضها بالكوفة وبعضها بقصر ابن هُبَيْرَة . ثم يصب فى دجلة عند بغداد .

وأما دِجلة فيمر ـ مشرّقاً ـ بجزيرة ابن عُمَر ، والمَوْصِل ، وتَكْرِيت . وينعطف جنوباً إلى القادِسِيَّة فبَغْداد . ثم يصب فى بحر فارس عند عَبَادَان .

---

(١) منطقة فى الجنوب الشرقى لأرمينية . وتقع فى الجهة الشرقية للموصل ، وفيها نهران بهذا الاسم يصبان فى نهر دجلة أحدهما الزاب الأعلى والآخر الزاب الأسفل ، وقد حدثت فيها موقعة شهيرة باسم موقعة الزاب بين جيوش بنى أمية بقيادة آخر خلفائها مروان بن محمد وجيوش الدولة العباسية بقيادة عبد الله بن على عم السفاح . وهذه المنطقة غير منطقة الزاب الواقعة بالقطر الجزائرى (انظر الإقليم الثالث) .

بَرْسِلُونَة ثم أَرْبُونَة ، وفى البحر جزائر كثيرة : ففى غربيه سَرْدَانِية ، وفى شرقيه صَقَلِّيَة وبها مدن سَرَقُوسَة . وبَلَرْم ، ومَسِّينى .

والثالث : مغمور بالبحر إلا ثلاث قطع ، منها بلاد البنادقة .

والرابع : مغمور ، وجزائره غير مسكونة إلا بَلُونِس وإِقْرِيطِش .

والخامس : مغمور بالبحر إلا ثُلثَه الشرقى الذى يقع فى الجزء الجنوبى منه أسافل الشام ، ووسطُها جبل اللُّكام الذى ينعطف إلى الشرق الشمالى ، ويسمى السلسلة ، ويجوز قطعة من بلاد الجزيرة إلى الشرق ، وعند مُنعَطَفه من المغرب جبال بينها دروب تُفْضى إلى بلاد الأرمن ، وفى أسافل الشام على الساحل بلد أَنْطَرْطُوس ، وشمالُها جَبْلَة ، واللَّاذِقِيَّة ، وإِسْكَنْدَرُونَة ، وسَلُوقِيَّة . وأما جبل اللُّكام فيجاوره حِصْن الحوانى ، وهو للإسماعيلية المعروفين بالفِدَاوِيَّة . وقُبالة الحصن سَلْمِيَّة فى شمال حِمْص ، وفى الشمال أَنْطَاكِيَّة ، ويقابلها المَعَرَّة ، وشرقيَّها المَرَاغَة ، وشمالى أنطاكية : المَصِيصَة ، وأَذَنَة ، ثم طَرْطُوس ، ويحاذيها من الغرب قِنِّسْرِين ، وتقابلها شرقاً حَلَب ، وعين زَرْبة وقُبالتها مَنْبِج .

وأما الدروب فعن يمينها بلاد الروم التى هى للتُّرْكُمان ، وفى الساحل أَنْطَاكِيَّة .

وأما بلاد الأَرْمَن التى بين الدروب والسلسلة ففيها مَرْعَش ومَلَطْيَة والمَعَرَّة ، ويخرج من بلاد الأرمن نهرا جَيْحان وسَيْحان ، فيمر جيحان

الضخمة والهياكل والكنائس ، ومن عجائبها النهر الجارى وسطها ، مفروش قاعُه ببلاط النحاس ، وفيها كنيسة بُطرُس و بُولِس من الحَوَارِيِّين ، وهما مدفونان بها . وفى الشَّمال عن رُومَة بلاد أَفْرَنْصِيصَة (فرنسا) وجنوب رُومة على البحر نَابُل (نَابلى) .

والثالث : شرقيّة خليج البنادقة ذاهبا إلى الشمال ، وعلى سمته جبل يُوازيه ، و بين الخليج والجبل إلى الشمال بلاد البنادقة ، و إلى الغرب بلاد الألمانيين .

وفى الرابع : قطعة من البحر الرومى ، يخرج منها إلى الشمال خليج القُسْطَنْطِينِيَّة ، التى فى شرقى هذا الخليج ، وهى المدينة العظيمة التى كانت كُرسىّ القياصِرة ، والقطعة بين البحر والخليج فيها مَقْدُونِيَّة التى كانت ابتداء ملك اليونانيين ، وشرقىّ الخليج قطعة من أرض باطوس و بها ملك ابن عثمان .

والخامس : غربيه وجنوبه أرض باطوس ، وشمالها بلاد عَمُّورِيَّة [1] ، وشرقها نهر يمد الفرات ، وفى شرقه مبدأ دجلة ، وفى الزاوية بين الجنوب والشرق بلد مَيَّا فَارِقين .

والسادس : فى جنوبه وغربه أرمِينِيَّة ، و يتاخمها من الشرق أَذْرَبِيجَان و بينهما بلاد الزاب .

---

(١) بلد فى آسية الصغرى بالغرب من أنقرة وقعت فيها الوقعة المشهورة بين الخليفة المعتصم و بين الروم .

والسابع : فى غربه وجنوبه هَمَذَان وقَزْوِين ، وفى غربيها جبل نحته قَاشَان وقُمّ ، ويشتمل منعطفه على بلد الرّى فى شرقيه ، وجنوبيه قزوين ، ومن جانبه الشمالى طَبَرِسْتان ، وبينه وبين جبل الرّى بلاد جُرْجَان ، ومنها بَسْطَام ، ووراءه اسْتِرَابَاذ ، وحافاته الشرقية بلاد نَيْسَابُور ومَرْو الشَّاهِجَان ، وفى شماليّه طُوس ونَسَا .

والثامن : فى غربيّه نهر جَيْحون ، فى عُدْوَته الغربية خُراسان وخُوَارَزْم ، ويحيط بزاويته الغربية الجنوبية جبل اسْتَرَابَاذ وفيها بقية بلاد هَرَاة وشرقى جيحون ــ جنوب هذا الجزء ــ بُخَارى ، والصّغْد وقاعدتها سَمَرْقَنْد [1] .

والتاسع والعاشر : يسكنهما أمم من الترك ، وفيهما بلاد يَأْجُوج ومأجوج

الإقليم الخامس : ص ٦٢

الجزء الأول : أكثره مغمور ، والمنكشف من جنوبه مثلث فيه جزء من غرب الأندلس ، أما المنكشف من الشرق فمثلّث زاويته الحادة وراء جبال البرنات شرقا .

والثانى : غربيّهُ قطعة من البحر الرومى مائلة للشرق ، على رأسها شمالا جِنْوة ، وفى الشرق طرف آخر من البحر ، بينهما جزء داخل من البر ، فى غربيّه نِيش (نِيس) وشرقيّه رُومة كرسىّ الإِفرِنجة ، ومسكن البابا ، وفيها المبانى

---

(١) بلدان وأقاليم فى فارس .

وفى الخامس : يتصل بحر نيطش ، ويبقى وراءه فى الجهة الجنوبية بر مستطيل فى غربه هِرَقْلِيَّة ، متصلة بالبَيْلَقان ، وشمال نيطش الشرقى بلاد الرّوسِية .

والسادس : فى غربيِّه بقية نيطش ، ينحرف إلى الشمال وفى الجهة الشرقية الشمالية منه أرض بَلْغَار .

والسابع : فى جنوبه قطعة من أرض الخزر ، وفى شرقها قطعة من بحر طَبَرِسْتان .

والثامن : جنوبيه أرضٌ للترك ، والأرض التى يقال إن يأجوج ومأجوج خرّباها قبل بناء السد ، والأرض المُنْتِنَة حيث يبدأ نهر الأَتل (الأورال) من أعظم أنهار الدنيا ، وممرُّه فى بلاد الترك ، ومَصبّه فى بحر طَبَرِسْتَان ، يخرج من جبل فى الأرض المنتنة من ثلاثة ينابيع ، ويمر ببلاد بَلْغار والخَزَر .

والتاسع : غربيه بلاد الترك ، وبلاد الشّرْكَس ، وفى شرقيه بلاد يأجوج يفصل بينهما جبل قُوقِيَا ، ووسطه السد الذى بناه الإسكندر .

والعاشر : بلاد مأجوج متصلة إلى آخره على قطعة من المحيط مستطيلة فى الشمال ، وعريضة فى الشرق .

والسابع : غربيه مغمور ببحر طبرستان . وناحية شرقية تسمى مجالات الغز من أمم الترك .

والثامن : كله مجالات الغز . وفي جنوبيه الغربي بحيرة خَوَارَزْم يصب فيها نهرُ جَيْحُون .

وفي التاسع : بلاد الترك ، يحف بها من الشرق جبل قُوقِيا المحيط بيأجوج ومأجوج .

وفي العاشر : أرض يأجوج ومأجوج .

الإقليم السادس :

الجزء الأول : غمر البحر أكثر من نصفه فاستدار شرقًا مع الناحية الشمالية ، وذهب مع الشرقية ، وانتهى قريباً من الجنوبية ، فانكشفت قطعة بين الطرفين ، وهي كلها أرض بريطانية .

والثانى : دخل المحيط غربيَّه وشماليَّه ، فمن غربه قطعة أكبر من نصفه الشمالي الشرقي هي أرض بريطانية ، وفيه قطعة من جزيرة إنكلترة ، وهي جزيرة كبيرة وبها ملك ضخم . وجنوبها في النصف الغربي بلاد أَرْمَنْدِيَّة ، ثم إِفْرِنْسِيَّة جنوبا وغربا .

والرابع : في جنوبيه بلاد الرُّوسِيَة ، وشرقها بلاد جِرْمَانِيَة ، وفي الجنوبية الشرقية : أرض القُسْطَنْطِينِيَّة ومدينتها عند الخليج .

الإقليم وتأثيره فى البشر

المعمور من الأرض فى الوسط ؛ لإفراط الحرِّ فى الجنوب ، والبرد فى الشمال ، والإقليم الرابع أعدلُ العمران ، وحافّتاه من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال ، لهذا كانت العلوم ، والصنائع ، والملابس ، والأقوات ، والفواكه ، والحيوانات مخصوصة بالاعتدال ، وسُكانُ هذه الأقاليم أعدل أجساما ، وألوانا ، وأخلاقا ، وأديانا ، والنُّبُوّاتُ فيها ، لأن الأنبياء والرُّسُل أكمل النوع فى خَلقهم وأخلاقهم ، ليتمَّ القَبول لما يأتيهم من الله .

وأهل هذه الأقاليم على غاية التوسّط فى مساكنهم ، وأقواتهم ، وصنائعهم ، يتّخذون البيوت المُنَجَّدة بالحجارة ، والآلات ، والمواعين ، ولديْهم المعادن ، ويتصرفون بالنقد ، ويَبعدُون عن الانحراف ، وهؤلاء هم أهل المغرب ، والشام ، والحجاز ، واليمن ، والعِراقين ، والهند ، والسند ، والصِّين ، والأَندلُس ، ومَن قرُب منها .

أما الأقاليم البعيدة عن الاعتدال مثل الأول ، والثانى ، والسادس ، والسابع ، فأهلها أبعد من الاعتدال ، فبناؤهم بالطِّين والقَصَب ، وأقواتُهم الذُّرة والعُشب ، وملابسهم أوراق الشجر، أو الجلود ، وفواكهم غريبة ، ومعاملتهم

الإقليم السابع :

المحيط غمره من الشمال إلى وسط الجزء الخامس

فالأول والثانى : مغموران إلا جزيرة إنْكِلْتِرَة ، ومعظمها فى الثانى ، ووراءها فى الشمال جزيرة رَسْلَانْدَة .

والثالث : مغمور إلا قطعة فى جنوبه .

والرابع : شماله مغمور من المغرب إلى المشرق ، وجنوبه منكشف ، فى غربه أرض للترك ، ويتصل برُوسِيَّة .

والخامس : فى غربيه الرُّوسِيَّة ، وينتهى فى الشمال إلى المحيط،وفى الشمال الشرقى أرض التتَارِيَّة .

والسادس : فى وسطه بحيرة جامدة إلَّا زَمنَ الصيف ، وشرقها روسيَّة ، وفى الجهة الجنوبية الشرقية بقية أرض بَلْغَار .

والسابع : غربيه بقية أرض الترك ، والشرقى بقية الأرض المنتنة .

والثامن : جنوبيه الغربى متصل بالمنتنة ، وشرقها الأرض المحفورة ، وهى من العجائب ؛ خرقٌ فى الأرض بعيد المهوى ، فسيح ممتنع الوصول إلى قعره ، يستدل على عمرانه بالدخان فى النهار ، والنيران فى الليل ، تضىء وتخفى .

والتاسع : غربيه بلاد يحوزها جبل قوقيا ، وشرقيه أرض يأجوج .

والعاشر : غمر البحر جميعه .

نبعثها الخمرُ فى الروح ، فيتَفَشّى الروح ،وتجىء طبيعة الفَرَح ، وكذلك المتنعِّمون بالحَمَّامات ، وربما انبعث الكثير منهم بالغِناء .

والسود استولى الحر على أمزجتهم ، فكانت أرواحهم أسرع فرحا وانبساطا ، ويجىء الطيش على أثره . ويُلحَق بهم أهل البلاد البحرية : لأن هواءها متضاعِف الحرارة، بما ينعكس عليه من أضواء البحر وأشِعَّته ، وحصتهم فى الفرَح والخِفَّة أكثر من بلاد الجبال ، ونجد يسيرا من ذلك فى البلاد الجزيرِيَّة من الإقليم الثالث لتوافر الحرارة فيها ، وأهل مِصر غلب عليهم الفرح والخفة والغفلة عن العواقب ، فلا يدَّخِرون أقوات سَنَتهم ولا شَهرِهم ، وفاس ـ من المغرب ـ بالعكس ؛ فهى ـ لتوغّلها فى التلول الباردة ـ أفرط أهلها فى نظر العواقب ، يدَّخِر الرجل منهم قوت سنتين .

الخصب والجوع وأثرهما فى الأبدان والأخلاق :

الأقاليم فيها الخصْب لزكاء المنابت واعتدال الطينة ، ووفور العمران ، وفيها الحرَّة التى لا تُنبِت ، فسكانها فى شَظَف ، مثل الحِجاز ، وجنوب اليمن ، وصحراء المغرب ، يفقِدون الحبوب والأدم ، وأغذيتهم الألبان واللحوم .

وهؤلاء الفاقدون أحسن فى جسومهم وأخلاقهم من المنغمسين ؛ فألوانهم أصفَى ، وأبدانهم أنقَى ، وأشكالهم أحسن ، وأخلاقهم أبعد من الانحراف ، وأذهانهم أثقب .

بالنُّحاس أو الحديد أو الجلود ، وأخلاقهم قريبة من الحيوانات ، فالدِّين مجهول لديهم ، والعلم مفقود .

أثر الهواء فى ألوان البشر :

توهَّمَ بعض النسابين أن السُّود ولد حام لدعوة أبيه عليه ، وهى غفلة منهم عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما فى الهواء ، فالشمسُ تُسامِتُ رءوسهم ، فيكثر الضوء والقيظ ، وتسوَدُّ جلودهم ، ونظير هذا سكان الأقاليم الباردة الذين شعارهم البياض ؛ إذ الشمس لا ترتفع إلى المُسامَتة ، فيشتد البرد ، وتَبْيَضُّ ألوانهم ، ويتبعها زرقة العيون ، وبرَش الجلود ، وصهوبة الشعور .

وهذه الأقاليم الأربعة مُنْحرفة ، فالأول والثانى للحرِّ والسَّواد ، والسادس والسابع للبرد والبياض ، ومن السود من يسكن الرابع أو السابع فتَبْيَضُّ أعقابهم بالتدريج ، وبالعكس أهل الشمال تسوَدُّ أعقابهم إذا سكنوا الجنوب ، وذلك دليل أن اللَّوْن تابع لمزاج الهواء .

أثر الهواء فى أخلاق البشر :

ص ٧٠

من خُلُق السود الخِفة ، والطَّيْش ، والطَّرب ، والرقص ، وطبيعة الفرح هى انتشار الرُّوح الحيوانى ، والحرارة مُفْشِية للهواء والبخار ، ولذا يجد المُنتشِى الفرح والسرور ، بما يُداخل بُخار الروح فى القلب من الحرارة الغريزِيَّة التى

والمخصِبون إذا نزلت بهم السِّنون ، وأخذتهم المجاعات ، يُسرع إليهم الهلاك ، لأن أمعاءهم تكتسب رطوبة فوق رطوبتها المزاجية ، فإذا خولف بها العادة أسرع إليها اليَبَس ، فيهلك صاحبها ، فالهالكون فى المجاعات إنما قتلهم الشِّبع المعتاد ، لا الجوع اللاحق . وائتلاف الأغذية أو تركها إنما هو بالعادة ؛ فمن عوّد نفسه غذاء صار الخروج عنه داء ، وكذا من عُوِّد الصبر على الجوع كأهل الرياضات .

فالنفس إذا ألِفت شيئا صار من طبيعتها . فإذا حصل اعتياد الجوع بالتدريج والرياضة ، فقد حصل ذلك عادة طبيعية ، كما يفعله المتصوِّفة ، والتدريج ضرورى حتى فى الرجوع عن هذه الرياضة ، فالرجوع إلى الغذاء الأول دفعة تُخاف معه الهلاك .

والجوع أصلح للبدن ، وله أثر فى الأجسام والعقول ؛ فى صفائها وصلاحها ، وهذا مُشاهَد فى أهل البادية ، والمتغذِّين بألبان الإبل ولحومها ، تنشأ أمعاؤهم على الصحة ، لا يَطرُقُها الضعف . ولا ينالها مضار الأغذية ، فيشربون الحنظل وأمثاله ، ولا ينال أمعاءهم ضرر . ولو تناولها أهل الحضر ، الرقيقة أمعاؤهم ، لكان الهلاك أسرع إليهم من طَرْفة العين ، لما فيها من السِّمِّية .

والسبب أن كثرة الأغذية،والأخلاط الفاسدةورطوباتها ، تُوَلِّد فى الجسم فضلات رديئة ، ينشأ عنها بُعد أقطاره فى غير نسبة ، ويَتْبَع ذلك انكسار الألوان ، وقُبح الأشكال ، وتُغَطِّى الرطوبة على الأذهان بما يصعدإلى الدِّماغ من أبْخرتها ، فتجيء البلادة ، والغفلة ، والانحراف ، واعتبرْ ذلك فى حيوان القفر كالغزال ، والنعام ، والمَهَا ، مع حيوان المراعى ، تجدْ بينها بَوْنا فى صفاء أديمها ، وتناسُب أعضائها ، وحِدَّة مَدارِكها ، لأن الخصب فَعَل بأبْدان هذه من الفَضَلات والأخلاط ماظَهَر أثرُه ، والجوع لحيوان القفر حسَّن خَلْقها .

وفى الآدميِّين نجد الأقاليم المُخصبة يتصف أهلُها بالبَلادة ، شأنَ البربر وأهل المغرب ، أما أهل الأندلس ـ المفقودُ بأرضهم السَّمْن ، وعَيْشُهم الذُّرة والشعير ـ فلهم من ذكاء العقول ، وخِفَّة الأجسام ، وقَبول التعليم مالا يوجد لغيرهم ، وكذلك أهل الأمصار ، وإن كانوا مُكثِرين من الأُدم ، مُخصِبين فى العيش ، إلا أن استعمالهم إياها بعد الطبخ والتلطيف يُذهب غِلَظها ، فتقلُّ فيها الرُّطوبات ، وتخِف الفضَلات ، فجسومهم ألطف من أهل البادية .

وأثر الخِصب يظهر فى العبادة ، فتجد المتقشِّفين أحسن دِينا وإقبالا على العبادة ، وتجد أهل الدِّين قليلين فى المدن والأمصار ، لما يعُمها من القساوة والغفلة المتصلة بالإكثار من اللُّحمان ، والأُدم ، ولُباب البرُّ . وحال أهل المدينة الواحدة مختلف باختلاف الترف .

ومن علاماتهم دعاؤهم للدِّين والعبادة ، وقد استدلت خديجة وأبو بكر على صدق النبي بذلك ، ومن علاماتهم أن يكونوا ذوى حَسَب فى قومهم ؛ ومعناه أن تكون لهم عصبية تمنع عنهم أذى الكفّار حتى يُبَلِّغوا رسالة ربهم .

ومن علاماتهم وقوع الخوارق شاهدة بصدقهم ، وهى أفعال يعجز البشر عن مثلها ، فسُمِّيَت معجزة ، وليس للنبي فيها إلا التحدِّى بإذن الله ، وهو أن يستدِلَّ بها قبل وقوعها على صدقه ، فإذا وقعت نزلت منزلة القول الصريح بصدقه ، ودلالتها قطْعيّة بمجموع الخارق والتحدى ، فالتحدى جزء منها ، وهو الفارق بينها وبين الكرامة والسِّحر ، إذ لاحاجة فيهما إلى التصديق ، وفارقها عن السحر أن النبى مجبول على الخير ، وفارقها عن الكرامة أن خوارق النبي مخصوصة كالصعود إلى السماء ، وإحياء الموتى ، وتكليم الملائكة ، وخوارق الولىّ دون ذلك ، كتكثير القليل ، والحديث عن بعض المستقبل .

وأعظم المُعجزات القرآن ، فالخوارق مغايرة للوحى ، والقرآن هو بنفسه الوحى ، وهو الخارق المُعجز بعينه ، لا يفتقر إلى دليل كسائر المعجزات .

حقيقة النبوة :

العالم على هيئة من الترتيب والإحكام ، وربط الأسباب بالمسبَّبات ، واتصال الأكوان .

وعالم العناصر يتدرج من الأرض ، إلى الماء ، إلى الهواء ، إلى النار ،

المدركون للغيب بالفطرة أو الرّياضة

الوحى:

اصطفى الله أشخاصا من البشر ، فطرهم على معرفته ، وجعلهم وسائل بينه وبين عباده يُعَرِّفُونَهُم بمصالحهم ، ويحرِّضونهم على هدايتهم ، ويدلُّونهم على النجاة ، وتظهر على ألسنتهم الخوارق والأخبار المغيَّبة التى لا يعلّمونها إلا بتعليم الله إياهم .

وعلامة هذا الصِّنف أن تُوجد لهم فى حال الوحى غيبة مع غطيط ، كأنها إغماء ، وهى فى الحقيقة استغراق فى لقاء الملك بإدراكهم المناسب ، الخارج عن مدارك البشر ، يتنزل إلى مداركه البشرية بسماع دَوِيِّ الكلام فيتفهمه ، أو يَتمثل صورةَ شخص يُخاطبه بما جاء من عند الله ، ثم ينجلى عنه الحال وقد وعى ما أُلقِيَ إليه ، ولأجل هذه الحالة كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنون .

ومن علاماتهم أن يوجد لهم قبل الوحى خُلُق الخير والزكاء[1] ، ومُجانَبة الرِّجس ، وهو معنى العِصمة ، وكأنَّه مفطور على التنزه من المذمومات ، وكأنها مُنافِيةٌ لجبِلّته .

---

(١) الصلاح .

البطن الذى أوله الحس المشترك ، وهو قوة تدرك المحسوسات : مبْصَرَةً ، ومسموعة ، وملموسة فى حالة واحدة ، ثم يؤديه الحس المشترك إلى الخيال ، وهو قوة تمثل المحسوس مجرّدا عن المواد الخارجية . وآلة هاتين القوتين ـ الحسّ والخيالِ ـ هى البطنْ الأول من الدماغ ، ثم يرتقى الخيال إلى الواهمة والحافظة : فالواهمة لإدراك المعانى المتعلّقة بالشخصيات ، والحافظة لإيداع المدركات ، وحفظها لوقت الحاجة . وآلة هاتين القوتين ـ الواهمةِ والحافظةِ ـ البطنُ المؤخر من الدماغ . ثم ترتقِى إلى قوة الفكر . وآلته البطن الأوسط من الدماغ ، وهى القوة التى تقع بها حركة الرويّة والتوجه نحو العقل ، فتتزع النفسُ بها للتخلص من دَرَك القوة ، وتخرجُ إلى الفعل فى تعقلها ، متشبّهة بالملإ الأعلى ، وتصير فى أول مراتب الروحانيات ، وهو الإدراك بغير الآلات الجسمانية ، وقد تنسلخ كُليةً من البشرية إلى الملكية .

والنفوس البشرية ثلاثة أصناف :

صنف عاجز عن الوصول إلى الإدراك الروحانى ، فينقطع بالحركة إلى الجهة السفلى نحو المدارك الحسية والخيالية وتركيب المعانى من الحافظة والواهمة على قوانين وترتيب يفيد العلوم التّصَوُّرية والتصديقية التى للفكر والبدن ، وهذا هو نطاق الإدراك الجسمانى ، وإليه تنتهى مدارك العلماء .

وصنف متوجّه بالحركة الفكرية نحو العقل الروحانى والإدراك الذى لا يفتقر إلى الآلات البدنية ، فيتسع إدراكه عن الأوّليّات ، ويسرح فى

وكل واحد مستند [illegible] المعادن

ثم النبات [illegible] وآخر

أفق النبات متصل [illegible] وأول

أفق الذى بعده .

ولقد اتسع عالم [illegible] الإنسان من عالم

القِرَدة الذى اجتمع فيه الحس والإدراك [illegible] الفكر .

وفى العوالم [illegible] الأفلاك

والعناصر ، وفى عالم التكوين [illegible] لها

مؤثرا روحانيا [illegible] الأجسام [illegible] المدركة

المحركة ، ولا بُدَّ فوقها من وجود آخر [illegible] يكون

تعقّلا محضا . هو عالم الملائكة . فوجب [illegible] الانسلاخ

من البشرية إلى الملكية ، [illegible] فهى

متصلة بالبدن من أسفل [illegible] الحصول

على التعقل ، ومتصلة من الأعلى [illegible] المدارك

العلمية والغيبية .

وهذه النفس [illegible] عن العين [illegible] كان ،

أجزاءه آلات للنفس وقواه [illegible] والحركة ، وقواها

المدركة كقوى الحس الظاهرة [illegible] يرتقى إلى

أو مُتخيَّلة ، كالأجسام الشفافة ، وعظام الحيوانات ، والسجع ، فيستديم الإحساس أو التخيل ، مستعينا به فى الانسلاخ الذى يقصده ، وهذه القوة هى الكهانة .

وهذه النفوس منطوية على النقص ، وإدراكها فى الجزئيات أكثر . ولذلك تكون المخيِّلة فيها فى غاية القوة ، لأنها آلة الجزئيات ، تنفُذ فيها فى نوم أو يقظة ، وتُحضِرها وتكون لها كالمرآة ، ولا يقوَى الكاهن على الكمال فى إدراك المعقولات ، لأن وحيه من الشيطان ، وأرفعُ الأحوالِ أن يستعين بالسجع ، ليشتغل به عن الحواس ، ويقوى على الاتصال ، فينشأ عن تلك الحركة ، مايقذفه لسانه ، فربما صدق ، وربما كذب ؛ لأنه يتمم نقصه بأمر أجنبى . وربما يَفزع إلى الظنون والتخمينات بسبب العجز والاستعانة بالتصوُّرات الأجنبية ، فيصير الإدراك مختلطا ، ويطرُقه الكذب من هذه الجهة ، ولذلك امتنع أن يكون نبوَّة ، لأن النبوة خاصّتُها الصدق .

وزعم البعض أن الكَهانة انقطعت منذ زمن النبوة برجم الشياطين . لأن الكُهان كانوا يتعرفون أخبارالسماء منهم ، ولا دليل فى ذلك ، لأن علوم الكهان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم ، وأيضا فالشياطين مُنِعوا أخبارَ البعثة بين يدَيِ النبوة فقط .

وزعم بعض الحكماء أنها توجد بين يدى النبوة ، ثم تنقطع ، لأن وجود النبوة له وضع فلكى خاص ؛ فى تمامه تمام النبوة ، ونقصه يقتضى وجود طبيعة

المشاهدات الباطنية ، وهي وجدان لا نطاق لها من مبدئها ولا من منتهاها ، وهذه مدارك العلماء الأولياء أهل المعارف الربانية .

وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية إلى الملائكة في لمحة ، يحصل له شهود الملإ الأعلى ، وسماع الخطاب الإلهي ، وهم الأنبياء في حالة الوحي ، فطرهم الله عليها ، ونزّههم عن موانع البدن ، فانسلخوا من بَشَريتهم ، وتلقّوا في الملإ الأعلى مايتلقونه ، وعاجُوا بِه على المدارك البشرية لحكمة التبليغ ، فتارة يسمع أحدهم دوِيًّا ، وتارة يتمثل له الملَك رَجلا ، والدوى رتبة غُير المرسلين ، وتمثّل الملكِ رتبة المرسلين .

والأولى أشدّ لأنها مبدأ الخروج من القوة إلى الفعل ، و يُفضِي الاعتياد إلى السهولة ، ولذلك كانت سُوَر مكة أقصر من سور المدينة ، التي بلغ من طولها أن نزلت سورة « براءة » كلها أو أكثرها على الرسول في غزوة تبوك وهو يسير على ناقته .

الـكهانة :

الـكهانة من خواص النفس الإنسانية ، لأن لها استعدادا للانسلاخ إلى الروحانية وذلك في الأنبياء بالفطرة ، من غير استعانة بالمدارك ، أوالتصوُّرات أو الأفعال .

والتقسيم العقلي يعطى صنفا آخر ناقصا عن الأول ، تتحرك قوّته العقلية حركتها الفكرية بالإرادة ، فيكون لها تشبث بأمور جزئية ، محسوسة

الاستعداد حاصل لها مادامت فى البدن ، ومنه خاص كالذى للأولياء ، وعام للبشر وهو الرؤيا .

ومع هذا الاستعداد فإن فى البشر عوائق من أعظمها الحواس الظاهرة ، وقد يرتفع حجاب الحواس بالنوم : لأن النفس الناطقة إدراكها وأفعالها بالروح الحيوانى ، وهو بخار بالتجويف الأيسر من القلب ، ينبعث مع الدم ، فيعطى الحسّ والحركة ، ويرتفع لطيفه إلى الدماغ ، وتتم أفعال القوى ، فالناطقة تدرك بالروح البخارى ، ولما لطف صار محلا لآثار النفس الناطقة ، وصارت آثارها حاصلة فى البدن بواسطته ، فإذا خفّت عن النفس شواغل الحس وموانعه ، ورجعت إلى الصورة التى فى الحافظة ، تمثّل منها — بالتركيب والتحليل — صُوَرٌ خيالية معتادة ، لأنها منتزعة من المدركات ، ثم يُنزلها الحسّ المشترك ، فتدركها الحواس ، وربما التفتت النفس إلى ذاتها الروحانية ، فتدرك بإدراكها الروحانى ، وتقتبس من صور الأشياء التى صارت متمثّلة فى ذاتها ، ثم يأخذ الخيال تلك الصور ، فيمثلها بالحقيقة أو المحاكاة ، والمحاكاة محتاجة للتعبير ، وتصرفها بالتركيب والتحليل فى صور الحافظة قبل أن تدرك ما تدركه هو أضغاث أحلام . فحقيقة الرؤيا من خواص النفس الإنسانية ، فهى مدركة للغيب فى النوم ، وإذا جاز ذلك فى عالم النوم ، فلا يمتنع فى غيره ، لأن الذات المدركة واحدة.

ناقصة من ذلك النوع وهو الكاهن . فإذا تمَّ الوضع تم وجود النبي ، با نصت الأوضاع الدالة على ذات الطبيعة بناء على أن بعض الوضع الفلكي يقتضي بعضَ أثره . وهو غير مسلَّم ، فلعل الوضع يقتضي الأثر ، ولو نقص لايقتضي شيئا .

والكهان إذا عاصروا النبوة فهم عارفون بصدق النبي ، لأن لهم بعض الوجدان من أمر النبوة ، ولا يُوقِعهم في التكذيب إلا الطمع في أن تكون النبوة لهم ، فيقعون في العناد ، فإذ انقطعت الأماني آمنو أحسن إيمان ، كما وقع لطُليحة الأسدي .

الرؤيا :

حقيقتها مطالعة النفس الناطقة في ذاتها الروحانية لمحةً من صور الواقعات ، والنفس تصير رُوحانية بأن تتجرد عن المدارك البدنية بالنوم ، فتقتبس ماتتشوف إليه ، وتعود به إلى مداركها ، فإن كان الاقتباس غير جليٍّ بالمحاكاة في الخيال لِتَخَلُّطِه ، فيحتاج إلى التعبير ، وقد يكون قويا يستغني عن المحاكاة ، فلا يحتاج لتعبير .

والسبب في وقوع هذه اللمحة للنفس أنها روحانية بالقوة ، مستكملة بالبدن ، ولا بد أن تتخلص منه لتصير ذاتُها تعقُّلا محضا إلا أن نوعها في الروحانيات دون الملائكة الذين لم يستكملوا ذواتهم بمدارك البدن ، فهذا

لها إلى الظاهر بما فُطرت عليه من الإدراك الجسمانى، وربما تنغمس إلى الباطن فيرفع حجاب البدن ، إما بالخاصية العامة كالنوم ، أو الخاصية الموجودة لبعض البشر ، كالكَهانة ، أو الرياضة ، فتنفِت إلى الذوات التى فوقها من الملإ الأعلى ، وتلك الذوات روحانية و إدراك محض ، وعقول بالفعل ، وفيها صور الموجودات وحقائقها ، فيتجلى فيها شىء من تلك الصور ، وتقتبس منها علوما ، وربما دُفعت إلى الخيال ، فيُصرِّفها فى القوالب المعتادة ، ثم تُراجع الحس بما أدركت فتُخبر به .

الناظرون فى الأجسام الشفافة وغيرهم :

الناظرون فى الأجسام الشفافة ، وأهل الحصَى هم من الكهان إلا أنهم أضعف ، فالكاهن لايحتاج فى رفع حجاب الحس لمعاناة ، وهؤلاء يُعانونه بانحصار المدارك فى نوع منها ، وأشرفها البصر ، فيعكُف على المرئى ، حتى يبدوَ له مدرَكهُ الذى يُخبِر عنه ، وليست مشاهدة هؤلاء لما يرَوْنه فى السطح ، وإنما ينظرون فى السطح إلى أن يغيب عن البصر ، ويبدو بينهم وبينه غمام فيه صور ، هى مداركهم ، فيشيرون بالمقصود ، وينشأ لهم إدراك نفسانى ليس من إدراك البصر ، بل يتشكل بالمدْرَك النفسانى للحس .

ومنهم من يشغل الحس بالبَخور والعزائم ، ثم يُخبِر بما أدرك ، زاعمين أنهم يرَوْن الصَور فى الهواء .

أنواع المتكلمين بالغيب

في النوع الإنساني أشخاص يُخبِرون بالكائنات قبل وُقوعها، لا يرجعون إلى صناعة أو أثر من النجوم ، إنما ذلك بفطرتهم ، مثل العرّافين ، والناظرين في المرايا ، وطِساس الماء ، وقلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها ، وأهل الزّجر ، وأهل الطَّرْق بالحصى والحبوب ، والمجانين ، والنائمين وأهل الرياضات من المُتصوِّفة .

كيف يُدركون الغيب :

النفس روحانية بالقوة ، وصورتُها التي يتم بها وجودها هي عين الإدراك والتعقل ، فهي توجد أولا بالقوة ، مستعدةً للإدراك وقبول الصور الكلّية والجزئية ، ثم يتم وجودُها بالفعل بمصاحبة البدن ومُدرَكاتها المحسوسة ، وتبقى النفس كالهَيُولَى ، والصور متعاقِبةٌ عليها بالإدراك واحدة واحدة .

ولذلك نجد الطفل لا يقدر على الإدراك لا بنوم ولا بكشف ، لأن الصورة التي هي عين ذاتها ـ وهو الإدراك والتعقل ـ لم تتم . ثم إذا تمت ذاتها بالفعل حصل لها ـ مادامت مع البدن ـ نوعان من الإدراك : إدراك بآلات الجسم ، وإدراك بذاتها من غير واسطة ، وهي محجوبة في البدن ، لأن الحواس جاذبة

الحالمون والمقتولون وأصحاب الرياضة :

يقع ذلك لبعض الناس عند مبادئ النوم وذهاب الاختيار ، فيتكلم على الشئ الذى تشوف إليه بالغيب ، ومنه مايصدر عن المقتولين عند مفارقة رءوسهم لأبدانهم ، ومن الناس من يحاول ذلك بالرياضة ، وإماتة القوى البدنية صناعيا ؛ بالجوع ، وجمع الفكر ، فتطلع النفس على المغيبات ، ومنهم أهل الرياضة السحرية بالهند .

المتصوِّفة :

ورياضتهم دينية ، وتكون بجمع الهمة ، والإقبال على الله ، ليحصل لهم أذواقُ أهل العرفان ، بالجوع والذِّكر ، ومعرفة الغيب تجئ لهم بالعَرَض ، ويُسَمُّون مايقع لهم بالغيب فراسة وكشفا ، من ذلك واقعة عمر مع سارية ، وقوله « ياسارية الجبل » [1] . ويقل ذلك زمن النبوة ، إذ لا يبقى للمريد حالة بحضرة النبى .

---

(١) هو سارية بن زنيم كان قائد جيوش المسلمين بالعراق ، وتورط مع المشركين ، وكان بقربه جبل ، فرفع لعمر ذلك وهو يخطب على المنبر بالمدينة ، فناداه : « ياسارية الجبل » فسمعه وهو بمكانه . ورأى شخصه هنالك .

الزاجرون :

الزجر هو أن يتكلم البعض بالغيب عند سُنوح طائر أوحيوان ، وهى قوة فى النفس تبعث على الحرص والفكر فيما زُجر ، وتكون المخيلة قوية ، فيبعثُها للبحث ، مستعينا بما رآه أوسمعه ، فيؤديه إلى إدراكٍ ما ، كما تفعل القوة المتخيلة فى النوم وعندَ ركود الحواس ؛ إذ تتوسط بين المحسوس المرئىّ و بين ماعقلته .

المجانين والعرافون :

المجانين نفوسُهم ضعيفةُ التَّعلُّق بالبدن ، فتكون غير مستغرقة فى الحواس بسبب المرض ، وربما زاحمتها روحانية شيطانية ، فتضعف عن ممانعتها ، فيكون التخبط ، فإذا أصيب به المجنون غاب عن حِسه ، فأدرك لمحة من عالم نفسه ، وانطبع فيها بعض الصور ، وصرَّفها الخيال ، وربما نطق على لسانه بغير إرادة . و إدراك هؤلاء مشوب فيه الحقّ بالباطل ، لأن الاتصال لايحصل إلا مستعينا بالتصورات .

وأما العرافون فهم المتعاقون بالإدراك ، وليس لهم الاتصال ، فيُسلِّطون الفكر على الأمر و يأخذون بالتخمين .

فوضعوا النُّقَط سطورا على مراتب أربع ، ثم كرروا ذلك أربع مرات ، ثم يطرحون النُّقَط أزواجا ، ويضعون مابقى فى مرتبته ، فتجىء أربعة أشكال يُوَلِّدون منها أربعة أخرى ، فتكون ثمانية ، ثم يولِّدون من كل شكلين شكلا ، ثم من الأربعة شكلين ، وهكذا إلى الستة عشر ، ثم يحكمون على الخط بما اقتضته أشكاله من السعود والنحوس . وهو تحكُّم وهوًى ، والغيوب لا نُدرَك بصناعة .

الحاسبون :

هم أصحاب الحساب الذى يُعرَفُ به الغالب من المغلوب ، وهو أن تحسب الحروف فى اسم أحدهما بحساب الجُمَّل من الواحد إلى الألف ، آحاداً وعشراتٍ ومئين وآلافا ، فإذا حصل منه عدد فاحسِب الاسم الآخر ، ثم اطرح من كل منهما تسعة تسعة ، واحفظ بقيَّتهما ، ثم انظر ، فإن كان العددان مختلفين ، وهما زوجان أو فَرْدان ، فصاحب الأقل غالب ، وإن اختلفا فصاحب الأكثر غالب ، وإن تساويا وهما زوجان فالمطلوب غالب ، وإن تساويا فردين فالطالب غالب .

ولمعرفة مابقى من الحروف ـ بعد طرح التسعة ـ قانون ، ذلك أنهم جمعوا الحروف الدالة على الواحد فى المراتب الأربع وهى (ا) للواحد ، و (ى) للعشرة ، و (ق) للمائة ، و (ش) للألف ، ثم رتَّبوا الأربعة فى كلمة (أَيْقَش) ، ثم فعلوا بالحروف الدالة على اثنين ، وهى (ب) للاثنين ، و (ك)

المعتوهون :

منهم بهاليل صحت لهم الولاية ، ولهم عجائب ، وينكر الفقهاء أنهم على
شيء لسقوط التكليف عنهم ، ولأنّ الولاية لا تحصل إلا بالعبادة . وهو غلط ،
فضل الله يؤتيه من يشاء ، وهؤلاء لم تَعدم نفوسُهم العاطفة ، وإنما فُقد العقل
مناط التكليف ، وربما يلتبس حالهم بالمجانين ، ولهم علامات ، منها أن لهم
عبادةً على غير الشروط الشرعية ، وأنهم ينشأون على البَلَه ، ومنها كثرة
تصرُّفهم بالخير .

المنجِّمون :

وهم القائلون بالدّلالات النجومية ومقتضى أوضاعها فى الفَلَك وآثارها فى
العناصر ، وليسوا من الغيب فى شيء ، إنما هى تخمينات مبنيّة على التأثير
النجومية ، وحصول المِزاج منها للهواء .

ضاربو الرمل :

قوم استنبطوا للغيب خطَّ الرمل ، فصيّروا من النُّقط أشكالا ذات
أربع مراتب ، تختلف فى الزَّوجية والفَرْدية ، فكانت ستَّة عشرَ شكلا ،
ميَّزوها إلى سُعود ونحوس ، وجعلوا لكلٍّ منها بيتا وخُطوطا ، ودلالةً على
صنف من العناصر ، فإذا أرادوا استخراج مغيَّب عمدوا إلى قِرطاس أو رمل ،

حروف متتابعة منها أشكال أعداد المغرب ، وأشكال الغبار ، وبين الدوائر أسماء العلوم ومواضع الأكوان ، وعلى ظاهر الدوائر جدول من خمسة وخمسين بيتا في العرض ، ومائة وواحد وثلاثين طولا ، جوانب منه معمورة بالعدد أو الحروف ، وحافات الزايرجة أبيات من الطويل برويّ اللام المنصوب ، تتضمن العمل بالزايرجة ، فإذا أرادوا استخراج الجواب كتبوا السؤال وقطّعوه حروفا ، وعمدوا للزايرجة ، ثم الوتر المكتنف بالبرج الطالع ، مارّا بالمركز إلى المحيط قبالة الطالع ، فيأخذون الحروف المكتوبة عليه من أوله إلى آخره ، والأعداد المرسومة بينهما ، ويصيّرونها حروفا بحساب الجمل ، ويضعونها مع حروف السؤال ، ويضيفون جميع ما على الوتر المكتنف بالبرج الثالث من الحروف والأعداد من أوله إلى المركز ، ويفعلون بها ما فعلوه بالأول ، ويضيفونها إلى الحروف الأخرى ، ثم يقطّعون حروف البيت الذى هو أصل العمل ، ويضربون عدد درج الطالع في رأس البرج ، ثم يضربونه في الأسّ الأكبر ، ويدخلون بما تجمّع في بيوت الجدول ، ويدخلون حروفا ويسقطون أخرى ، ويقابلون حروف البيت ، وينقلون ماينقلونه إلى حروف السؤال ، ثم يطرحون أعدادا معلومة يسمّونها الأدوار ، ويخرجون الحرف الذى ينتهى عنده الدور ، ويعاودون ذلك ، فتخرج حروف تؤلف كلمات منظومة على وزن البيت الذى يُقابَل به العمل ، ويحسبون أن ماوقع من مطابقة الجواب للسؤال دليلٌ على مطابقة الواقع ، وليس ذلك صحيحا ، لأن الغيبَ لا يُدرَك

للعشرين ، و (ر) للمائتين ، وصيَّروها (بكر) ، وكذلك الحروف الدالة على ثلاثة، وهكذا . فنشأت كلمات (أيقش ـ بكر ـ جلس ـ دمت ـ هنث ـ وصخ ـ زعذ ـ حفظ ـ طضغ) ولكل كلمة عددها الذى هى مرتبته ، فالواحد لكلمة (أيقش) والاثنان لكلمة (بكر) ، وهكذا إلى التاسعة ، فإذا أرادوا طرح الاسم بتسعة ، نظروا كل حرف فى أى الكلمات هو ، وأخذوا عددَها مكانَه ، ثم جمعوا الأعداد بدلا من حروف الاسم ، فإن كانت زائدة على التسعة أخذوا مافَضَل ، و إلا أخذوه كما هو ، وكذلك الاسم الآخر ، وينظرون بين الخارجين . والسِّرُّ فى هذا القانون أن الباقى من كل عَقْد بِطرْح تسعة هو واحد ، فصارت أعداد العقود كأنها آحاد فلا فرق بين الاثنين ، والعشرين ، والمائتين ، فكلها اثنان ، فوضعت الأعداد دالةً على العقود ، وصار عدد الكلمة نائبا عن كل حرف فيها ، فيؤخذ عدد الكلمة عوضا عن الحروف التى فيها ، وهذه مدارك للغيب غير مستندة إلى برهان أو تحقيق .

الزايرجة :

من القوانين الصناعية لاستخراج الغيوب زايرجة العالم وصورتها دائرة داخلها دوائر متوازية للأفلاك والعناصر والروحانيات وكل دائرة مقسومة بأقسام فلكها ، وخطوط كل قسم مارّة إلى المركز وهى الأَوْتار ، على كل وتر

الباب الثاني

العمران البدوي . والأمم الوحشية . والقبائل

—

أجيال البدو والحضر طبيعية :

إن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف ما ينتحلونه من المعاش ، فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله . فمنهم من يستعمل الفَلْح ، ومنهم من يقوم على الحيوان . وهؤلاء تدعوهم الضرورة إلى البدو ، لأنه متسع . ومجتمعهم [illegible] التي يحفظ الحياة . فإذا اتسعت أحوالهم ، وحصَل لهم الغنى ، دعاهم ذلك إلى السكون والدعة ، وتعاونوا في الزائد من الأقوات والملابس واختطاط المدن . ثم يجيء التأنق في القوت ، والملابس ، والبيوت ، فيتخذون القصور ، ويجرون فيها المياه ، وهؤلاء هم الحضر ، منهم من ينتحل الصنائع ، ومنهم من ينتحل التجارة . ومكاسبهم أنْمَى وأرْفَه من البدو لأن أحوالهم زائدة على الضروري .

جيل العرب طبيعي :

من البدو من يكون معاشهم في الزراعة ، وهؤلاء مقيمون في الغالب كالبربر والأعاجم . ومنهم من يكون معاشه في السائمة كالبقر والغنم . وهم

بأمر صناعى . وقد يقع الاطلاع من بعض الأذكياء على تناسُبٍ بين الأشياء، فيقع له معرفةُ المجهول ، فالتناسب بين الأشياء هو سبب الحصول على المجهول من المعلوم ، وكثيرون يُنكِرون صحتها ، ويَحسَبُونها من التَّخيُّلات ، وهذا تَوهُّمٌ حمل عليه القصورُ عن فهم التناسب بين الموجودات والمعدومات ، والظن بأن هذه من قبيل المُغيَّب .

بكثرة ما يعانون من الترف والعكوف على شهواتهم ، تلوّثت أنفسهم بكثير من الشر ، حتى ذهبت عنهم الحشمة ، لمّا أخذتهم عوائد السوء في التظاهر بالفواحش . وأهل البدو ، وإن كانوا مُقبلين على الدنيا مثلهم ، إلا أنه في المقدار الضروري لا في الترف ، فعوائدهم على نسبتها ، وما يحصل فيهم من السوء أقل ، فهم أقرب إلى الفطرة وأبعد عن العوائد المذمومة.

. . وأقرب إلى الشجاعة :

ذلك لأن الحضر وَكَلوا أمرَهم إلى الحاكم الذي يسوسهم ، والحامية التي تولّت حراستهم ، والأسوار التي تحوطهم ، فهم آمنون ، قد ألقوا السلاح ، وتوالت عليهم الأجيال ، وتنزلوا منزلة النساء والولدان ، حتى صار ذلك فيهم خلقا .

وأهل البدو ، لتفرّدهم وتوحّشهم ، فأتون بالمدافعة عن أنفسهم ، يحملون السلاح ، ويتلفّتون عن كل جانب ، ويتجافَوْن الهجوع ، قد صارت الشجاعة لهم سَجِيّة . وأهل الحضر — مهما خالطوهم في البادية أو السفر — عِيال عليهم ، وذلك نشاهَد في موارد المياه ، ومشارع السّبل ، وسببه أن الإنسان ابن عوائده .

معاناة أهل الحضر الأحكام مفسدة للبأس فيهم :

الغالب أن يكون الإنسان في ملَكة غيره ، فإذا كانت الملكة رفيقة عادلة ، كان الناس مُدْلين بما في أنفسهم من شجاعة أو جبن ، أما إذا كانت

رُحَّل فى الغالب ، ولـكنهم لا يُبعِدون فى القفر لفِقدان المسارح الطيِّبة ، أما من كان معاشهم فى الإبل فهم أبعد فى القفر ، إذ الإبل أصعب الحيوان فِصالا ومَخاضا ، وأحوجُها للدفء ، فاضطروا إلى إبعاد النَّجعة ، وأوْغلوا فى القفار ، فـكانوا أشد الناس توحشا ، وهؤلاء هم العرب (البـدو الرحل) ، وفى معناهم ظُعون البربر ، وزناتة ،والأكراد ، والتُّركمان ، إلا أن العرب أبعد نُجعة وأشد بَداوة ، لأنهم مختصون بالإبل فقط .

ص ١٠٠

البدو أقدم من الحضر :

البدو مقتصرون على الضرورى ، والحضر معتنون بالترف ، والضرورى أقدم ، لأنه أصل ، فالبدو أصل للمدن والحضر ، سابق عليهما ، ولهذا نجد التمدُّن غاية للبدوى ، ومتى حصل على الرِّياش الذى به الترف ، مال إلى الدَّعة ، وإذا فتشنا أهل الأمصار وجدنا أوَّلية أكثرهم من البدو ، وذلك يدل على أن أحوال الحضارة ناشئة عن البداوة ، وأن البداوة هى الأصل ، وكل من البدو والحضر متفاوت من جنسه ؛ فحىٌّ أعظم من حى ، ومدينة أكثر عمرانا من مدينة .

أهل البدو أقرب إلى الخير :

لأن النفس إذا كانت على الفطرة كانت متهيِّئة لقبول مايرد عليها من خير أوشر ، وبقدر ماسبق إليها من أحدهما تبعد عن الآخر ، وأهل الحضر

سكنى البدو لاتكون إلا لأهل العصبة :

من أخلاق البشر الظلم والعدوان ، فمن امتدت عينه إلى متاع غيره ، امتدت يده لأخذه — إلا أن يصدّه وازع . فأما عدوان أهل المدن والأمصار بعضهم على بعض فتدفعه الدولة ، فهم مكبوحون بالسلطان عن التّظالم ، وأما العدوان من الخارج فتدفعه الأسوار والحامية

وأما البدو فيزَع بعضهم عن بعض مشايخهم . وحِللهم يذود عنها أنجادهم وفتيانهم ، ولا يصدق دفاعهم إلا إذا كانوا ذوى عصبة وأهل نسب تشتدّ به شوكتهم ، وتعظم رهبة العدوّ لهم .

أما المنفردون فإذا أظلم الجو بالشر تسال كلٌّ يبغى النجاة ، فلا يقدرون على سكنى القفر لأنهم طُعمة لمن يلتهمهم .

العصبية بالنسب أو مافى معناه :

صلة الرحم طبيعية فى البشر ، فإن القريب يجد غضاضة فى العدوان على قريبه . فإذا كان النسب قريبا حصل به الإنجاد ، وإذا بعد فربما يبقى منه شهرة تحمل على النصرة . ومن هـذا الباب الولاء ، والحلف ، وذلك لأن اللّحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب ، وفائدة النسب هذا الالتحام الذى يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة .

للملكة بالقهر والسَّطوة ، فإنها تنكسر من سوْرة بأسهم ، لما يكون من التكاسل فى النفوس المضطهَدة ، وأما إذا كانت الأحكام بالعقاب فإنها تكون مُذهِبة للبأس بالكُلِّية ؛ لأن وقوع العقاب بالإنسان – من غير أن يدافع عن نفسه – يُكسبه المذلة ، وإذا كانت الأحكام تأديبية من عهد الصِّبا ، أثَّرت بعض الشىء ؛ لتربية الإنسان على المخافة ، فلا يكون مُدِلاًّ ببأسه ، ولذا نجد المتوحشين من البدو أشد بأساً ممن تأخذه الأحكام ، والذين يعانون الأحكام من مَرباهم ينقص بأسهم ، وهذا شأن طلبة العلم ، ولا نستنكر ذلك بما وقع فى الصحابة من أخذهم بالشريعة ، ولم ينقص بأسهم ، لأن وازِعهم من أنفسهم ، ثم لما صار الشرع علما وصناعة يؤخذ بالتعليم والتأديب ، ويرجع إلى الانقياد ، نقصت سوْرة البأس فى الناس .

ومن هذا يَتبَيَّنْ أن الأحكام السّلطانية والتعليمية مُفسدة للبأس ، لأن الوازع فيها أجنبىّ ، أما الأحكام الشرعية فغير مُفسدة ، لأن الوازع فيها ذاتىّ .

ولهذ كانت الأحكام السّلطانية والتعليمية مما يؤثر فى أهل الحواضر ، وكان البدو بمعزل عن هذا ؛ لبُعدهم عن السلطان والتعليم ، ولذا قيل إنه لاينبغى للمؤدِّب أن يضرب الصِّبيان فى التعليم فوق ثلاثة أسواط .

لأنساب خاصة أشد التحاما . كالعشير أو أهل البيت ، والرياسة تكون فى نصاب واحد منهم ، ولما كانت الرياسة بالغلب ، وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى العصائب ، ليقع الغلب ، وتتم الرياسة . ولا تزال فى ذلك النصاب متناقلة من فرع إلى فرع ، ولا تنتقل إلا إلى الأقوى .

الرياسة على أهل العصبية لا تكون فى غير نسبهم :

ص ١٥

لابد فى الرِّياسة أن تكون من عصبية متغلِّبة : لأن كل عصبية إذا أحست بغَلَب عصبية الرئيس أقرَّت بالإذعان . والساقط فى نسبهم لا تكون له عصبية بالنسب ، إنما هو مُلصَق . والرياسة تكون فى منبت واحد تعيَّنَ له الغلب بالعصبية . فتكون موروثة . وقد تتشوّف بعض الرؤساء إلى نسب يتورَّطون بالدعوى فى شعوبه ، فيوقعون أنفسهم فى القدْح فى رياستهم ، من ذلك مايدَّعيه زناتة أنهم من العرب ؛ وادعاء بنى عبد القوىّ بن العباس أنهم من ولد العباس بن عبد المطلب .

البيت والشرف لأهل العصبية بالأَصالة ولغيرهم بالمجاز :

معنى البيت أن يَعُدّ الرجل فى آبائه أشرافا يكون له بالانتساب إليهم تِجِلّة . وثمرة الأنساب هى العصبية ، فحيث تكون العصابة مرهوبة تكون فائدة النسب أقوى . وتعداد الأشراف من الآباء زائد فى فائدتها . فيكون الحسب والشرف أصليّين فى أهل العصبية لوجود ثمرة النسب ، وتفاوُتُ البيوت فى هــــذا الشرف بتفاوت العصبية ، ولا يكون للمفردين من أهل

صريح النسب يوجد للمتوحشين من العرب :

ذلك لما اختُصوا به من نكد العيش وسُوء الموطِن ، ولأن معاشهم على الإبل يدعوهم إلى التوحش فى القفر لرعْيها ، والقفر مكان الشظَف ، وقد رُبِّيت فيه أجيالهم ، فلا ينزِع إليهم أحد ، فيُؤمَن عليهم من اختلاط أنسابهم . واعتبر ذلك بمُضَر ، وكِنانة ، وثَقيف ، وأَسَد . أما الذين كانوا بالتلول فاختلطت أنسابهم . وقد وقع فى صدر الإسلام الانتماء للمَواطن ، ثم الاختلاط بالعجم ، وفسَدت الأنساب فدُثرت ، ودثرت العصبية بدُثورها ، وبقى ذلك فى البدو .

كيف يقع اختلاط الأنساب :

بعض أهل الأنساب يسقُط إلى أهل نسب آخر بقرابة ، أو حِلف ، أو وَلاء ، أو لفَرارٍ بجناية ، فيدَّعِي لنفسه نسب هؤلاء ، ويُعَدُّ منهم فى النُّعرة والدِّيَات ، وقد يُتَناسى النسبُ الأول بطول الزمان فيَخفَى ، وما زالت الأنساب تسقط من شَعب إلى شعب ، ويلتحم قوم بآخرين فى الجاهلية والإسلام .

الرياسة لا تزال فى أهل العصبية .

كل حى من القبائل وإن كانوا عصابة لنسبهم العام ، ففيهم عصبِيّات

نهاية الحسب أربعة آباء :

الحسب من العوارض التي تعرض للآدميين، فهو قابل للفساد، وليس لأحد شرف متصل من لدن آدم إلا ما كان للنبي ، كرامة له وحياطة على السر فيه . وأما كل شرف عداه فعدمه سابق عليه ، ونهايته أربعة آباء ، لأن باني المجد عالم بما عاناه ، ومحافظ على الخلال التي هي أسباب بقائه ، وابنه من بعده : سمع منه ، وأخذ عنه ، ثم الثالث حظه الاقتفاء والتقليد ، فإذا جاء الرابع قصر عن طريقتهم ، وأضاع الخلال الحافظة لمجدهم ، ويتوهم أن البنيان لم يكن بمعاناة ، وإنما حصل منذ النشأة ، لما يرى من التجلة بين الناس ، ويتوهم أنه بالنسب ، فيربأ عن عصابته ، فيحتقرهم ، فينقضون عليه ، ويديلون منه سواه ، فتنمو فروع أخرى ، وتذوي فروع الأول ، هكذا في الملوك ، والقبائل ، والأمراء ، وأهل الأمصار ؛ إذا انحطت بيوت نشأت أخرى . واشتراط الأربعة هو الغالب وإلا فقد يندثر البيت دون الأربعة ، وقد يتصل إلى الخامس والسادس إلا أنه في انحطاط . واعتبار الأربعة من جهة أن الأجيال أربعة : بانٍ ، ومباشر له ، ومقلِّد ، وهادم . وهو أقل ما يمكن ، وقد اعتبرت الأربعة في نهاية الحسب . قال صلى الله عليه وسلم : « إن الكريمَ ابنَ الكريمِ ابنِ الكريم ابن الكريم يوسفُ بنُ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » . وفي التوراة ما معناه : « إن ربّك مطالِبٌ بذنوب الآباء للبنين على الثَّوالث والرّوابع » .

الأمصار بيت إلا بالمجاز . والحسَب فى أهل الأمصار أن يَعُد الرجل أسلافه السابقين إلى خلال الخير ومخالطة أهله ، مع الركون إلى العافية ، وهذا مغاير لسر العصبية التى هى ثمرة النسب ، لـكن يطلق عليه حسب وبيت بالمجاز ، لمـا فيه من تعديد الآباء المتعاقبين على الخير ، وقد يكون للبيت شرف بالعصبية ثم يختلطون بالغُمار ، ويبقى فى نفوسهم وسَواس يعُدُّون به أنفسَهم من أشراف البيوتات ، وليسوا منها فى شىء لذهاب العصبية .

وأكثر مارسخ هذا الوسواس لبنى إسرائيل ، فإنه كان لهم بيت بالمَنْبِت لَمَّا تعدَّد فى سلفهم الأنبياء ، ثم بالعصبية وما آتاهم من الملك ، ثم انسلخوا من ذلك ، وضُربت عليهم الذلةُ والجلاء ، وانفردوا بالاستعباد آلاف السنين .

شرف الموالى بمواليهم لا بأنسابهم :

الشرف بالأصالة لأهل العصبية ، فإذا اصطَنعوا قوما أواسترقُّوا الموالى ضربوا معهم بنسبهم فى العصبية ، وهـــذا شأن الموالى والخدمة فى الدول ، يشرُفون بالرُّسوخ فى ولاء الدولة وخدمتها ، وتعدُّد الآباء فى ولايتها ، كموالى الأتراك ، وبنى برَمْك فى ولاء بنى العباس ، أدركوا البيت والشرف ، وبنَوُا المجد ، فـكان جعفر بن يحيى من أعظم الناس بيتا وشرفا بولاء الرشيد ، لا بالانتساب فى الفُرس ؛ إذ هو سر العصبية ، فشرفُه من شرف مواليه ، وبناؤه من بنائهم .

الدولة ، وما لم يكن لها مانع من أولياء الدولة استولت عليها ، وانتزعت الأمر منها ، وصار المُلك جميعُه لهـا ، وإن بلغت غاية قوتها ، ولم يقارِن ذلك هرمَ الدولة ، فقد تنتظمها الدولة ضِمْنَ أوليائها ، وتستظهر بها على مقاصدها ، كما وقع للعصبية التركية فى دولة بنى العباس .

من هـذا يظهر أن المُلك هو غاية العصبية ، وإذا بلغت العصبيةُ غايتها حصل للقبيلة المُلك مستقلةً به ، أومعاوِنةً للدولة .

ص ٢٢

الترف من عوائق الملك :

فالقبيلة إذا تغلبت بعصبيتها ، استولت على النعمة، وشاركت أهل الخصب بمقدار غلبها واستظهار الدولة بها ، فإن كانت الدولة من القوة بحيث لا يطمع أحد فى انتزاع أمرها ولا مشاركتها ، أذعن القبيل لهـا ، ولم تسمُ آمالهم إلى منازع الملك ، إنما همتهم النعيم والكسب فى ظل الدولة ، والأخذ بمذاهب المُلك فى المبانى والملابس والتأنق ، فتذهب خشونة البداوة ، وتضعف العصبية ، وينشأ بنوهم فى الترفع عن خدمة أنفسهم ، إلى أن تنقرض العصبية ، فيأذنون بالانقراض .

فعوارض الترف كاسرة من سَورة العصبية ، وإذا انقرضت العصبية التهمتهم الأمم ، وكان ذلك بسبب الترف .

الأمم الوحشية أقـدر على التغلب :

لما كانت البداوة سبب الشجاعة ، كان الجيل الوحشيّ أشجع ، فهم أقدر على انتزاع ما بأيدى سواهم ، بل الجيل الواحد تختلف أحواله ، فـكلما نزلوا الأرياف ، وألِفوا الخصب نقَصت شجاعتهم ، واعتبر ذلك بالظِّباء والبقر الوحشية إذا زال توحُّشُها بمخالطة الآدميين . وإذا كان الغَلبَ بالإقدام والبَسالة ، فمن كان أعرقَ فى البَداوة كان أقرب إلى التغلب على سواه إذا تَقاربا فى العَدَد ، وتـكافآ فى العصبية .

غاية العصبية الملك :

بالعصبية تـكون الحماية ، والآدميون يحتاجون إلى وازعٍ وحاكم يـكون متغلِّبا عليهم بالعصبية ، وهـذا التغلب هو المُلْك ، وهو زائد على الرياسة لأن الرياسة سُؤدَد ، وصاحبها متبوع ، وليس له قهر ، وأما المُلْك فهو التغلب والحكم بالقهر ، وصاحب العصبية إذا بلغ السؤدد ووجد السبيل إلى التغلب والقهر ، لا يتركه ؛ لأنه مطلوب للنفس ، ولا يتم إلا بالعصبية ، فالتغلب المَلَـكىّ غاية للعصبية ، والقبيل الواحد وإن كان فيه بيوت وعصبيات فلابُدَّ من عصبية أقوى ، تغلبها ، وتلتحم جميعُ العصبيات فيها ، وتصير كأنها واحدة كبرى ، وإلا وقع الاختلاط والتنازع ، فإذا حصل لها التغلب على قومها طلبت التغلب على عصبية أخرى ، وزادت قوةً إلى قوتها ، وهكذا حتى تُكافئ بقوتها قوة

الخلال الحميدة نقصا في أهل الأحساب ، فما ظنك بأهل الملك وهو غاية المجد ؛ ونهاية الحسب ؟

والسياسة والملك كفالة للخلق، وخلافة عن الله لتنفيذ أحكامه في العباد ، وأحكامه هي الخير ومراعاة المصالح ، فمن حصلت له العصبية ، وأونست منه خلالُ الخير لتنفيذ أحكام الله ، تهيأ للخلافة في العباد وكفالة الخلق ، فإذا وجدنا أهل العصبية يتنافسون في الكرم ، والعفو ، والصبر ، والوفاء ، وتعظيم الشريعة ، وإجلال العلماء ، والتجافي عن المكر ، والخديعة ، ونقض العهد — علمنا أن السياسة قد حصلت لهم ، وأن الملك أنسب المراتب لعصبيتهم .

وبالعكس ، إذا تأذن الله بانقراض مُلك أمة ، حملهم على ارتكاب الرذائل فتفقد الفضائلُ السياسة ، ويخرج الملكُ من أيديهم .

ومن خلال الملك إكرام العلماء ، والصالحين ، والأشراف ، والتجار ، والغرباء ؛ لأن إكرام العصبيات لمن يناهضهم إنما هو للرغبة في الجاه ، أو مخافة قوم المكرَم ، أما من ليس لهم عصبية ، فالقصد فيهم إنما هو للمجد ، لأن إكرام الأمثال ضروري بين النُّظراء ، وإكرام الطارئين كمال في السياسة .

ص
٢٦

الأمة الوحشية ملكها أوسع :

ذلك أنهم أقدرُ على محاربة سواهم ، ولأنهم من الأهلين بمنزلة المفترس من الحيوانات ، وليس لهم وطن يقفون عند حدوده فنسبة المواطن إليهم على

١ ## من عوائق الملك مذلة القبيل :

فالمذلة والانقياد كاسران لسوْرة العصبية ، ودليل فقدانها ، واعتبر ذلك فى بنى إسرائيل ، لما دعاهم موسى إلى مُلك الشام ، فالوا : « إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ ، وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا » (١) أى يخرجهم اللهُ بقدرته من غير عصبيتنا ، ولما عزم عليهم قالوا : « اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ » (٢) ، لمّا آنسوا من أنفسهم العجز ، بالذل والانقياد للقبط بمصر والعمالقة بالشام ، حتى ذهبت العصبية منهم ، فعاقبهم الله بالتِّيه ، ليفنى الجيلُ الذى عاش فى قبضة الذل والقهر .

ومما يوجب المذلة المغارمُ والضرائب ، ففيهما ضيْم ومَذَلة للنفوس الأبية ، إلى مايصحب ذلّ المغارم من خُلق المكر والخديعة بسبب القهر .

من علامات الملك التنافس فى الخلال الحميدة :

الملك طبيعى للإنسان ، والإنسان أقرب للخير بفطرته لأن الشر إنما جاءه من قِبَل الحيوانية ، والخير وخلاله أقرب إليه من حيث هو إنسان ، والملك السياسة خاصة للإنسان، وللمجد أصل هو العصبية ، وفرع هو الخلال ، وإذا كان الملك غاية للعصبية ، فهو غاية للخلال ، وإذا كان وجود العصبية من غير

---

(١) من الآية ٢٢ سورة المائدة .

(٢) من الآية ٢٤ سورة المائدة .

المغلوب مُولَع بالاقتداء بالغالب :

فالنفس تعتقد الكمال فيمن غلبها بما وَقَر عندها من تعظيمه ، أولما تغالط به من أن انقيادها ليس لغَلَب ، وإنما الكمال الغالب، فانتحلت مذاهبه في ملبسه ، ومركبه ، وسلاحه .

والأبناء يتشبهون بآبائهم ومُعلميهم لاعتقادهم الكمال فيهم ، والأقطار يغلب على أهلها زِيّ الجند ، لأنهم الغالبون ، والأمة تجاور أخرى لها الغلب ، فيسرى إليها التشبه ، حتى يستشعر الناظر أنه من علامات الاستيلاء، والرعية تقتدى بملوكها ، لأن الملك غالب ، ولاعتقاد الكمال فيه .

إذا غُلبت الأمة سارع إليها الفناء :

ذلك لأنها إذا صارت ـ بالاستعباد ـ آلةً لسواها وعالة عليهم ، يقصر الأمل ، ويضعُف التناسل ، فإذا ذهب الأمل ، وكانت العصبية ذاهبة بالغلب أصبحوا طُعمة لكل آكل . وسرّ آخر : أن الإنسان رئيس بطبعه ، إذا كُبِح عن عزه تكاسل حتى عن شِبع بطنه ورِيّ كبده ـ ومثله الحيوانات المفترسة فإنها لاتسافِد إذا كانت في ملكة الآدميين ـ فلايزال القبيل في اضمحلال إلى أن يأخذهم الفَناء ، والفرس ملأت العالم ، ولما فنيَت حاميتهم ، وتحصلوا في مَلَكة العرب لم يكن بقاؤهم إلا قليلا وذُبُروا . لالظلم أوعدوان ، وإنما هى طبيعة الإنسان إذا غُلب على أمره .

السواء ، فلهذا يطفرون إلى الأقاليم البعيدة ، و يتغلبون على الأمم النائية ، فتكون دولتهم أوسع وأبعد من مراكزها .

١ الملك ينتقل من شعب إلى شعب فى الأمة مادامت لها العصبية :

ذلك أن الملك حصل لهم بالغلب و إذعان سواهم ، فيتعيَّنُ منهم الحاملون لسرير الملك ، فإذا تعين القائمون بالدولة انغمسوا فى النعيم ، واستعبدوا إخوانهم الذين كبحوهم عن المشاركة فى الدولة ، فبَقُوا بمنجاة عن الهرم ، لبعدهم عن الترف ، فإذا استولت على الأولين الأيام ، وأكل عليهم الدهر ، كانت عصبية الآخرين موفورة ، فيستَوْلُون على الأمر ، ولا يزال الملك فى الأمة إلى أن تنكسر العصبية منها ، و يفنى سائرها . واعتبر ذلك فى العرب ؛ لما انقرض عادٌ قام ثمود ، ثم العمالقة . وفى اليونان ؛ لما انقرض أمرهم انتقل الملك إلى إخوانهم الروم .

وأصل الملك العصبية ، وهى متفاوِتة ، والملك يذْهِبه الترف ، فإذا انقرضت دولة ، تناول الأمرَ عصبيةٌ مشارِكة ، وذلك يوجد فى النسب القريب ، حتى إذا وقع فى العالم تبديل كبير ، فحينئذ يخرج عن ذلك الجيل إلى جيل آخر ، كما وقع لمُضَر حين أخذوا الأمر من يد أهل العالَم بعد أن كانوا مكبوحين عنه أحقابا .

وهم لا يكلفون على أهل الصنائع أعمالهم ، لا يرون لها قيمة ولا قسطا من الأجر والثمن ، والأعمال أصل المكاسب ، وإذا صارت مجانا ضعفت الآمال وانقبضت الأيدى عن العمل ، وفسد العمران .

وليست لهم عناية بالأحكام والزجر عن المفاسد ، همهم ما يأخذونه نهبا : إذا حصلوه أعرضوا عما بعده ، فتبقى الرعايا فوضى ، والفوضى مفسدة للعمران .

وهم متنافسون فى الرياسة ، فيتعدد الحكام ، وتختلف الأيدى على الرعية فى الجباية والسياسة ، فيفسد العمران .

العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية : ١

فهم لتوحشهم أصعب انقيادا : للأنفة والمنافسة فى الرياسة ، فإذا كان الدين كان الوازع من أنفسهم ، وذهب التكبر والمنافسة ، فسهل انقيادهم واجتماعهم ، فإذا كان فيهم النبى أو الولى يأمر الله - يذهب عنهم مذمومات الأخلاق ، ويؤلف كلمتهم - تم اجتماعهم ، وحصل التغلب والملك ، وهم أسرع قبولا للحق ، لسلامة طباعهم ، وبراءتها من ذميم الأخلاق إلا خلق التوحش المتيسر لقبول الخير ببقائه على الفطرة .

العرب لا يتغلبون إلا على البسائط : [1]

فهم بطبيعة التوحش ، ينتهبون ماقدروا عليه، و يفرون إلى مُنتجعاتهم ، ولا يذهبون إلى المحاربة إلا إذا دافعوا عن أنفسهم ، فكل مستصعَب عليهم فهم تاركوه ، والقبائل الممتنعة بالجبال بمنجاة من عَيثهم ؛ لأنهم لا يركبون الصِّعاب ، أما البسائط فمتى تغلَّبوا عليها بِضعف الدولة فهى نَهبٌ لهم ، إلى أن يصبح أهلُها مُغَلَّبِين لهم ، ثم يتعاورونهم باختلاف الأيدى وانحراف السياسة إلى أن ينقرض عمرانهم .

العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب :

فالتوحش لهم جِبِلّة ، وهو عندهم ملذوذ لما فيه من الخروج على ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة ، وهذه الطبيعة منافية للعمران .

فغاية الأحوال عندهم الرحلة والتغلب ، وذلك مُناقض للسكون الذى به العمران ، وحاجتهم للحَجر لنصبه أثافيَّ للقدر ، فينقلونه من المبانى ويخرِّبونها ، فطبيعتهم مُنافية للبناء ، وطبيعتهم انتهاب مافى أيدى الناس ، ورزقهم فى ظلال رماحهم ، فإذا تم اقتدارهم بطلت السياسة فى حفظ أموال الناس ، وخرُب العمران .

---

(١) يقصد ابن خلدون بالعرب هنا : البدو الرحل الذين يعيشون على الرعى ويسكنون الخيام ولا يخضعون للنظم والقوانين كما يدل عليه سياق كلامه فى وصفهم وتحديد خصائصهم . أما الشعب العربى فله عند ابن خلدون موطن التجلة والتقدير .

كالصنائع التى تقيم معاشهم ، والدنانير والدراهم مفقودة ، إنما بأيديهم غلات الزراعة والحيوان مما يحتاج إليه أهل الأمصار ، فيعوضونهم بالدنانير والدراهم ، فحاجتهم للأمصار فى الضرورى ، وحاجة الأمصار إليهم فى الكمالى ، فماداموا بالبادية ، ولم يحصل لهم ملك الأمصار ـ فهم محتاجون لأهلها الذين يتصرفون فى مصالحهم وطاعتهم ، و إن كان فى المصر مَلِك حملهم على طاعته؛ طوعاً ببذل المال أو الضروريات لهم ، أو كرها ولو بالتغريب بينهم ، فيحصل له جانب منهم يغالب به الباقين ، فيضطرون لطاعته ، ولا يسعهم مفارقة تلك النواحى . فلا يجدون ملجأ إلا طاعة المِصر ، فهم بالضرورة مغلوبون للأمصار .

س
١٣

العرب أبعد عن سياسة الملك :

ذلك أنهم أكثر بداوة ، فصعب انقياد بعضهم لبعض، ورئيسهم محتاج إليهم للمدافعة ، مضطر إلى ترك مُراغَمتِهم ، لئلا تختلَّ عصبيته ، وسياسة الملك تقتضي أن يكون السائس وازعا بالقهر .

وإذا ملكوا جعلوا غايتهم الانتفاع ، وجعلوا العقوبات فى الأموال ، حرصا على تكثير الجبايات ، فيكون ذلك باعثا للفرد على المفاسد ، واستهانة مايعطِى من ماله فى جانب غَرَضه ، فتبقى الأمة فوضى ، مستطيلةً أيدى بعضها على بعض . فتخرب سريعا .

لذلك بعُدت طباعهم عن سياسة الملك ، وإنما يصبرون إليها بعد انقلاب طباعهم بصبغة دينية تجعل الوازع من أنفسهم ، ولمّا شيَّد لهم الدينُ السياسةَ بالشريعة عظُم ملكُهم ، ثم انقطعت عن الدولة أجيال نبذوا الدين ، فنسوا السياسة ،وجهلوا عصبيتهم ، فلم يبق لهم إلا أنهم من جنس الخلفاء ، ولما ذهبت الخلافةانقطع الأمر من أيديهم ، وغلبهم العجم ، فرجعوا للبداوه .

وقد يحصل لهم غلب على الدول المستضعَفة ، فتكون غايتُهم تخريبَ مايستولون عليه من العمران .

البوادى والعصائب مغلوبون للأمصار :

عُمْران البادية ناقص ، لأن الضروريات ليست كلُّها موجودةً للبدو ،

وفى نفوس القائمين بالأمر من البلدان القاصية إذعان وانقياد لهذه العصبية .
فإذا خرج خارج من أهل هذه العصبية ، ولجأ إلى بلد من هذه البلدان ، فإن
القائمين فيها يظاهرونه على شأنه ، ويعملون بتمهيد الأمر له وإقامة دولته
الجديدة ، يرجون استقراره ، ويرجون أن يجازيهم على معاونتهم له؛ فيختارهم
لرتب الملك من الوزارة والقيادة والولاية دون أن يطمعوا فى مشاركته السلطان،
تسليما لعصبيته ، وانقيادا لما استحكم له ولقومه من الغلب .

وهذا ماوقع للأدارسة بالمغرب ، والعبيديين بإفريقية ومصر ، بعد أن
لجأ الطالبيون إليها مبتعدين عن مقر الخلافة بالمشرق ، طالبين انتزاعها من
أيدى بنى العباس . فاستغنوا عن عصبيتهم الأولى بمعاونة القائمين بالأمر فى
هذه الأطراف .

ص ٢٦

الدول العظيمة أصلها الدين:

الملك يحصل بالتغلب ، والتغلب بالعصبية ، واتفاق الأهواء . وجمع القلوب
وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله فى إقامة دينه ، وقد قال تعالى : « لَوْ أَنفَقْتَ
مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ » (1) .

وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل . والميل إلى الدنيا،حصل
التنافس ، وفشا الخلاف، وإذا انصرفت إلى الحق ، ورفضت الدنيا ، وأقبلت

---

(1) من آية ٦٣ من سورة الأنفال .

البَابُ الثَّالِثُ

الدولة، والملك، والخلافة، والمراتب السلطانية

المُلك والدولة يحصلان بالعصبية :

الملك منصب شريف ملذوذ ، يشتمل على الخيرات الدُّنيوية،والشهوات البدنية ، والملاذّ النفسية ، فيقع فيه التنافس ، وقلّ أن يُسامِه صاحبُه إلا إذا غُلب ، فتقع المنازعة وتُفضِى إلى الحرب ، وهى لاتقع إلا بالعصبية ، وإن كان هـذا الأمر بعيدا عن أفهام الجمهور؛ لأنهم نسوا عهد تمهيد الدولة ، وما لقى مؤسسوها من المتاعب التى لا تستغنى عن العصبية .

إذا استقرت الدولة استغنت عن العصبية:

والسبب أن الدول فى أولها يصعب على النفوس الانقياد لها إلا بقوة من الغالب ؛ لأن الناس لم يألفوا ملكها ، فإذا استقرت فى أهلها بالملك ، وتوارثوه ، نسيت النفوس شأن الأولية ، ورسخ فى العقائد الانقياد لهم ، وقاتل الناس معهم ، فلم يحتاجوا إلى كبير عصابة .

بعض الدول تستغنى عن العصبية :

قد يكون لعصبية من العصبيات غلبٌ على كثير من الأمم والأجيال .

وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد ، فما ظنك بغيرهم ؟

وقد وقع لابن قسيّ ـ شيخ الصوفية بالأندلس ـ أن ثار ، داعياً إلى الحق ، وسمى أصحابه بالمرابطين ، فاستتب له الأمر قليلا : لشغل لمتونة بما دهمهم من الموحدين ، فلم يلبث حين استولى الموحدون على المغرب أن أذعن لهم .

ومن هذا الباب أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر ، فإنهم يقومون على أهل الجور من الأمراء ، داعين إلى تغيير المنكر والأمر بالمعروف ، رجاء في الثواب ، فيكثر أتباعهم من الغوغاء والدهماء ، ويعرضون أنفسهم للمهالك ، لأن أحوال الدول راسخة لا تزحزحها إلا المطالبة القوية التي من ورائها عصبية القبائل والعشائر .

لكل دولة حصة من الأوطان لا تزيد :

والسبب أن عصابة الدولة لابد من توزيعهم على الممالك والثغور التي يستولون عليها ؛ لحمايتها ، وإمضاء الأحكام فيها ، فإذا توزعت العصائب على الممالك والثغور ، نفد عددها ، فإذا تكلفت الدولة بعد ذلك زيادة على ما بيدها ، بقي دون حامية ، وكان موضعاً لانتهاز الفرصة من العدو ، ويعود وبال ذلك على الدولة .

والدولة في مركزها أشد مما تكون في الأطراف ، وإذا انتهت إلى نطاق الغاية عجزت عما وراءه ، شأن الأشعة والأنوار إذا انبعثت من المراكز ، وشأن الدوائر المنفسحة على سطح الماء من النقر عليه .

على الله ـ اتحدت وجهتها ، فذهب التنافس ، وقلّ الخلاف ، وحسن التعاون . واتسع نطاق الكلمة . فعظمت الدولة .

الدعوة الدينية تزيد الدولة قوة:

ذلك أن الصِّبغة الدينية تذهب بالتحاسد بين أهل العصبية ، فإذا حصل لهم الاستبصار فى أمرهم لم يقف أمامهم شىء ؛ لأن الوجهة واحدة ، وهم مستميتون فى سبيلها ، وأعداؤهم وإن كانوا أضعافَهم ، فإن أغراضهم متباينة ، فلا يُقاومون ، بل يُغلَبون ، ويعاجلهم الفناء بما فيهم من الترف والذل .

وهذا ماوقع للعرب فى صدر الإسلام،فكانت جيوش المسلمين بالقادسية واليرموك بِضْعاً وثلاثين ألفا فى كل معسكر ، وجموع فارس مائةً وعشرين ألفا بالقادسية ، وجموع هِرَقْل أربعمائة ألف ، فلم يقفوا للعرب ، بل هزمهم العرب ، وغلبوهم على مابأيديهم ، لأن الاجتماع الدينى ضاعَفَ عصبيتهم بالاستبصار والاستماتة .

ص ١٣٨

الدعوة الدينية لا تتم بلا عصبية :

كل أمر تُحمَل عليه الكافة لابدّ له من العصبية ، وفى الحديث : « مابَعَثَ اللهُ نبيًّا إلا فى مَنَعَةٍ من قوْمِه» .

أما طول أمدها فعلى تلك النسبة أيضاً ؛ لأن عمر الحادث من قوة مزاجه ، ومزاج الدولة بالعصبية ، فإذا كانت العصبية قوية كان المزاج تابعاً لها ، وكان أمد العمر طويلاً .

والسبب كما قدمنا أن النقص يبدو فى الدولة من الأطراف . فإذا كانت ممالكها كثيرة كانت أطرافها بعيدة عن مركزها ، وكل نقص يقع فلابدّ له من زمن ، فتطول أزمان النقص لكثرة الممالك . واختصاص كل واحدة منها بزمان ، فيكون عمر الدولة طويلاً .

وانظر ذلك فى دولة العرب الإسلامية : كيف كان أمدها أطول الدول ، فبنو العباس أهل المركز ، وكذا بنو أمية بالأندلس . لم ينتقض أمرهم إلا بعد الأربعمائة من الهجرة . أما دولة العبيديين فكان أمدها قصيراً .

من طبيعة الملك الانفراد بالمجد :

ذلك لأن الملك بالعصبية . والعصبية متألفة من عصبيات كثيرة تكون واحدة منها أقوى ، فتغلبها وتستولى عليها ، حتى تصيّرها فى ضمنها ، وبذلك يكون الاجتماع والغلب على الناس والدول .

وسره أن العصبية العامة للقبيل مثل المزاج المتكون ، والمزاج ينشأ عن العناصر ، والعناصر إذا اجتمعت متكافئة فلايحصل منها مزاج أصلا ، بل لابد أن تكون واحدة منها هى الغالبة على الكل ، حتى تجمعها وتؤلفها وتصيّرها

ثم إذا أدركها الهرم والضعف تأخذ فى التناقص من جهة الأطراف .
ولا يزال المركز محفوظاً حتى يتأذن الله بانقراضها ، فحينئذ يكون انقراض المركز ، فإذا غلبت على مركزها فلا ينفعها بقاء الأطراف ، فإن المركز كالقلب الذى تنبعث منه الروح ، فإذ غُلب القلب انهزم جميع الأطراف .

وانظر لما غلب المسلمون على المدائن مركز الدولة الفارسية كيف انقرض أمرها ، ولم ينفع يَزْدَجَرْد مابقى بيده من الأطراف ، وعلى العكس من ذلك الدولة الرومية ، لما غلبهم المسلمون بالشام تحيَّزوا إلى مركزهم بالقسطنطينية ، ولم يضرهم انتزاع الشام ، ولم يزل ملكهم متصلا إلى أن تأذن الله بانقراضه .

عِظم الدولة على نسبة القائمين بها :

الملك بالعصبية ، والدول التى تكون عصابتها أكثر ، تكون أقوى ، وأكثر أوطاناً وممالك ، ولذلك يكون ملكها أوسع .

واعتبر ذلك بالدولة الإسلامية ، لما ألّف الله كلمة العرب على الإسلام ، وكان عدد المسلمين فى غزوة تبوك ـ آخر غزوات النبى ـ مائة ألف وعشرة آلاف ، فلما توجّهوا لطلب مابأيدى الأمم من الملك لم يكن دونه حِمًى ، فاستُبيحت الدولتان العظيمتان : فارس والروم ، والتُّرك بالمشرق ، والإفرنجة والبربر بالمغرب، والقُوط بالأندلس ، وخطَوْا من الحجاز إلى السُّوس الأقصى ، ومن اليمن إلى الترك بأقصى الشمال ، واستولوا على الأقاليم السبعة .

وعلى هذه النسبة فى أعداد المتغلبين يكون اتساع الدولة وقوّتها .

في المطاعم والملابس والآنية ، و يألفون ذلك ، و يوَرِّثونه أجيالَهم حتى يتأذن الله بأمره .

إذا تحكم الانفراد والترف هرمت الدولة :

ص ٤٥

و بيانه من وجوه :

الأول : أنها تقتضى الانفراد بالمجد ، و إذا كان المجد مشتركاً بين العصابة ، كان سعيهم له واحداً ، وهممهم فى التغلب ، يُؤثرون الموت فى بناء مجدهم ، و يحمونه من الفساد .

فإذا انفرد الواحد بالمجد ، كبح عصبيتهم ، واستأثر بالمال دونهم ، فتكاسلوا عن الغزو ، ثم رُبِّى الجيل الثانى منهم على ذلك ، يحسبون ماينالهم من العطاء أجراً من السلطان لهم على المعونة والحماية ، وقلَّ أن يستأجر أحدٌ نفسَه على الموت ، فيصير ذلك وَهْناً فى الدولة ، ونُقبِل به على الضعف والهرم لفساد العصبية بذهاب البأس من أهلها .

الثانى : أن طبيعة الملك تقتضى الترف ، فتكثر نفقاتهم ، ولا يفى بها دَخْلُهم ، فالفقير يهلك ، والمُترَف يستغرق عطاءه ، و يزداد ذلك فى أجيالهم التالية ، و يطالبهم ملوكهم بحصر نفقاتهم فى الغزو والحروب ، و ينتزعون مافى أيديهم ، فيضعفونهم عن إقامة أحوالهم ، و يضعف صاحب الدولة بضعفهم .

وقد تدعو كثرةُ الترف صاحبَ الدولة أن يزيد فى أُعطياتهم حتى يسُدَّ خلَلَهم ، والجباية قدرها معلوم ، فإذا وُزِّعت على الأُعطيات بعد الزيادة عظُم

عصبية واحـــدة ، والعصبية الـــكبرى إنمـــا تـــكون لقوم أهل بيت ورياسة . ولابد أن يكون واحد منهم رئيساً غالباً عليهم ، فيتعين رئيساً للعصبيات كلها .

إذا تعيّن هذا ، فمن الطبيعة الحيوانية خُلُق الـكِبر، والأنفة ، والتألُّه الذى فى طبـاع البشر ، مع ماتقتضيه السياسة من انفراد الحاكم ، فيَجْدَعُ أنوفَ العصبيات عن أن يَسْمُوا إلى مشاركته فى التحكم ، وينفرد بذلك المجد كله .

وقد يتم ذلك للأول من ملوك الدولة ، وقد لايتم إلا للثانى أو الثالث على قدر ممانعة العصبيات وقوّتها .

من طبيعة الملك الترف والدَّعة :

الأمة إذا تغلبت ، وملـكت ما بأيدى الدولة التى قبلهـا ، كثر رِياشُها ونعمتها فتـكثر عوائد أهلها ، ويتجاوزون ضرورات العيش إلى رقَّته وزينته ، وتصير تلك عوائد ضرورية ، فينزعون إلى رقة المطاعم ، والملابس ، والفُرُش ، والآنية ، ويتفاخرون فى ذلك ، ويفاخرون به الأمم ، ويناغِى خلفُهم فى ذلك سلفَهم ، إلى أن يبلغوا الغاية من الترف .

وأما الدعة ، فإن الأمة لايحصل لهـا الملك إلا بالمطالبة ، والمطالبة ، غايتها الغلبة والملك ، فإذا حصلت الغاية انقضى السعى ، وأقصروا عن المتاعب ، وآثروا الراحة والسكون ، ورجعوا إلى تحصـيل ثمرة الملك ، فيبنون القصور ، ويُجرون الميـاه ، ويغرسون الرياض ، ويستمتعون بأحوال الدنيا ، ويتأنّقون

والبسالة ، والاشتراك فى المجد ، فلا تزال سَوْرة العصبية محفوظة فيهم ، فجانبهم مرهوب ، والناس لهم مغلوبون .

والجيل الثانى تحُول حالهم ـ بالملك والترفُّه ـ من البداوة إلى الحضارة ، ومن الشظف إلى الترف ، ومن الاشتراك فى المجد إلى انفراد الواحد وكَسَل الباقين ، فتنكسر سوْرة العصبية ، ولكن يبقى لهم الكثير مما أدركوا من الاعتزاز والمدافعة والحماية ، فلا يسعهم ترك ذلك كُلِّيَّة .

وأما الجيل الثالث : فينسون عهد البداوة والخشونة ، ويفقدون حلاوة العصبية بما هم فيه من القهر ، ويبلغ فيهم الترف غايته ، فيصيرون عيالا على الدولة ، وتسقط العصبية بالجملة ، فيحتاج صاحب الدولة إلى الاستظهار بسواهم ، ويستكثر بالموالى .

فهذه ثلاثة أجيال تبلغ فيها الدولة هرمها ، وهذه الأجيال عمرها مائة وعشرون سنة ، ولا تعدو الدول هذا العمر إلا إن عرض لها عارض آخر .

انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة :

هذه الأطوار طبيعية للدول ، فإن الغلب الذى يكون به الملك إنما هو بالعصبية أو شدة البأس ، ولا يكون ذلك إلا مع البداوة ، فطور الدولة من أولها بداوة .

ثم إذا حصل الملك تبعهُ الرفه ، والحضارة إنما هى تفنُّنٌ فى الترف

الترف ، ونقص عدد الحامية فتضعف الحماية ، وتسقط قوة الدولة ، ويتجاسر
عليها مَن يجاورها من الدول ، أو مَن تحت يدها من القبائل .

وأيضاً فالترف مُفسد للخُلق ، بما يحصل فى النفس من ألوان الشر والسفسفة
فتكون علامة على انقراض الدولة ، وتأخذها مبادئ العطب ، وتتضعضع
أحوالها .

الثالث : أن طبيعة الملك تقتضى الدعة ، وإذا اتخذوا الدعة خُلقا ، صار
لهم طبيعة ، وينقلب خلق التوحّش ، وينسون العوائد التى كان بها الملك ،
من شدة البأس والافتراس ، وركوب البَيْداء ، وينسون خُلق البسالة التى بها
الحماية والمدافعة ، فتذهب حمايتهم ، ويذهب بأسهم ، حتى يصيروا عيالاً على
حامية أخرى ، ويعود وبال ذلك على الدولة .

والدولة إذا طرقها الهرم بالترف والراحة ، فقد يتخذ أصحابها أنصارا وشيعة
من غير جلدتهم ، ليكونوا جندا أصبر على الحروب ، وأقدر على الشدائد ،
فيكونون دواء للدولة حتى يأذن الله فيها بأمره .

للدول أعمار طبيعية كالأشخاص :

أعمار الدول لا تعدو فى الغالب أعمار ثلاثة أجيال من البشر ، وعمر الجيل
عون سنة .

وذلك لأن الجيل الأول لم يزالوا على خُلق البداوة من شظف العيش ،

عمورية في تسعمائة ألف ، فانظر مبالغ هذا العدد في أقل من مائتي سنة ، وسببه الرفه والنعيم الذي حصل للدولة .

أطوار الدولة واختلاف أحوالها باختلاف هذه الأطوار :

الدولة تنتقل في أطوار مختلفة ، ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقا من أحوال ذلك الطور ، وحالات الدولة وأطوارها لا تعدو خمسة أطوار :

الأول : طور الظفر ، والاستيلاء على الملك . فيكون صاحب الدولة في هذا الطور أسوة في اكتساب المجد ، وجباية المال ، والحماية . لا ينفرد بشيء ، لأن ذلك مقتضى العصبية .

الثاني : طور الاستبداد على قومه . والانفراد بالملك . ويكون صاحب الدولة فيه مَعْنِيًّا باصطناع الرجال ، واتخاذ الموالي ، لجدع أنوف عصبيته المقاسمين له في نسبه ، فيعاني في مغالبتهم ماعاناه الأولون في طلب الملك .

الثالث : طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك من تحصيل المال وتخليد الآثار ، وبُعد الصيت ، وتشييد المباني والأمصار والهياكل ، مع التَّوْسِعة على حاشيته وجنوده ، حتى يظهر أثر ذلك في ملابسهم وشاراتهم ، فيباهي بهم الدول المسالمة ، ويُرهب المحارِبة .

الرابع : طور القُنوع والمسالمة ، وصاحب الدولة فيه قانع بما بنى الأوائل

و إحكام الصنائع المستعملة فى وجوهه : كالمطابخ، والملابس ، والفُرش ، والأبنية ، ومايتبع ذلك من الملاذّ والتنعُّم ، فصار طور الحضارة فى الملك يتلو طور البداوة .

وأهل الدول يقلدون الدول السابقة فى طور الحضارة وأحوالها ، وهذا ماوقع للعرب لمّا ملكوا فارس والروم ، واستخدموا بناتِهم وأبناءهم ، فقد حُكِيَ أنهم عَثُروا على الكافور فى خزائن كسرى ، فاستعملوه فى عجينهم ملحا ، فلما استعبدوا الدول التى كانت قبلهم ، واختاروا منهم المَهَرة ـ أفادوا علاج ذلك ، فبلغوا الغاية ، وتطوّروا بطور الحضارة ، حتى إن المأمون فى ليلة زفافه إلى بُوران ، أعطاها فى مهرها ألف حصاة من الياقوت ، وأوقد شموع العنبر ، و بسط لها فُرُشاً من الحصير المنسوج بالذهب ، والمكلّل بالدرّ والياقوت.

الترف يزيد الدولة فى أولها قوة :

والسبب أن القبيل إذا حصل لهم الترف كثر التناسل ، فكثرت العصابة، واستكثروا من الموالى والصنائع ، ورُبِّيت أجيالهم فى النعيم والرفه ، فازداد عددهم وقوّتهم بكثرة العصائب ، فإذا ذهب الجيل الأول والثانى ، لم يستقل الفرع بالرسوخ ، فيذهب و يتلاشى .

وقد وقع هذا فى الدولة العربية فى الإسلام ، فقد كان عدد العرب ـ لعهد النبوة والخلافة ـ مائة وخمسين ألفا من مُضر وقحطان ، ولما بلغ الترف مبالغه ، واستكثر الخلفاء من الموالى ، بلغ العدد إلى أضعافه ، حتى إن المعتصم نازل

كما حدّثوا ، أن ابن ذى يزن قد أعطى وفد قريش من أرطال الذهب والفضة والأعبُد والوصائف عشراً عشراً .

استظهار صاحب الدولة على قومه بالموالى :

صاحب الدولة لايتم أمره إلا بقومه ، فهم عصابته ، يقارع بهم الخوارج ، ويقلدهم الوزارة والجباية ، لأنهم أعوانه وشركاؤه فى الطور الأول ، فإذا جاء الطور الثانى ، وانفرد بالمجد ، ودافعهم عن الملك ، صاروا بعض أعدائه ، واحتاج فى مدافعتهم إلى أولياء آخرين من غير جلدتهم ، يستميتون دونه فى مدافعة قومه ، فيستخلصهم ، ويخصهم بالإيثار ، ويقلدهم جليل الأعمال من الوزارة والقيادة والحجابة ، لأنهم — حينئذ — أولياؤه المخلصون ، وذلك مؤذن باهتضام الدولة ، لفساد العصبية ، ومرض قلوب أهل الدولة ، من الامتهان وعداوة السلطان ، فيضطغنون عليه ، ويتربصون به الدوائر إلى أن تذهب الدولة .

واعتبر ذلك بالدولة العباسية لما كان الاستظهار فيها برجالات العرب ، فلما صارت الدولة للانفراد ، وصارت الوزارة للعجم — كانت الدولة لغير من مهّدها ، فذهبت الدولة من أيديهم .

مقلِّد للماضين ، فيتبع آثارهم ، ويرى فى الخروج عن تقليدهم فساد أمره .

الخامس : طور الإسراف والتبذير ؛ وصاحب الدولة فيه مُتلِف لما جمع أوّلوه فى سبيل الشهوات والملاذ . واصطناع أَخدان السوء ، وتقليدهم عظيمات الأمور ، مستفسداً لكبار الأولياء من قومه ، حتى يَضْطَغِنوا عليه ، ويتخاذلوا عن نُصرته ، فيكون مخرِّبا لما كان سلفُه يؤسِّسون .

وفى هذا الطور تحصل فى الدولة طبيعة الهرم ، ويستولى عليها المرض ، إلى أن تنقرض .

آثار الدولة على نسبة قوّتها :

والسبب أن الآثار تحدث عن القوة التى كانت أولا ، وعلى قدرها يكون الأثر،فمن ذلك مبانى الدولة ،وهياكلها التى تكون على نسبة قوة الدولة ؛ لأنها لاتتم إلا بكثرة الفعَلة ، واجتماع الأيدى على العمل ، والتعاون فيه ، فإذا كانت الدولة عظيمة كان الفعلة كثيرين ، فتم العمل على أعظم هياكله .

ألا ترى إلى إيوان كسرى ، وما اقتدر فيه الفُرس حتى إن الرشيد عزم على هدمه وتخريبه ، ثم أدركه العجز ، فانظر كيف تقتدر دولة على بناء لاتستطيع أخرى هدمه .

وتلك الأفعال كانت للأقدمين باجتماع الفَعَلة وكثرة الأيدى .

ومن آثار الدول أيضاً حالها فى الأعراس والولائم ، ومن آثارها العطايا :

الدولة على الانقراض ، و إنما ناجأ إليهم الدولة لتضرب بهم أولياءها الأقدمين الذين يستشعرون العزة فى أنفسهم على صاحب الدولة .

حجْر السلطان والاستبداد عليه :

إذا استقر الملك فى واحد من القائمين بالدولة، وتداوله بنوه ، فربما حدث التغلب على المنصب من الوزراء والحاشية ، وسببه ولاية صبى أو مُضَعَّف ، يؤْنَس منه العجز عن القيام بالملك ، فيقوم كافله ، ويحجبه عن الناس ، ويعوِّده اللذات التى يدعو إليها الترف ، وينسيه النظر فى الأمور السلطانية ، حتى يستبد عليه ، وهو — بما يعوّده — يعتقد أن حظ السلطان هو جلوس السرير ، وخطاب التهويل ، والقعود مع النساء خلف الحجاب ، وأن مباشرة الأحوال وتفقُّدها إنما هو للوزير ، فيسلِّم له فى ذلك إلى أن تستحكم له صبغة الرياسة والاستبداد ، ويتحول الملك إليه ، ويؤْثِر به عشيرتَه ، كما وقع لبنى بُويه ، والترك فى الشرق ، والمنصور بن أبى عامر بالأندلس .

وقد يتفطَّن المحجور عليه ، فيحاول الخروج من ربقة الحجر ، ويضرب على أيدى المتغلبين ، بقتل أو رفع عن الرتبة ، إلا أن ذلك نادر ، لأن الدولة إذا أخذت فى تغلب الوزراء ، استمر لها ذلك ، لأنه ينشأ عن الترف ، ونشأة جيل منغمس فيه ، لاينزعون الرياسة ، ولا يعرفون استبداد من تغلب ، إنما همهم فى القنوع بالأبهة والتفنن فى الملذات .

ص ١٥٩

أحوال الموالى فى الدول :

المصطنَعون فى الدول يتفاوتون فى الالتحام بصاحب الدولة بتفاوت قديمهم وحديثهم .

والسبب أن المقصود فى العصبية إنما يتم بالنسب ، والولاية والمخالطة بالرِّق أو الِحلف تتنزل منزلة النسب ، وإذا حصل الالتحام بذلك جاء التناصر .

فإذا كانت الولاية بين القبيل وأوليائهم قبل حصول الملك ، كانت صلتها أقوى لسببين :

أحدهما : أنهم قبل الملك أسوة ، لايتميز النسب عن الولاية ، فيتنزلون منهم منزلة القرابة ، أما إذا اصطنعوهم بعد الملك ، كانت مرتبة الملك مميزة للسيد عن المولى ، فيتنزلون منزلة الأجانب .

والثانى : أن الاصطناع قبل الملك يبعد عهده ، ويَخفَى شأن هذه الصلة ، حتى يُظن بها النسب ، أما بعد الملك فيكون العهد قريباً ، ويُعرف أمرها ، فتضعف عصبيته بالنسبة إلى الولاء الذى كان قبل الدولة .

واعتبر ذلك فيمن استعملتهم الدولة قبل الملك، كيف كانوا يعاونون فى بناء الدولة ، أما من احتاجت إليهم الدولة أو اصطنعتهم من الأجانب فى الأطوار التالية ، فإنهم لم يستطيعوا أن يعيدوا مجدها لقرب العهد باصطناعهم ، ومشارفة

حقيقة الملك وأصنافه

ص
٦٢

الملك منصب طبيعى للإنسان :

ذلك لأن البشر لا يمكن حياتهم إلا باجتماعهم وتعاونهم ، وإذا اجتمعوا ، دعت الضرورة إلى المعاملة ، ومد كل منهم يده إلى ما بيد غيره ، لما فى طبيعته الحيوانية من الظلم والعدوان ، ويمانعه الآخر بمقتضى الغضب والأنفة والقوة البشرية ، فيقع التنازع المفضى إلى المقاتلة والهرج وسفك الدماء وانقطاع النوع الذى خصه البارى سبحانه بالمحافظة . فاستحال بقاؤهم فوضى دون حاكم يزع بعضهم عن بعض ، واحتاجوا إلى الوازع، وهو الحاكم عليهم . وهو بمقتضى الطبيعة البشرية الملِك القاهر المتحكم .

وهذا الملك منصب شريف ، يتوجه نحو المطالبات . ويحتاج إلى المدافعات ؛ ولا يتم ذلك إلا بالعصبية ، والعصبيات متفاوتة ، وكل عصبية لها تحكم وتغلب على من يليها من عشيرتها،وليس الملك لكل عصبية . ولكنه لمن يستعبد الرعية ، ويجبى الأموال ، ويحمى الثغور ، ولا تكون فوق يده يد قاهرة .

هذا هو معنى الملك وحقيقته ، فمن قَصَّرت به عصبيّته عن الحماية ، أو الجباية ، أو الاستعلاء على جميع العصبيات ـ فهو ملك ناقص .

وكثيراً مايوجد فى الدولة المتسعة ملوك على قومهم فى النواحى القاصية ؛ ولكنهم يدينون بطاعة الدولة ، كملوك العجم فى دولة بنى العباس ، وملوك صنهاجة فى دولة العبيديين .

وهذا التغلب يكون للموالي والمصطنعين بعد استبداد الملك على قومه والانفراد بالملك وتفرق العصبية .

المتغلبون على السلطان لا يشاركونه ألقابه :

ذلك لأن المتغلب وإن كان صاحب عصبية ، فعصبيته نابعة لعصبية أهل الملك ، وهو لا يحاول فى استبداده انتزاع الملك ظاهرا ، وإنما يحاول انتزاع ثمراته من الأمر والنهى والحل والعقد ، ويوهم أهل الدولة أنه متصرف عن أمر سلطانه ، فهو يتجافى عن سمات الملك وشاراته وألقابه ، لأنه مستتر فى استبداده بالحجاب الذى ضرب به السلطان بينه وبين عصبيته بانفراده عنهم بالمجد ، ولوادعى لنفسه لقبا لأثار على نفسه أهل العصبية ، فحاولوا انتزاع الأمر منه ، فيهلك لأول وهلة .

وقد وقع هذا لعبد الرحمن بن الناصر بن المنصور بن أبى عامر حين سما إلى مشاركة هشام فى لقب الخلافة ، فنفس عليه ذلك بنو مروان وسائر قريش وبايعوا لابن عم الخليفة وخرجوا عليه ، وكان فى ذلك خراب دولة العامريين .

معنى الخلافة والإمامة

لما كان مقتضى الملك التغلب والقهر ، كانت أحكام صاحبه مجحفة بالخلق ؛ لحملهم على ما ليس في طوقهم ، فتعسر طاعته ، وتجيء العصبية المفضية للهرج والقتل ، فوجب أن يرجع إلى قوانين ينقادون لأحكامها ، ليستتب الأمر ، فإذا كانت القوانين مفروضة من العقلاء ، كانت سياسةً عقلية ، وإذا كانت من الله كانت دينية نافعة للدنيا والآخرة ، فالشرائع تحملهم على العبادة والمعاملة ، وتُجرى المُلك على منهاج الدين ، ليكون الكل محوطا بنظر الشارع ، فما كان بالقهر والتغلب ، فجوْر وعدوان ، وما كان بالسياسة فمذموم ، لأنه نظرٌ بغير نور الله ، وهو أعلم بمصالح الكافة في آخرتهم ، والسياسة تطلع على الدنيا فقط ، فوجب حملُ الكافة على الأحكام الشرعية ، وكان الحكم لأهل الشريعة وهم الأنبياء ، ومن قام مقامهم ، وهم الخلفاء ، فمعنى الخلافة حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية .

منصب الخلافة وشروطه :

القائم بهذا المنصب إمام كإمام الصلاة في الاقتداء به ، وخليفة يخلف النبي صلى الله عليه وسلم ، ويسمى خليفةَ الله ، اقتباسا من خلافة الآدميين في الأرض ونصبُ الإمام واجب بالإجماع ، وذهب البعض إلى وجوبه بالعقل ، لضرورة

ص ١٦٢ إرهاف الحد مضرّ بالملك :

مصلحة الرعية فى السلطان ليست فى ذاته ، وإنما من حيث إضافته إليهم، وهذه الإضافة هى المَلَكة ، فإن كانت صالحة كانت مُصلحةً لهم ، وإن كانت متعسّفةً كان ذلك إهلاكا لهم ؛ فالملِك إذا كان قاهرا منقّبا عن عورات الناس وذنوبهم ، شمِلهم الخوف والذل، ولاذوا بالكذب والخديعة ، ففسدت أخلاقهم ، وربما خذلوه فى الحرب ، ففسدت الحماية ، وربما أجمعوا على قتله ، فتفسد الدولة . وإن كان رفيقا استناموا إليه ، وأُشرِبوا محبته ، واستماتوا دونه، فاستقام الأمر ، ومن توابع حُسن الملكة ، النعمةُ عليهم ، والمدافَعة عنهم ، فبالمدافعة تتم حقيقة الملك ، والنعمة ، وأما الإحسان فمن جملته الرفق بهم ، والنظر فى معاشهم ، وهما أصل كبير فى التحبب للرعية .

وقلَّما يوجد الرفق فيمن يكون يقظا شديد الذكاء ، وإنما يكون فى الغُفْل والمُتَغَفَّل ، واليقظ يكلِّف الرعيةَ فوق طاقتهم ؛ لاطّلاعه على عواقب الأمور بألمعيَّته ، ومن هذا اشتُرِط فى الحاكم قلةُ الإفراط فى الذكاء لما يتبعه من سوء الملكة ، وقد أُخذ ذلك من قصة زِيَاد ، لما عزله عمرُ عن العراق ، وقال : كرهتُ أن أحمل فضل عقلك على الناس .

والخَرَس ، وفقد اليدين ، والرِّجلين والأُنْثَيَيْن ، ومن العجز عن التصرف ؛ لتأثير ذلك في تمام عمله .

وأما النسب القرشي : فلإجماع الصحابة يوم السقيفة [١] عليه ، إلا أنّ أمرَ قُريش ضعف ، وتلاشت عصبيّتهم بالتّرف ، فعجَزُوا عن الخلافة . وحِكمة اشتراط النسب القرشي ، اعتبار العصبية لصاحب المنصب ، فتسكُنُ إليه الملة ، لأن قريشا عصبيةُ مُضر ، ولهم على سائر مضر العزّةُ ، بالكثرة والشرف ، فسائر العرب يعترف لهم بذلك ، فلو جُعل الأمر في سِواهم ، لتوقّعَ افتراقُ الكلمة بمخالفتهم ، فتفترقُ الجماعة ، والشارع حريص على اتفاقهم ، فاشتُرط نسبُهم لهذا المنصب ، فإذا اشتُرِطت القرشية ؛ لدفع التنازع بمالهم من العصبية ، والشارع لايخُص الأحكام بجيل ولا عصر — اشتُرِط في القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولى عصبية قوية غالبة ؛ لتجتمعَ الكلمة .

مذاهب الشيعة في الإمامة:

الشيعة أتباعُ عليٍّ وبنيه ، ومذهبُهم أن الإمامة ركنُ الدين ، لايجوز لِنبيٍّ إغفاله ، ولا تَفْويضه للأُمّة ، بل يجب تعيين الإمام ، ويكون معصوما ، وعليٌّ هو الذي عيَّنه الرسول بنصوص يُؤَوِّلونها ، تنقسم إلى جَليٍّ وخفيٍّ ، فالجليّ

---

(١) المناقشة التي حدثت بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة عقب وفاة الرسول فيمن يتولى الخلافة ، ولم يحسم النزاع إلا حديث روى عن الرسول هو : « الأئمة

الاجتماع والتنازع للبشر . ومالم يكن الحاكم الوازع أفضى ذلك للهرج المؤذن بالهلاك .

وبعض المعتزلة والخوارج قالوا بعدم وجوبه . وإنما الواجب إمضاء أحكام الشرع ، فإذا تواطأت الأمة على العدل ، لم تحتج لإمام ، وقد حملهم على هذا الفرارُ من الملك والتغلب والاستمتاع ، والشريعة ممتلئة بذمّ ذلك .

والشرع لم يذم الملك ، وإنما ذمّ المفاسدَ الناشئةَ عنه ، وأثنى على العدل وإقامة الدين ، وهى من توابع الملك ، وقد كان لداودَ وسليمانَ الملكُ وهما من الأنبياء .

وإذا تقرر أن هذا المنصب واجب، فهو فرض كفاية ، راجعٌ إلى اختيار أهل العقد والحل ، وعلى الخلق طاعته .

أما شروطه فأربعة : العلم ، والعدالة ، والكفاية ، وسلامة الحواس والأعضاء ، واختُلف فى شرط خامس وهو النسب القرشى .

أمَّا اشتراط العلم؛ فلأنه منفِّذٌ لأحكام الله إذا كان عالما بها ، ولا يكفى إلّا أن يكون مجتهدا؛ لأن التقليد نقص ، والإمامة تستدعى الكمال .

وأما العدالة ؛ فلأنه منصِبٌ دينى ، ينظر فى المناصب التى هى شرط فيها، فكان هو أوْلَى باشتراطها ، وتنتفى العدالة بالفسق وارتكاب المحظورات .

وأمَّا الكفاية : فهى أن يكون جريئا على إقامة الحدود ، واقتحام الحروب ، عارفا بالعصبية والدهاء والسياسة ؛ ليصح له إقامة الدين .

وأما سلامة الحواس : فهى السلامة من الجنون ، والعمى ، والصمم ،

ومنهم من ساقها بعد السِّبطين (الحسن والحسين) إلى محمد بن الحَنفيَّة ، وهم الـكَيْسَانيّة ، نسبة إلى كَيْسان مولاه .

ومنهم طوائف الغلاة ، تجاوزوا العقل ؛ فمنهم من يقول بألوهية الأئمة بالحلول ، ومنهم من يقول : إذا مات انفلت روحه إلى آخر بالتناسخ .

ومن الغلاة من يقف عند واحد ، وهم الواقِفِيَّة ، وبعضهم يقول : هو حى إلا أنه غائب يسمونه المُنتظَر .

والـكَيْسانية ساقوا الإمامة بعد محمد بن الحنفية إلى ابنه أبى هاشم ، وهم الهاشمية ، ثم افترقوا ؛ فمنهم من ساقها بعده إلى أخيه على ، فابنه الحسن . يزعمون أن أبا هاشم أوصى لمحمد بن على بن عبد الله بن عباس ، وأوصى محمد لابنه إبراهيم الإمام ، وإبراهيم لأخيه السفاح . وأوصى هو للمنصور ، بالنَّص والعهد ، وهذا مذهب الهاشمية ، ومنهم أبو مسلم الخراسانى ، وسليمان بن كثير ، وأبو سلمة الخلال .

وأما الزيدية فقالوا باختيار أهل الحل والعقد لا بالنص ، وقالوا بإمامة علىٍّ فالحسن ، فالحسين ، فزين العابدين ، فزيد ، فيحيى الذى أوصى للنفس الزكية ، فعهد إلى أخيه إبراهيم الذى وجه إليه المنصورُ عساكره ، فقُتِل .

وذهب آخرون منهم إلى أن الإمام ـ بعدَ النفس الزكيَّة ـ أخوه إدريس الذى فرَّ إلى المغرب ، وقام ابنه إدريس ؛ فاختَطَّ مدينة « فاس » .

وأما الإمامية فساقوها من علىٍّ الرضا إلى ابنه الحسن بالوصية ، ثم إلى

مثل: «مَنْ كُنتُ مَولَاهُ فعليٌّ مَوْلاه» ، وقوله : « أقْضَاكُم عَلِيٌّ » ومعنى الإمامة القضاء بأحكام الله ، وهو المراد بأُولى الأمر الواجبة طاعتهم . وقوله : « مَنْ يُبَايِعُنِي عَلَى رُوحِهِ ، وهُو وَصِيِّي ووَلِيُّ هـذَا الأمر مِن بعدى ؟ » فلم يبايعْهُ إلا عليٌّ .

والخفى : بَعْثُ النبيِّ عليًّا لقراءة سورة « براءة » فى الموسم حين أنزلت ، فإنه بعثَ أبا بكر ، فأوحِيَ إليه : ليُبلغه رجل منك أو من قومك ، فبعث عليًّا ، ولم يقـدِّم أحـداً عليـه ، وأبو بكر وعمر قدم عليهما أسامة وعَمراً فى غزوتين .

ومنهم من يرى النصوص تدل على تعيين عليٍّ وتشخيصه ، وتنتقل إلى مَنْ بعدَه ، وهؤلاء هم الإمامِيَّة ، و يتبرَّأون من الشيخيْن (أبى بكر وعمر) .

ومنهم من يقول إنها تُعيِّنه بالوصف ، وهم الزيدية أتباع زيد بن على بن الحسين ،ولا يتبرأون من الشيخين مع أنه أفضل منهما،ومنهم من ساق الخلافة فى وَلَد فاطمة بالنّص ، ومنهم من ساقها بالاختيار .

و يشترط أن يكون الإمام منهم عالما ، زاهدا ، جوَادا ، شُجاعا، داعيا إلى إمامته ، وهم الزيْديَّة .

ولمـا ناظر الإمامية زيداً ، ورأوه يقول بإمامة الشيخين رفضوه ، فسُمُّوا رافضة .

للانتصار للحق وإعلاء كلمة الله ، وإنما يذمّ الغضبُ للأغراض الذميمة ، وكذا ذمّ الشهوات ليس المرادُ إبطالَها، وإلا كان نقصاً، وإنما المرادُ تصريفُها فيما أبيح . والعصبية كذلك حين تكون على الباطل . فإذا كانت في إقامة أمر الله فمطلوبة، ولو بطلت لبطلت الشرائع ، والملك لم يذمّ منه الغلب بالحق، وقهر الكافة على الدين ، وإنما التغلب بالباطل ، والتصريف طوعَ الشهوات ، وقد قال سليمان : « هَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي »(١) ولما قال عمر لمعاوية : « أَكِسْرَوِيَّةً يامُعاوية ؟ » قال : « يا أميرَ المؤمنين . إنّا في ثغرٍ تجاهَ العدوّ ، وبنا إلى مُباهَاتِهم بزينةِ الحربِ والجهادِ حاجة » فلم يُخَطِّئْهُ لمّا احتجَّ بمقصد من الدين . وليس كسرويةَ فارسَ وباطلَهم .

ولما احتُضِر الرسولُ استخلَف أبا بكر ، وارتضاه الناس ، ولم يجرِ للملك ذِكر ، ثم عهدَ أبو بكر إلى عمر ، فاقتفى أثرَه ، وغلَب الأممَ ، وأُذِن للعرب في انتزاع ما بأيديهم من الملك ، وصارت إلى عثمانَ ، فعليٍّ ، والكلُّ متبرّئون من الملك ، حتى اجتمعت عصبية العرب على الدين ، فزحفوا إلى فارس والروم واستباحوا دنياهم ، فزخرت بحارُ الرَّفهِ لديهم ، حتى كان الفارس يقتسم له ثلاثون ألفاً من الذهب ، وهم مع ذلك على خشونة عيشتهم ؛ عمرُ يرقِّع ثوبَه ، وعليٌّ يقول : غُرِّي غيري !

وأيامَ عثمان اقتنى الصحابةُ الضِّياعَ والأموالَ ، فكان له — يوم قُتِلَ — خمسون ومائةُ ألفِ دينار ، وألفُ ألفِ درهم ، وقيمة ضياعه مائتا ألفِ دينار ،

---

(١) من الآية ٣٥ سورة (ص) .

أخيه الحسين ، ثم إلى ابنه علىٍّ زين العابدين ، ثم إلى ابنه محمدٍ الباقر ، ثم إلى ابنه جعفرٍ الصادق ، ومن هنا افترقوا فِرقتين: فرقة ساقوها لولده إسماعيل بالنص ، وهم الإسماعيلية أو الباطنية ، وفرقة ساقوها لابنه موسى الكاظم وهم الاثنا عشرية .

فالإسماعيلية قالوا إنها انتقلت من إسماعيل إلى ابنه محمدٍ المكتوم ، فابنهِ جعفر ، فابنهِ الحبيب ، فابنهِ المهدى الذى ملك المغرب ، وملك بنوه مصر . ولهم مقالات دعا إليها الحسنُ الصبّاح .

وأما الاثنا عشرية ، فقالوا بموسى الكاظم ، فابنه الرضا الذى عهِد إليه المأمون ، فابنه التقّىّ ، فالهادى فالحسن ، فالمهدىّ المنتظر .

انقلاب الخلافة إلى الملك :

الملك غاية العصبية ، والشرائع والديانات وكل أمر يُحمَل عليه الجمهور لابدّ فيه من العصبية ، فهى ضرورية ، وفى الصحيح : « ما بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إلَّا فى مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ » ، ثم إن الشارع ذمَّ العصبيةَ ، وذم المُلكَ وأهلَه ونعى على أهله الاستمتاعَ والإسرافَ ، وحضَّ على الألفة فى الدين .

وأحوال الدنيا عنده مطيَّة للآخرة ، ومَن فَقَدَ المطيةَ فقدَ الوصولَ ، وليس مُراده فيما ينهَى عنه من أعمال البشر إهماله بالكلية أو اقتلاعَه من أصله ، وتعطيلَ القُوى التى ينشأ عليها ، إنما قصدُه تصريفُها فى أغراض الحق ، فلم يذمّ الغضب بقصد نزعه من الإنسان ، فلو زالت قوة الغضب لفقدَ

الملك ، وبقيت معانى الخلافة . من تحرّى الدين . ثم انقلب الوازع عصبية
وسيفاً ، ثم ذهبت معانيها ولم يبق إلا اسمها ، وصار الأمر ملكاً بحتاً ،
واستعمل القهر فى الشهوات ، وكان اسم الخلافة باقياً لبقية العرب . ثم ذهب
رسم الخلافة بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم ، وبقى الأمر ملكاً [illegible]
ملوك العجم بالمشرق ، يدينون بطاعة الخليفة تبرّكاً ، والملك بألقابه لهم .

من هذا يتبين أن الخلافة وُجدت بدون الملك أوّلاً ، ثم التبست معانيهما
ثم انفرد الملك . حيث افترقت عصبيته من عصبية الخلافة .

معنى البَيْعة :

البيعة هى العهد على الطاعة ، كأن المبايعَ يعاهد أميرَه أن يسلّم له النظر
فى أمور المسلمين ، ويطيعَه فيما يكلّفه ، وإذا بايعوا الأميرَ جعلوا أيديهم فى يده،
فأشبه فعلَ البائع ، وكان الخلفاء يستحلفون على العهد ، والإكراهُ فيها أغلب،
أما البيْعة المشهورة لهذا العهد ، فهى تحية الملوك ، من تقبيل الأرض ، أو اليد ،
أو الذيل ، وهى بيعة مجازاً لأن الخضوع من لوازم الطاعة .

ولاية العهـــد :

حقيقة الإمامة النظر فى مصالح الأمة لدينهم ودنياهم ، وتبع ذلك أن ينظر
الإمام من يتولى أمورهم بعده ، وإجماعُ الأمة على جوازِه وانعقادِه ، إذ وقع
بعهد أبى بكر إلى عمرَ ، وعهدِ عمر إلى السّتّة ، ففوّضوا عبد الرحمن بن عوف

وخلّف إبلا وخيلا ، وكانت غلّة طلحةَ من العراق ألفَ دينـار كلَّ يوم ، ومن السَّراة أكثر ، وبَنى داره بالـكوفة ، وشـيَّد دارَه بالمدينـة بالجص والآجُرّ والسَّاج ، ولم يكن ذلك مَنْعِيًّا عليهم ، إذ هى أموال حلال ، فلم يكن ذلك بقادح فيهم ، وإن كان الاستكثار مذموماً فإنما يرجع إلى الإسراف ، والاستكثار كان لهم عوناً على الحق ، فلما تدرَّجت البداوة إلى نهايتها ، وجاء الملك والتغلب ، كان حكمهم حـكم الرّفَه ، فلم يصرفوه فى باطل .

ولما وقعت فتنة علىٍّ ومعاوية بمقتضى العصبية ، كان طريقهم الحقَّ والاجتهاد ، لا لإيثار باطل أو حقد ، وإنما اختلف اجتهادُهم ، وإن كان المصيب عليا ، فمعاوية إنما قصد الحق وأخطأه ، ثم اقتضت طبيعةُ الملك الانفرادَ بالمجد لمعاوية ، وهو أمر ساقته العصبية ، واستشعرته بنو أُميّة ، فاعصَوْصَبوا ، واستماتوا دونَه ، وعَهِد معاويةُ ليزيدَ ؛ خوفَ افتراقِ الكلمة ، ثم تدرّج الأمرُ فى ولد عبد الملك ، وتوسّطهم عمرُ بن عبد العزيز ، فنزع إلى طريقة الخلفاء والصحابة جهدَه ، ثم جاء خَلَفُهم ، واستعملوا طبيعة الملك فى أغراضهم الدنيوية ، فنعى النـاسُ عليهم ، وأدالوا بالدعوة العباسية منهم ، ووليَ رجالُها ، فصرّفوا الملك فى الحق ، حتى جاء بنو الرشيد ، ثم أفضى الأمرُ إلى بَنِيهم ، فأعطوُا الترفَ حقَّه ، ونبذوا الدِّين ، فتأذّن اللهُ بحربهم ، وانتزاع الأمر من أيدى العرب جملة ، وأمكن سواهم منه .

وقد تبيّن أن الأمْرَ كان أوّله خـلافةً ، الوازع فيهـا الدين ، فصار إلى

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]

[illegible] (1) [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

(1) [illegible]

ڡوحد المساڡين مسڡڡين على عثمانَ ، ڡآ ثره بالسعه .

ولا يُتهم الإمامُ وإن عهِد لأ به وابه ، لاسيّما إذا كاں هناك داعيه ، من إىىار مصلحه ، أو توقُّع مڡسده ، كعهد معاويه ليزيد ، لمصلحه احماع الناس باتڡاق أهل الحل والعقد من بنى أُميّه ، وهم عصابه قريس وأهل الملّة والغلب ڡاَثره دون من يظن أنه أوْلى ، وعدَل إلى المڡضول حرصاً على الاتڡاق ، ولا يُظَنّ بمعاويهَ غيرُ هذا ، ڡعدالته وصحبه[1] مانعه من سوى ذلك ، وحضور أكابر الصحابه وسكوتهم دليل انتڡاء الريْب[2] ، ثم إنه وقع ذلك بعد معاويه من عبد الملك ، وسليمانَ ، والسڡاح ، والمنصور ، والمهدى ، والرشيد ، ممن عرف عدالتهم ، ولا يعابُ خروجهم عن الخلڡاء الأربعه ، حيث كان الوازع دينيا . أما أن يكون القصد بالعهد حفْظَ التراث على الأبناء ڡليس من المقاصد الدينيه .

وهنا أمور تدعو الضروره إلى بيان الحق ڡيها .

الأول : ڡِسقُ يزيد ظهر أيامَ خلاڡته ، ولا يُظنّ بمعاويه أنه علم ذلك ، ڡإنه كان يعدِله ڡى سماع الغناء ، ولما حدث الڡسقُ ڡى يزيدَ اختلڡ الصحابه ، ڡمنهم من رأى الخروج عليه كما ڡعل الحسين وابن الزبير ، ومنهم من أباه لإثارهِ الڡتنةِ والقتل ، لأن شوكه يزيد هى عصابه بنى أميه .

---

(١) صحبته للرسول
(٢) سوء النيه

القدرةَ بأهليّته وشوكته ، وقد غلط : لأن عصبيةَ قريش في بني عبد مناف ، وعصبيةٌ عبد مناف في بني أمية ، وإنما نسي ذلك أولَ الإسلام ، حتى إذا انقطع أمرُ النبوة ، عادت العصبية ، فغلَطُ الحسن عن اجتهاد ، ولكن قتله لم يكن عن اجتهاد ليزيدَ ، بل من فَعلاته المؤكّدة بفسقه ، والحسين فيها شهيد .

وأما ابنُ الزبير فغلطه في أمر الشوكة أعظم ، لأن بني أسد لا يقاومون بني أمية ، وعبدُ الملك أعظم الناس عدالة ، والكل مجتهدون ، وهو شهيد باعتبار قصده وتحريه الحق .

وظنوا بعلىٍّ هوادةً عن قاتليه ، فرأى علىٌّ أن بيعته لزمت من تأخر باجتماع من اجتمع بالمدينة ، وأرجأ المطالبة بدم عثمان إلى اجتماع الكلمة ، ورأى الآخرون أن بيعته لم تنعقد ؛ لافتراق أهل الحل والعقد ، وأن المسلمين فوضى ، فهم يطالبون أولًا بدم عثمان ، ثم يجتمعون على إمام .

وإن نظرتَ بإنصاف ، علمتَ أنها فِتنة ، ابتُلىَ بها المسلمون ، وقد أذهب الله عدوهم ، وملّكهم أرضَهم ، وأكثرُ العرب الذين نزلوا الأمصار جُفاة(١) ، لم يستكثروا من صحبة النبي ، ولا هَذبتهم سيرتُه ، مع مافى الجاهلية من الجفاء والعصبية والتفاخُر ، وإذا بهم فى ملكة المهاجرين والأنصار السابقين إلى الإيمان ، فاستنكفوا ؛ لما يرون لأنفسهم من التقدم بأنسابهم ، وكثرتهم ، ومصادمة فارسَ والروم ، فصاروا إلى الغضّ من قريش ، والأنفةِ عليهم ، والطعن فيهم بالعجز ، وأبلغوه عثمان ، فبعث إلى الأمصار من يكشف له الخبر .. بعث ابنَ عمر ، ومحمد بنَ مسلمة ، وأسامة بن زيد ، وأمثالَهم ، فلم يُنكروا على الأمراء شيئا ، ولكن الطعنَ لم ينقطع ، وجاءوا إلى المدينة يسألون عزل العمال ، فعزَل عثمانُ البعض ، فلم تنقطع بذلك ألسنتُهم ، ثم تجمع قوم من الغوغاء ، وجاءوا المدينة ، وحاصروه وقتلوه ، وانفتح باب الفتنة ، فالكلٍّ من هؤلاء عُذر ، وكلهم مهتمون بالدين ، نظروا ، واجتهدوا .

وأما الحسين ، فلما ظهر فِسق يزيدَ ، بعث شيعةُ الكوفة إليه أن يأتيهم ، فيقوموا بالأمر ، فرأى الخروجَ على يزيد ؛ لفسقه ، وظن فى نفسه

(١) من سكان البادية .

وكان [illegible] الا [illegible] [illegible] واحدة

[illegible]

[illegible] أهل [illegible] الناس [illegible]

والمدرس عالم العلم في المساجد العظام [illegible] العامة [illegible] من القضاة [illegible] إحدى أو ردّ .

القضاء .

هو [illegible] في الخصومات [illegible] الاحكام [illegible] وكان الحاكم [illegible] [2] بالمدينة .

---

(١) [illegible]

(٢) [illegible] ٣٢ .

الخطط الدينية الخلافية

١

الخلافة نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا به، فهو متصرِّف في الدين بمقتضى التكاليف [illegible] وفي السياسة بمقتضى رعاية مصالحهم في العمران. وسلطة الإمام كافة في هذه المصالح. وإنما تكون أكمل الأحكام الشرعية، [illegible] إسلاميا. وقد [illegible] في عمر [illegible]. ولها مراتب [illegible]. ووظائف [illegible] تعيين وتوزيع على رجال الدولة.

أما المنصب الخلافي فمصرفه الديني ينحصر [illegible] للخلفاء الإسلاميين: فالخطط الدينية من الصلاة، والفتيا، والقضاء، والجهاد، والحسبة مُندرجة تحتَ الخلافة.

إمامة الصلاة:

هي أرفع الخطط، يشهد لذلك استدلال الصحابة باستخلاف أبي بكر في الصلاة، على استخلافه في السياسة.

والمساجد صنفان: عظيمة معدة للصلوات المشهودة، وأمرها إلى الخليفة، ينصِب لها الإمامَ للصلوات الخمس، والجمعة، والعيدين. ومختصة بقومٍ أو محلة، وأمرها إلى الجيران.

ابتداءً عن الجريمة، ثم انقسمت هذه الوظيفة قسمين:

التهمة في الجرائم، وإقامة حدودها. ونصب لذلك حاكم بموجب السياسة دون الأحكام الشرعية، ويسمى تارة باسم الوالي وتارة باسم الشرطة، وبقي قسم التعزير والحدود، فجمع ذلك للقاضي.

وخرجت هذه الوظيفة عن عصبية الدولة لما صار الأمر ملكاً، فصاروا يقلدونها من تأهل لها، وأولئك المتأهلون انغمسوا بالحضارة في ترفهم ودعتهم، وصارت هذه الخطط في الدول الملوكية مختصة بهذا الصنف، وصار اعتبارهم من أجل قيامها بالملة، وأخذها بأحكام الشريعة؛ لأنهم الحاملون للأحكام، ولم يكن إيثارهم إكراماً لذواتهم، وإنما لما يتجمل بمكانهم في مجالس الملك لتعظيم الرتب الشرعية، ولم يكن لهم من الحل والعقد شيء، لأن الملك يجري على طبيعة العمران، وهي تقتضي ألا يكون لهم شيء من الشورى، لأنها لا تكون إلا لصاحب عصبية.

العدالة:

هي القيام – عن إذن القاضي – بالشهادة بين الناس، تحملاً عند الإشهاد وأداءً عند التنازع، وكتباً في السجلات، تحفظ بها حقوق الناس وأملاكهم وديونهم، وشرطها الاتصاف بالعدالة، والبراءة من التجريح[1]، والقيام

---

(١) المقدمة ص [illegible]

وشُرَيْحا [١] بالبصرة ، والأشعرى [٢] بالكوفة ، وكتب لهم كتابا مشهورا تدور عليه أحكام القضاء ، وإنما كانوا يُوَلُّون القضاء لغيرهم ؛ لقيامهم بالسياسة والجهاد ، وكانوا يقلدونه أهل عصبيتهم ، وكان للقاضى فى عصر الخلفاء الفصلُ بين الخصوم ، ثم دُفع لهم أمور أخرى ، واستقر القضاء على أن يَجمع مع الفصل بين الخصوم استيفاء الحقوق ، بالنظر فى أموال المحجور عليهم ، ووصايا المسلمين ، وأوقافهم ، ومصالح الطرقات والأبنية ، وأن يجعلوا للقضاء النظرَ فى المظالم ، وهى وظيفة ممتزِجة من سطوة السُّلطة ونَصَفَة القضاء ، وربَّما جعلوا للقاضى قيادةَ الجهاد .

الشُّرطة :

هى وظيفةٌ دينية من الخطط الخلافيــة ، يختص صاحبها بالاتهــام فى الحــكم ، والعقوباتِ الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ، ويقيم الحدود [٣] الثابتة ، ويَحــكُم فى القَوَد [٤] والقِصــاص [٥] ، ويُقيم التَّعْزِير [٦] ، والتأديب لمن

---

(١) شريح بن الحارث بن قيس بن جهم الكندى ، من أشهر القضاة الفقهاء ، ولى القضاء بالكوفة منذ عهد عمر حتى عهد الحجاج ، وهو محدث وشاعر توفى سنة ٧٨ هـ

(٢) عبد الله بن قيس بن سليم من بنى الأشعر من قحطان وهو صحابى ، كان أحد الحكمين بين على ومعاوية ، وكان واليا للرسول والراشدين على بعض الأقطار ، وكان راويا للحديث ، توفى بالكوفة سنة ٤٤ هـ

(٣) العقوبات التى حددها الشرع للجرائم كقطع اليد فى السرقة مثلا

(٤) القود : قتل القاتل

(٥) القصاص : عقوبة المعتدى عقوبة مماثلة لعدوانه كقطع أذنه إذا قطع أذن غيره

(٦) التعزير : عقوبة غير محددة فى الشرع ، يقدرها القاضى لتأديب المعتدى حسب اجتهاده ؛ بالضرب أو الحبس أو التأنيب

السكة :

هي النظر في النقود ، وحفظها من الغش ، ووضع علامة السلطان عليها بعد أن تقدَّر ، لتكون علامة على جودتها ، ولتكون إماما وعيارا للناس يعتبرون به نقودهم ، فإن نقصت عنه كانت زيفا ، وهي تندرج تحت الخلافة ، وكانت في ولاية القاضي ثم أفردت .

لقب أمير المؤمنين :

لما بويع أبو بكر سمَّوه خليفة رسول الله . فلما بويع عمر دعوه خليفةَ خليفةِ رسول الله . واستثقلوا اللقب لكثرته وطول إضافته ، وأنه يتزايد فيما بعد ، فكانوا يعدلون إلى سواه ، وكانوا يسمون قواد البعوث باسم الأمير ، وكان الجاهلية يدعون النبي أمير مكة ، والصحابة يدعون سعد بن أبي وقاص أمير المؤمنين ، لإمارته على جيش القادسية . واتفق أن دعا بعض الصحابة عمر بأمير المؤمنين ، فاستحسنه الناس ، ودعوه به ، وتوارثه الخلفاء . وخص الشيعة عليًّا باسم الإمام ، تعريضا بأنه أحق من أبي بكر ، ويسمون بالإمام كلَّ من يدعون له في الخلافة ، حتى إذا استولى على الدولة يسمونه أمير المؤمنين . وكذلك الرافضة والأدارسة كانوا يسمون أئمتهم بلقب الإمام . وتوارث الخلفاء لقب أمير المؤمنين ، وزاد في عنفوان الدولة لقب آخر للخلفاء ، يتميز به بعضهم عن بعض ، فتلقبوا بالسفاح ، والمنصور ، والرشيد ، والمعتصم .

بالسجلات والعقود ، من جهة انتظام فصولها ، وإحكام عقودها من نقضها .

وعلى القاضي تصفح أحوال العدول وسيرتهم ، رعاية للعدالة ، وحفظاً لحقوق الناس ، وإذا تعين هؤلاء عن العدالة بسبب اتساع الأمصار ، ولهم في الأمصار دكاكين ومصاطب ، فيتعاهدهم أصحاب المعاملات للإشهاد ، وتقييده بالكتاب .

الحسبة :

وظيفة دينية ، من باب الأمر بالمعروف ، يعيّن لها من يكون أهلا ، فيتخذ الأعوانَ ، ويبحث عن المنكرات ، ويعزِّر ، ويؤدِّب ، ويحمل الناس على المصالح ، كمنع مضايقة الطرقات ، والحمّالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل ، والحكم على المباني المتداعية [1] بهدمها ، والضرب على أيدى المعلمين فى ضرب الصبيان .

ولا يتوقف حكمه على تنازعٍ واستعداء [2] ، بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه ، وليس له إمضاء الحكم فى الدعاوى ، بل فيما يتعلق بالغِشّ ، والتدليس ، والمكاييل والموازين ، وحمل المماطلين على الإنصاف ، وأمثال ذلك مما ليس فيه بينة ولا إنفاذ حكم ، فوَضْعُها خادم للقضاء ، وكانت داخلة فى ولاية القاضى ، يولِّى فيها باختياره ، ولما انفرد السلطان عن الخلافة اندرجت فى وظائف الملك .

(١) الآيلة للسقوط .
(٢) شكوى

ولأمر غير ديني، ولذلك بقي بنو إسرائيل بعد موسى ويوشع لا يهتمون بأمر الملك، وإنما همهم إقامة دينهم فقط، والقائم به يسمى «الكوهن» كأنه خليفة موسى، يقيم الصلاة والقربات. ويشترطون أن يكون من ذرية هارون، ثم اختاروا لإقامة السياسة سبعين شيخا. والكوهن أعلى منهم رتبة في الدين، وأبعد عن شغب الحكام، إلى أن تمحضت الشوكة للملك. فغلبوا الكنعانيين على بيت المقدس وما جاوره، فحاربهم أمم الفلسطين والكنعانيين، والأرمن، وأردن، وعمان، ومأرب، ولم تكن لهم صولة الملك، فطلبوا أن يأذن لهم الله في تمليك رجل، فولى عليهم طالوت، وغلب الأمم، وقتل جالوت ملك الفلسطين. ثم ملك بعده داود، ثم افترق الأسباط [1] بعد سليمان دولتين، إحداهما بالموصل للأسباط العشرة، والأخرى بالقدس ليهوذا وبنيامين، ثم غلبهم بختنصر ملك بابل، وخرب مسجدهم، وأحرق توراتهم، وأمات دينهم. ونقلهم إلى أصبهان وبلاد العراق، حتى ردهم بعض ملوك الفرس، فبنوا المسجد، وأقاموا دينهم على الرسم الأول للكهنة فقط، والملك للفرس، ثم غلبهم الروم، وخربوا بيت المقدس، فلم يقم لهم بعدها ملك، وبقوا في مسكنة، وبقي بينهم دين الكوهن.

البابا والبطرك والأسقف والقسيس :

جاء المسيح، ونسخ بعض أحكام التوراة، واجتمع عليه الحواريون [٣]،

(١) الأسباط : أولاد يعقوب ومن تناسل منهم.
(٢) أنصار المسيح

فأما ملوك المشرق من العجم، فكان الخلفاء يخصونهم بألقاب تشريفية، مثل شرف الدولة ، وعضد الدولة ، ونظام الملك ، ونزع المتأخرون إلى انتحال ألقاب مضافة إلى الدين ، مُشعرة بالخروج عن الولاء مثل صلاح الدين ، وأسد الدين .

أما ملوك الطوائف بالأندلس ، فاقتسموا ألقاب الخلافة ، كالناصر والمنصور، وأما صنهاجة فاقتصروا على ألقاب العُبَيْديين مثل نصير الدولة ، ومُعِزّ الدولة ، ثم اقتصروا على اسم السلطان ، ولما قام ابن تاشفين دُعِيَ أمير المؤمنين ، والمهديُّ بعده سُمِّي أتباعُه الموحِّدين ، وسُمِّي هو الإمام ، ثم انتحل وليُّ عهده عبدُ المؤمن لقبَ أمير المؤمنين .

ألقاب رجال الدين فى غير الملة:

الملة لابد لها من قائم عند غيبة النبي ، والنوع الإنساني لابد لهم من شخص يحملهم على مصالحهم ، ويَزَعهم بالقهر ، هو الملك .

ولما كان الجهاد فى الإسلام مشروعاً لحمل الكافة على دين الإسلام ، اتحدت فيه الخلافة والملك، لتوجه الشوكة من القائمين بالملة إلى الخلافة والملك معاً .

الكوهن:

أما ما سوى الملة الإسلامية فلم تكن الدعوة فيها عامة ، ولا الجهاد مشروعاً، فصار القائم بالدين لا يَعنيه شيء من الملك ، وإنما وقع الملك لبعضهم عرضا ،

ثم قدموا حنانيا، وتسمى بالبطرك، وجعل معه اثنى عشر قسًّا، إذا مات يكون واحد منهم مكانه، ويختار واحدًا من المؤمنين مكان الثانى عشر، فكان أمر البطارك النسوس، ثم وقع الاختلاف فى ذلك، واختصموا أيام مستخدمين، واتفق نيف وثلثمائة عشر على رأى كسوه وسمّوه الأمانة شيئًا أن البطرك لا يرجع تعيينه إلى الأقِسَّة، وإنما إلى اختيار أئمة المؤمنين، وكان الأساقفة يدعون البطرك بالأب، فاشتبه الاسم، فأرادوا أن يميزوا البطرك عن الأسقف، فدعوه البَابا، ومعناه أبو الآباء، وظهر هذا الاسم بمصر، ثم نقلوه إلى صاحب الكرسىّ الأعظم برومة. ثم اختلف النصارى، إلى أن استقرت فى ثلاث طوائف: المَلَكية[1]، واليَعْقوبيّة[2]، والنَّسْطوريّة[3]، واختصت كل طائفة ببَطرِيَرْك، فالبابا برومة للمَلَكية، وبطرك مصر لليعقوبية، والحبشة يدينون بدينهم، ولبطرك مصر أساقفة هناك، واختُص اسم البابا ببطرك رومة. وهو يحض الفرنجة على الانقياد لملك واحد يحتكمون إليه من اختلاف الكلمة، ويختاره من أهل البيت، لتكون يده على جميعهم، واسمه الإنبرَذور (الإمبراطور)، وهو يضع التاج على رأسه للتبرك.

---

(١) سميت بذلك لأن مذهبها هو المذهب الرسمى الذى أخذ به ملوك الروم وناصروه.
(٢) أتباع يعقوب البرادعى القائل بأن طبيعة المسيح واحدة وهى الطبيعة الإلهية.
(٣) أتباع نسطورس الذى ذهب إلى أن المسيح يجمع بين الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية معًا.

فبعث منهم رسلا إلى الآفاق أيام أوغسطس أوّل القياصرة ، وهيردوس ملك اليهود ، فحسده اليهود ، وكذّبوه ، وكاتب هيردوس ملكهم ملك القياصرة يغريه به ، فأذن له فى قتله ، وافترق الحواريون ، ودخل أكثرهم بلاد الروم ، داعين للنصرانية ، وكان بطرس كبيرهم ، فنزل برومة ، ثم كتبوا الإنجيل فى نسخ أربع ، إنجيل متّى فى بيت المقدس بالعبرانية ، ونقله يوحنّا باللّطينى (اللاتينى) وإنجيل لوقا باللطينى ، وإنجيل يوحنا باليونانية ، وإنجيل بطرس باللطينى ، ونسبه إلى تلميذه مرقاس ، واختلفت هذه النسخ وليست كلّها وحيا ، بل مشوبة بكلام عيسى والحواريين ، وكلها مواعظ وقصص ، والأحكام فيها قليلة .

واجتمع الحواريون الرسل برومة ، ووضعوا قوانين الملّة ، وصيّروها بيد إقْلِمَنْطِس تلميذ بطرس ، وفيها الكتب التى يجب العمل بها .

واختلف القياصرة فى الأخذ بهذه الشريعة ، أو تركها والتسلط على أهلها بالقتل والبغى ، إلى أن جاء قسْطَنْطِين وأخذَ بها .

وصاحب هذا الدين يسمى البَطْرَك ، وهو رئيس الملّة ، وخليفة المسيح ، يبعث نوابه إلى أمم النصرانية ، ويسمى نائبه الأسقف ، والذى يقيم الصلوات هو القسيس ، والمنقطع للعبادة هو الراهب . وكان بطرس رأس الحواريين وكبير التلاميذ برومة يقيم بها دين النصرانية إلى أن قتله نيرون خامس القياصرة ، وقام بخلافته أرْنوس ، وكان مرقاس الإنجيلى بالإسكندرية ومصر والمغرب .

الوزارة :

هى أمّ الخطط السلطانية والرتب الملوكية . واسمها يدل على الإعانة . وأحوال السلطان لاتعدو أربعة :

حماية الكافة ، بالنظر فى الجند والسلاح ، والحروب — وصاحبها هو الوزير .

المخاطبات لمن بعد عنه ، وتنفيذ الأوامر فيمن هو محجوب عنه — وصاحبها هو الكاتب

جباية المال وإنفاقه ، وضبط ذلك لئلا يكون بمَضْيَعة — وصاحبها هو صاحب المال والجباية .

مدافعة ذوى الحاجات أن يزدحموا عليه فيشغلوه — وهذا راجع لصاحب الباب .

وأرفع هذه الرتب ما كانت الإعانة فيه عامة فيما تحت يد السلطان ، إذ يقتضى ذلك مباشرته ومشاركته . أما ما كان خاصًّا فدونها ، كقيادة ثغر ، أو حِسبة الطعام ، فصاحبها تبع لأهل النظر العام .

وقد كان الرسول يشاوِر أصحابَه فى مُهِمّاته ، ويخص أبا بكر بخصوصيات ، حتى كانوا يسمونه وزيرَه ، وكذلك عمرُ مع أبى بكر ، وعثمانُ مع عمر ، ولم يُعرَف لفظُ الوزير بين المسلمين ، لذهاب رتبة الملك بسذاجة الإسلام .

مراتب الملك والسلطان

السلطان فى نفسه ضعيف ، يحمل أمراً ثقيلا ، فلابد له من الاستعانة بأبناء جنسه ، وهو محتاج إلى حمايتهم من عدوهم بالمدافعة عنهم ، وإلى كف عدوان بعضهم على بعض ، وإصلاح سابلتهم ، بالأحكام الوازعة ، وتفقّد المعايش ، والسكة ، وإلى سياستهم بالانقياد له ، والرضا بمقاصده ، وانفراده بالمجد ، فيتحمل معاناة القلوب .

والاستعانة بأهل النسب أو التربية أو الاصطناع أكمل ، وهو يستعين بغيره فى ذلك إما بسيفه أو قلمه أو رأيه أو معارفه ، أو بحجابه عن الناس ، أن يزدحموا عليه فيشغلوه عن النظر فى مهماتهم ، أو يدفع النظر فى الملك كله إلى من يستعين به ، ويعول على كفايته فى ذلك واضطلاعه ، وقد توجد المعونة فى رجل واحد ، وقد تفترق فى أشخاص ،وقد يتفرع كل إلى فُروع ،كالقلم،يتفرع إلى قلم الرسائل ، وقلم الصُّكوك والإقطاعات ، وقلم المحاسَبات . والسيفُ يتفرع إلى الحرب ، والشرطة ، وولاية الثغور .

والوظائف السلطانية مندرجة تحت الخلافة ، لاشتمالها على الدين والدنيا .

حـ [illegible] فهم انتحلوا ألقاب الخلافة ، واستنكفوا من مشاركة الوزراء اللقب ، فتسموا بالإمارة والسلطان . وكان المستبد على الدولة يسمى أمير الأمراء أو السلطان ، إلى ما يحليه به الخليفة من ألقابه ، وتركوا اسم الوزارة لمن يتولاها للخليفة في خاصته .

وفسد اللسان ، وصارت الكتابة صناعة ، فامتهنت ، وترفع عنها الوزراء ، فصارت خادمة للوزير ، واختص اسم الأمير بصاحب الحروب والجند ، ويده عالية على الرتب ، وأمره نافذ .

ثم جاء الترك بمصر وقد ابتذلت الوزارة فرفعوا من يقوم بها للخليفة المحجور ، ونظره متعقب بنظر الأمير ، [illegible] ، وصار صاحب الأحكام [illegible] ، والوزير لجباية .

وأما بنو أمية بالأندلس فأبقوا اسم الوزير ، ثم قسموا خطته ، فجعلوا للحسبان وزيراً ، وللترسيل وزيراً ، وللمتظلمين وزيراً ، وللثغور وزيراً ، وجعل لهم بيت يجلسون فيه ، وينفذون أمر السلطان ، وبينهم وبين الخليفة واحد ارتفع عنهم ، خصوه باسم الحاجب ، فارتفعت رتبة الحاجب على سائر الرتب .

وجاءت الشيعة بإفريقية ، فأغفلوا هذه الخطط أولا ، ثم صاروا إلى تقليدها .

والموحدون كذلك ، إلا أنهم اختصوا الوزير بمن يحجب السلطان ، ويقف بالوفود عند الآداب التي تلزم بين يديه .

وأما الجباية والإنفاق والحسبان فلم تكن رتبة ، لأنهم أميون ، يستعملون في الحساب أهلَ الكتاب أو مواليَ العجم .

وكذلك المخاطبات ، وتنفيذ الأمور ، فلم تكن الكتابة صناعة ، أما الخطّ فالخليفة يسْتَنيب في كتابته .

وأما مدافعة ذوى الحاجات عن أبوابهم فمحظورة بالشريعة .

فلما انقلبت الخلافة إلى الملك ، كان أوّلَ شيء بُدِئ به سَدّ الباب دون الجمهور ، يخشَوْن اغتيالَ الخوارج ، وازدحامَ الناس ، فاتخذوا الحاجب . ثم المشاورَ في أمور القبائل واستئلافهم ، وسمى الوزير ، واتُّخِذ للسجلات كاتب مخصوص ، حياطةً على أسرار السلطان أن تشتهر ، فتفسُد سياسته .

والوزارة أرفعُ رتبهم في بني أمية ؛ للوزير التدبير ، والمفاوضات ، والحمايات والمطالبات ، والجند ، والعطاء .

وفى بنى العباس عظم شأنُ الوزير ، وصارت إليه النيابة فى الحل والعقد ، والنظر فى الحسبان ، ثم فى القلم والترسيل لِصَوْن أسرار السلطان ، ولحفظ البلاغة لَما فسد اللسان ، وجُعِل الخاتمُ لسجلات ودُفِع إليه ، فصار اسم الوزير جامعاً للسيف والقلم وسائر المعاونة ، حتى دُعِي جعفرُ بن يحيى بالسلطان . ولم يخرج عنه إلا الحجابة ، لاستنكافه منها .

ثم انقسمت إلى وزارة تنفيذ حالما يكون السلطان قائماً على نفسه ، ووزارة تفويض حالما يكون الوزيرُ مستبداً عليه . ثم صار الأمر لملوك العجم لما تعطلت

فالوزير ، والقلم والحسبان والرسائل لمن يحسنها ، وحجب السلطان شخص سمّوه المِزْوار ، ومعناه المقدّم على المتصرفين فى تنفيذ الأوامر والعقوبات ؛ وحفظ المعتقَلين ، فكأنها وزارة صغرى .

وأما بالأندلس فالمخصوص بالمالية الوكيل ، والوزير قد يُضَمُّ له الترسيل ؛ والسلطان يضع خَطّه على السجلات ؛ إذ لبس لهم خُطّة العلامة .

وأما الترك بمصر فالحاجب عندهم يُنَفِّذ الأحكام بين الناس فى المدينة ، وهو تحت النائب ، أما النائب فله التولية والعزل ، وتُنَفَّذ أوامره كما تنفذ المراسم السلطانية ، والوزير هو صاحب الجباية والإنفاقات والتولية والعزل للعمال المباشرين ، ومن عوائدهم أن يكون من القِبْط ، لاختصاصهم بذلك فى مصر منذ عصور .

ص
٢٥٣

الحجاب فى الدولة :

إذا كانت الدولة فى أولها بدوية ، فصاحبها على حال من البداوة والقرب من الناس ، فإذا رسخ عزه ، وصار إلى الانفراد بالمجد ، واحتاج إلى الانفراد للحديث مع أوليائه فى خواص شئونه ، فإنه يتخذ حاجبا ببابه .

وإذا استفحل الملك استحال خُلُق صاحب الدولة إلى الملك ، وهو خلق يحتاج مُباشره إلى مُداراته ، وربما جَهِله بعضُ من يُباشر الملوك ، فوقع فيما لا يُرْضيهم ، فيتعرَّض لِنَقْمَتِهِمْ ، فانفرد بمعرفة هذه الآداب

وأما الترك بالمشرق فيسمون الذى يقف بالناس على الآداب الدُّوَيْدَار . ويُضيفون إليه كاتب السر وأصحاب البريد .

الحجابة :

كانت فى الأمويين والعباسيين لمن يحجُب السلطان ، وهى مرءوسة للوزير ، وبمصر مرءوسة للنائب ، وبالأندلس لمن يحجب السلطان ، ويكون واسطة بينه وبين الوزراء ، ثم جاء الاستبداد ، واختُص بها المستبدّ لِشَرفها .

وملوك الطوائف كانوا يدلّون بها على حجابة السلطان والسيف والقلم .

والموحِّدون يخصون بها الكاتب المتصرف للسلطان فى خاص أمره، وله النظر فى الحساب والمالية .

وبنو أبى حفص بإفريقية كانت الرياسة فى دولتهم لوزير الرأى ، وله الولايات والعزل والحروب ، ويسمى شيخ الموحدين ، وصاحب الأشغال ينظر فى الدَّخل والخَرْج ، ويَستخلص الأموال ، ويعاقِب على التفريط ، ويكون من الموحدين، واختُص بالقلم مَنْ يُجيد التَّرسُّل أو يؤتمن على الأسرار ، وللسلطان قَهْرمان خاص بداره للرزق والعطاء والكسوة والنفقة والذخيرة هو الحاجب ، وهو واسطة بين الناس وبين أهل الرتب ، ثم جُمع له السيف والحرب، ثم الرأى والمشورة ، فصارت رتبته أرفعَ الرتب .

وفى زناتة بالمغرب لاأثر لاسم الحاجب ، أما رياسة الحرب والعساكر

وأما ديوان الخراج والجبايات فبقي في العراق بالفارسية ، وفي الشام بالرومية ، ولما جاء عبدالملك أمر سليمانَ بن سعد والىَ الأردنّ أن ينقل ديوان الشام إلى العربية ، وأمر الحجاجُ كاتبَه صالحَ بن عبدالرحمن أن ينقل ديوان العراق إلى العربية .

وهذه الوظيفة جزء عظيم من الملك ، وهى ثالثة أركان الملك ، إذ لابد له من الجند ، والمال ، والمخاطبة .

وكذلك كان أمرها في بنى أمية بالأندلس ، والطوائف من بعدهم .

أما في دولة الموحدين فصاحبها من الموحدين ، يستقل بالنظر في استخراج الأموال وجمعها وضبطها ، وتعقب الولاة والعمال ، ثم تنفيذها على قدرها ومواقيتها ، ويعرف بصاحب الأشغال .

وفي الدولة الحفْصيّة استقل بها أهل الحسبان والكتابة ، ثم صار صاحبها مرءوسا للحاجب .

وفي بنى مَرِين كان حسبان العطاء والخراج لواحد يصحّح الحسبانات ، ويُرجَع إلى ديوانه ، ونظره معقَّب بالسلطان أو الوزير ، وخطُّه معتبر في صحة الخراج والعطاء .

وأما عند الترك فمتنوعة ، وصاحب ديوان العطاء يعرف بناظر الجيش ، وصاحبُ المال ، الناظرُ في ديوان الجباية العامة للدولة ، معروف باسم الوزير ، وهو أعلى الناظرين في الأموال ، وهو رديفٌ لمولى من موالى السلطان وأهلِ

الخواصُّ ، وحَجَبوا غيرَ الخاصة ، حِفظا على أنفسهم وعلى الناس من سُخط الملوك ، فصار لهم حِجَابٌ يُفضِى إليهم منه خواصُّهم من الأولياء ويُحجب العامةُ ، وحجابٌ يُفضى إلى مجالس الأولياء ويُحجَب من سواهم من الخاصة أو العامة .

والأولُ يكون أوّلَ الدولة ، كما حدث لمعاوية ، ولما جاء بنو العباس ، وجَدّ الترف ، دعا إلى الحجاب الثانى ، ثم حدث فى الدولة حجابٌ ثالث هو الحجر على صاحب الدولة ، وحجبُه عن بطانة أبيه وخواصِّ أوليائه ، وذلك مايفعله الحاجب المستبد على صاحب الدولة ، ليحجب عنه الأولياء والنصحاء، وهذا لايقع إلا فى أواخر الدولة ، ويكون دليلا على هرمها .

ديوان الأعمال والجبايات : ص ٢١

وظيفة ضرورية ، لحفظ الدّخل والخرج ، وإحصاء العساكر ، وتقدير أرزاقهم ، وصرف أُعطياتهم ، والرجوع للقوانين التى ترتبها الدولة ، فى كتاب مبنى على الحساب ، يسمى الديوان .

وهذه الوظيفة تحدث عند تمكُّن الغلب والنظر فى أعطاف الملك والتمهيد له ، وأول من وضع الديوان فى الدولة الإسلامية عمر ، بسبب مالٍ أتَى من البحرين تعبوا فى قَسْمه ، فأشار خالد بن الوليد بالديوان ، فقبِل عمر ، وأمر عقيلَ بن أبى طالب ، ومخرمةَ بن نوفل ، وجُبَيْرَ بن مُطعم ، فكتبوا ديوان العساكر على ترتيب الأنساب فى المُحرّم سنة عشرين .

عِشرة الملوك من الآداب والفضائل ، ومايُضطر إليه فى الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها .

وقد تُسنَد إلى أرباب السيوف لما يقتضيه طبع الدولة من البعد عن معاناة العلوم لسذاجة العصبية ، فيختص السلطان عصبيته بسائر رتبه ، فيقلّد المالَ والسيفَ والكتابةَ منهم ، فأما السيف فيَستغنى عن العلم ، وأما المال والكتابة فتُضطر للبلاغة والحسبة ، فيختارون من هذه الطبقات مادعت إليه الضرورة ، إلا أنه لابد من يد واحد من أهل العصبية تكون غالبة على يده ، كما فى دولة الترك ، فالكتابة عندهم لصاحب الإنشاء تحت يد أمير من عصبية السلطان يُعرف بالدَّوَيْدَار .

الشُّرطة :

وظيفة مرءوسة لصاحب السيف ، وأصلها فى العباسيين لمن يُقيم أحكام الجرائم والحدود ، فالتُّهم فى الجرائم لا نظر للشرع إلا فى استيفاء حدودها ، وللسياسة استيفاء موجباتها بإقرار المتهم الذى يكرهه عليه الحاكم إذا احتفت به القرائن . فالذى يقوم باستيفاء الحدود صاحب الشرطة ، وله النظر فى الحدود والدماء ، ولم تكن وظيفة الشرطة عامة التنفيذ ، إنما كان حكمهم على الدهماء ، وأهل الريب ، والرعاع ، والفجرة .

ثم عظمت فى بنى أمية بالأندلس ، ونُوِّعت إلى كبرى وصغرى ، وحُكم صاحب

صحبيته وأرباب السيوف . يسمّى أستاذ الدولة ، وهو أحد الأمراء الأكابر .
ويتبع هذه الخطة ناظر الخاص ، وهو المباشر لأموال السلطان الخاصة ، وهو
تحت يد الأمير الأستاذ .

ديوان الرسائل والكتابة :

أكد الحاجة إلى هذه الوظيفة فى الدولة الإسلامية شأنُ اللسان العربى .
فصار الكاتب يؤدِّى الحاجة بأبلغَ من العبارة اللسانية ، وكان كاتب الأمير
من أهل نسبه لأماناتهم ، فلما فسد اللسان اختُصّ بمن يحسنه ، وكانت عند
بنى العباس رفيعة ، وكان الكاتب يُصدر السجلات مطلقة ، وفى آخرها اسمه ،
ويختم عليها بخاتم السلطان ، يُغمَس فى طِين الختم ، ويُطبع به على طرف
السجل عند طيّه ، وبعدهم صارت السجلات تصدر باسم السلطان ، ويضع
الكاتب فيها علامته .

ومن خطط الكتابة التوقيع ،وهو أن يجلس الكاتب بين يدى السلطان
فى مجالس حكمه ، ويوقِّع على القصص أحكامَها مُتَلقّاة من السلطان بأوجز
لفظ وأبلغه ، أو يحذو الكاتب على مثالها ، وكان جعفر بن يحيى يوقِّع بين
يدى الرشيد ، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء فى تحصيلها .

وصاحب هذه الخطة يُنخيَّر من أرفع الطبقات ، وأهل المروءة والعلم
والبلاغة ، فإنه معرض للنظر فيما يُعرض فى مجالس الملوك ، مع ماتدعو إليه

عبد الرحمن الناصر إلى مائتى مركب ، وإفريقية كذلك ، فإذا اجتمعت الأساطيل جُعلت لنظرِ أميرٍ من أعلى طبقات المملكة ، يُسَرِّحهم ، وينتظر إيابهم بالفتح والغنيمة .

والمسلمون غلبوا على البحر الرومى ، وملكوا سائر الجزائر وممالك الروم والإفرنج ، حتى إذا أدرك العبيديين والأمويين الفشلُ ، مدَّ النصارى أيديَهم إلى الجزائر الشرقية فملكوها ، وملكوا سواحل الشام وبيت المقدس . وضَعُف شأن الأساطيل فى مصر والشام . فبطَل رسمُ هذه الوظيفة ، وبقيت بإفريقية والمغرب .

ولما استفحلت دولة الموحدين أقاموا الأسطول على أتم ما عرف ، وانتهت أساطيلهم فى الكثرة والاستجادة إلى ما لم تبلغه من قبل .

ولما قام صلاح الدين باسترجاع الشام ، وتطهير بيت المقدس بعث إلى ملك المغرب طالبا الأساطيل لتحول بين أساطيل الكفرة وبين إمداد النصرانية بثغور الشام . ولما استولت أمم الفرنجة على الأندلس ، وملكوا الجزائر بالجانب الغربى ، وكثرت أساطيلهم ، تراجعت قوة المسلمين لضعف الدولة .

التفاوت بين مراتب السيف والقلم فى الدولة :

٣

الحاجة تشتد أولَ الدولة إلى السيف ، لأن القلم فى تلك الحال خادم منفذ

الكبرى على الخاصة وأهل المراتب ، والضرب على أيديهم فى الظلامات . وصاحب الصغرى مخصوص بالعامة . ولصاحب الكبرى كرسى بباب السلطان ، ورجال بين يديه ، وولايتها للأكابر ، حتى كانت ترشيحا للوزارة والحجابة .

وفى الموحِّدين لا يليها إلا كبراؤهم ، ولم يكن له التحكم على أهل المراتب ، ثم صارت للمصطنعين .

وفى بنى مَرين كانت فى مواليهم ، وفى الترك فى رجالاتهم أو أعقاب أهل الدولة من الكُرْد ، بما يظهر فيهم من الصلابة والمَضاء لقطع الفساد ، وحسم الدَّعارة ، وتخريب مواطن الفسوق ، وإقامة الحدود الشرعية والسياسية . وصاحب الشرطة لهذا العهد يسمى فى إفريقية الحاكم ، وفى الأندلس يسمى صاحب المدينة ، وفى دولة الترك يسمى الوالى .

٢١ س قيادة الأساطيل :

وظيفة مرءوسة لصاحب السيف . لما مَلك المسلمون مصر أَوْعز عمرُ بمنع المسلمين من ركوب البحر لبداوتهم ، حتى أذن معاوية فى ركوبه والجهاد على أعواده ، فاستخدموا النَّوانيَّة ، وأنشأوا السفن ، وشحَنوا الأساطيل بالرجال والسلاح ، وأوعز عبد الملك إلى عامل إفريقية باتخاذ دار الصناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية حرصا على الجهاد ، ومنها كان فتح صَقلِّية ، وكانت أساطيل إفريقية والأندلس تتعاقب خلال السواحل ، وانتهى أسطول الأندلس أيام

شارات الملك والسلطان

للسلطان شارات تقتضيها الأُبّهة ، ويتميز بها عن سائر الرؤساء في ديوانه ، وأشهرها :

الأداة :

وهى نشر الأَلْوِية والرايات ، وقرع الطبول ، ونفخ الأبواق لإرهاب العدو ، وهو أمر وجدانى فى الحروب ؛ فالنفس عند سماع النغم يُدركها الفرح ، فيصيب الروحَ نشوةٌ يُستسهَل بها الصعب ، وهذا موجود للحيوانات ، كانفعال الإبل بالُحداء والخيل بالصفير ، ويزيد التأثير إذا كانت الأصوات متناسبة ، ولقد رأينا فى حروب العرب من يتغنى بالشعر ، فتَجِيش هممُ الأبطال ، ويسارعون للحروب .

وأما تكثير الرايات وتلوينها فالقصد به التهويل ، وربما يُحدث زيادة فى الإقدام .

والرايات شعار الحروب منذ الخليقة ، ولم تزل لعهد النبيّ والخلفاء ، وأما الطبول والأبواق فكان المسلمون مُتَجافِين عنها حتى انقلبت الخلافة ملكا فاتخذوها .

وكان صاحب الثغر أو قائد الجيش يخرج ، فلا يميِّز بين موكبه وموكب

للحكم السلطانى ، والسيف شريك فى المعونة ، وكذلك آخرَ الدولة حيث تضعف عصبيتها ، فتحتاج للاستظهار بالسيوف ، فللسيف مَزِيَّةٌ فى الحالتين ، وأربابه حينئذ أوسع جاها ، وأكثر نعمة ، أما وسط الدولة فيستغنى صاحبُها بعضَ الشيء عن السيف ، لأن همّه تحصيلُ ثمرات الملك ، ومباهاةُ الدول ، وتنفيذُ الأحكام ، والقلمُ هو المُعين فى ذلك ، فتعظم الحاجة إليه ، فيكون أربابُه أوسعَ جاها ، وأعلى مرتبة ، وأقربَ إلى السّلطان ، ويكون الوزراء وأهل السيوف مستغنًى عنهم ، مُبعَدين عن باطن السلطان ، حذرين من بوادره .

وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة وزناً ، وبدنانير الفرس ، إلى أن تفاحش الغش ، وأمر عبد الملك بضرب الدراهم سنة أربع وسبعين .

ووزن الدرهم أول الإسلام كان ستةَ دوانق ، والمثقال درهم وثلاثة أسباع فتكون عشرة دراهم بسبعة مثاقيل ، وكانت الدراهم أيام الفرس مختلفة . منها عشرون قيراطاً ، ومنها اثنا عشر ، ومنها عشرة . فلما احتيج لتقديره في الزكاة أخذ الوسط وذلك اثنا عشر ، وكان منها البَغْلى : ثمانية دوانق ، والطَّبَرِىّ : أربعة ، والمغربىّ : ثمانية ، واليمنىّ : ستة ، فأمر عمر أن ينظَر الأغلبُ ، فكان البَغْلىّ والطَّبَرِى وهما اثنا عشر دانقا .

فلما رأى عبدُ الملك اتخاذ السكة، عيّن مقدارَها على ما استقر لعهد عمر ، واتخذ الطابعَ كلماتٍ لا صوراً ، وكان الدينار والدرهم على شكلين مُدوَّرين ، والكتابة فى دوائر متوازية ، على أحد الوجهين أسماء الله ، وعلى الثانى التاريخ واسم الخليفة ، وهكذا العباسيون والعبيديون والأمويون فى الأندلس .

والموحّدون اتخذوا سِكّة مربعة ، وأما أهل المشرق فيتعاملون بالدنانير والدراهم وزناً ولا يطبعون عليها نقوشاً .

المقدار الشرعى للدينار والدرهم :

تعرّض الشرع لهما ، وعلّق أحكامَ الزكاة والحدود بهما ، والإجماع منذ

الخليفة إلا كثرة الألوية أو الألوان، كالسواد للعباسيين ، والبياض للعُبيديين ، والخضرة لعهد المأمون ، أما البربر فلم يختصّوا بلون واحد .

والموحدون وربانة قصروا الطبول والبنود على السلطان ، وأما الترك فيتخذون الشَّالِشَ سِعارَ السلطان ، وهى راية عظيمة فى رأسها خُصلة شَعر ، ثم نتعدد الرايات ، ويسمونها سناجق ، وأما الطبول فيبالغون فى استكثارها ، وأما الفرنجة بالأندلس فشأنهم الألوية القليلة ، ومعها الطنابير .

٢ السّرير :

هو من سُنَن العجم ، كانوا يجلسون على أسرّة الذهب ، وكان لسليمانَ ابنِ داود كرسيٌّ وسرير من عاج مُغَشَّى بالذهب ، ولاتأخذ به الدول إلا بعد الترف ، واتخذه فى الإسلام معاويةُ ، وكان عمرو بمصر يجلسُ على الأرض ويأتيه المُقَوْقِس ومعه سرير من الذهب ليجلس عليه ، ثم كان لبنى العباس والعُبيديين من الأسرة والمنابر والتخوت ماعفّى على الأكاسرة .

السِّكة :

هى الختم على الدنانير والدراهم بطابعٍ حديدٍ فيه صورٌ وكلمات مقلوبة ، بعد أن يُعتبر عيارُ النقد ، وتقدير الدراهم والدنانير ، والسكة اسم للحديدة ، ثم نقل إلى أثرها وهى النقوش ، ثم إلى الوظيفة ، وهى ضرورية للملك ، وكان العجم ينقُشون تماثيل للسلطان أو لحصن أو حيوان ، ولما جاء الإسلام أغفله ،

وديوان الختم هو الكتّاب القائمون على إنفاذ كتب السلطان، والحزم للكتب بكون إما بِدَسّ الورق أو لَصْق رأسِ الصفحةِ على ما ننطوى عليه، ويُجعل مكانَ الدّس أو الإلصاقِ علامةٌ يُؤْمَنْ معها فتحهُ.

والخاتم كان للوزير فى الدولة العباسية، ثم صار لديوان الكتّاب، وفى المغرب من علامات الملك: الخاتم للإصبع، فيستجيدون صوغه من الذهب، ويُرَصِّعونه بالياقوت والفَيْرُوزَج والزُّمُرّد وبإسم السلطان.

الطـــراز:

أن تُرسم الأسماء أو العلامات فى طِراز الأثواب، بكتابتها فى نسْجِ الثّوب بخيط الذهب أو الخيوط الملوّنة، فتصير مُعْلَمة بالسلطان أو من يختصه بملبوسه أو وظيفته، وكان العجم يجعلون الطراز بصور الملوك، أمّا ملوك الإسلام فطرّزوا بأسمائهم أو كلمات الفأل أو السجلات.

وكانت الدور المُعدة لذلك فى قصورهم تسمى دور الطِّراز، والقائم عليها صاحب الطراز، ويقلّدون ذلك لخواصّ دولتهم ومواليهم، ولما ضاق نطاق الدولة تعطلت هذه الوظيفة.

والموحدون لم يأخذوا به لما كانوا عليه من الدِّيانة والسذاجة، وأما الترك بمصر والشام فلهم حرير آخر على قدر ملكهم إلا أنه لا يُصنَع فى قصورهم وليس مِنْ وظائفهم، وإنما يُنسَج عندَ صُنّاعِه من الحرير والذهب الخالص، ويسمّونه المُزَرْكَش، ويَرْسِمون عليه اسم السلطان أو الأمير.

صدر الإسلام على أن الدرهم الشرعى تزن العشرةُ منه سبعةَ مثاقيل من الذهب ، والأوقيّة تزن أربعين درهما ، وهو على هذا سبعة أعشار الدينار ، ووزن المثقال من الذهب ثنتان وسبعون حبة شعير ، فالدرهم خمسون حبة وخُمْسَا حبة .

وقد كان متعارفاً عليهما ولكن مقدارَهما غيرُ مشخص ، حتى شخّصه عبد الملك ، ثم وقع اختيار أهل السّكة على مخالفة المقدار الشرعى ، وصار أهل كل أفق يستخرجون الحقوق من سكتهم بالنسبة التى بينها و بين مقاديرها الشرعية .

ص ٢٣ الخاتم :

ختم الرسائل والصُّكوك معروف قبل الإسلام و بعده ، والنبى اتخذ خاتما من فضة عليه « محمد رسول الله » وتختّم به أبو بكر وعمر ، ثم سقط من عثمان فى بئر أريس .

والخاتم يطلق على اسم الآلة التى تُجعل فى الإصْبَع ، وعلى النهايةِ ، وسِداد الأوَانى ، و يكون الختم بغمسه فى المواد أو الطين ، ووضعه على الصفحة ، ومعنى هذا النهايةُ والتمامُ بصحة المكتوب ونفُوذه ، وقد يكون بالخط آخرَ الكتاب أو أوّله بتسبيحٍ وتحميدٍ أو اسمِ السلطان أو صاحبِ الكتاب ، ويحتمل أن يُختَم به فى جسم ليّن فَتَنْتَقِش حروفه ويُجعل على موضع الحزْم من الكتاب والمودَعات .

المقصورة للصلاة ، والدعاء في الخطبة :

هما من الأمور الخلافية ، ومن شارات الملك الإسلامي .

فأما المقصورة فسياج يحوز المحراب وما يليه ، أحدثها معاوية حين طعنه الخارجي ، وقيل مروان حين طعنه اليماني . وصارت سنة في تمييز السلطان عن الناس ، وما زال الشأن كذلك في الدول الإسلامية . أما بنو الأغلب فكانوا يتخذونها بالقيروان . ثم العبيديون وولاتهم بالمغرب . ثم محا الموحدون ذلك الرسم ، ثم اتخذها المنصور ثالث خلفائهم . وبقيت بعده سنة لملوك المغرب والأندلس .

أما الدعاء في الخطبة : فلم يكن عهد ولاة الصلاة . كانوا يدعون بالصلاة على النبي ، والرضا عن أصحابه . وأول من اتخذ المنبر عمرو بمصر ، وبلغ عمرَ فكتب إليه : بلغني أنك اتخذت منبرا ترقى به على رقاب المسلمين ، أو ما يكفيك أن تكون قائما والمسلمون تحت عقبك ؟ فعزمت عليك إلّا ما كسرته .

وأول من دعا للخليفة على المنبر ابن عباس : دعا لعليّ في خطبته بالبصرة ، فلما استتب الخلفاء في الخطبة والصلاة . كان الخطيب يُشيد بالخليفة دعاء له ، لأن تلك الساعة مظنة الإجابة . وكثيرا ما يغفل الماهدون للدول هذا الرسم ، ويقنعون بالدعاء لولي أمر المسلمين .

فساطيط والسياج :

ن شارات الملك اتخاذ الأَخْبية من الكَتَّان والصوف والقُطن، وتتنوع
سبة الثروة واليسار ،وكان العرب لعهد بنى أمية يسكنون خياما ، ولم يزالوا
، فكانت أسفارهم بسائر أهلهم وأولادهم ، وعساكرهم كثيرة الحِلل ،
ة الأحياء ، فلما تفنّنت الدولة بالبذخ ، وانتقلوا إلى سكنى القصور ـ
ا للسكنى فى أسفارهم ثياب الكتان ، يستعملون منها بيوتا مختلفة مقدرة
ل من القوراء والمستطيلة والمربّعة ، ويُدير الأمير على فساطيطه سياجا ،
ـ بين العساكر ، ويختص به السلطان فى المغرب لا يكون لغيره .

وفى المشرق يتخذه كل أمير ، ثم جنحت الدّعة بالنساء والولدان إلى
بقصورهم . فتقاربت السياج بين منازل المعسكر ، واجتمع الجيش
طان فى معسكر واحد .

والموحدون وزناتة كان سفرهم فى بيوت سكناهم ، حتى إذا أخذت الدولة
ترف وسكنى القصور ، وعادوا إلى الأخبية والفساطيط ـ بلغوا فوق ماأرادوا
ترف ، إلا أن العساكر تصير بذلك عرضة للغارات الليلية ، لاجتماعهم فى مكان
د تشملهم فيه الصيحة تصير بذلك وخفتهم من الأهل والولد الذين تكون
تماتةُ دونهم ، فيحتاج إلى تحفظ آخر .

المقدمة ، وآخر ناحية اليمين وآخر ناحية الشمال هما الميمنة والميسرة ، وآخر من وراء العسكر هو الساقة ، ويقف الملك وأصحابه في القلب ، فإذا تم هذا يبدأ الهجوم .

وكانت الحرب أول الإسلام زحفاً لأن عدوهم يقاتل زحفاً ، ولأنهم مستميتون ، والزحف أقرب إلى الاستماتة ، وأول من صار إلى التعبئة مروان ابن الحكم .

ضرب المصاف :

من مذهب الكر والفر ضرب المصاف وراء العسكر من الجمادات والحيوانات ، يتخذونها ملجأ للخيالة ، لثبات المقاتلة ، وليكون ذلك أدوم للحرب ، وأقرب إلى الغلب ، وقد يفعله أهل الزحف ، فقد كان الفرس يتخذون الفيلة وعليها أبراج مشحونة بالمقاتلة والسلاح وراءهم ، فتقوى نفوسهم ، وأما الروم فينصبون للملك سريره في الحومة ، يحف به خدمه وحاشيته وجنوده ، وفي أركانه الرايات . ويحدق به سياج من الرماة ، فيعظم السرير ، ويصير ملجأ للكر والفر . وأما العرب فيصفون إبلهم تحمل ظعائنهم .

ثم نسوا الصف وراء المقاتلة لما حصلوا على الترف وسكنى القصور ، ونسوا عهد الإبل ، فخلفوا النساء ، واقتصروا على الظهر الحامل للأثقال وهو لا يدعو إلى الاستماتة كما يدعو إليها الأهل والمال .

الحروب ومذاهب الأمم في ترتيبها

الحروب في الخليقة منذ برأها الله ، وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض ، ولكلٍّ عصبيته ، فإذا تواقفت الطائفتان ، إحداهما تطلب الانتقام والأخرى تدافع ، كانت الحرب ، وسبب الانتقام منافسة أو عدوان، أو غضب لدين أو لملك .

فالأول بين القبائل ، والثاني من الأمم الوحشية ؛ لأن أرزاقهم في رماحهم ، والثالث الجهاد ، والرابع حرب الدول مع الخارجين .

والحروب نوعان : نوع بالزحف وهو قتال العجم، ونوع بالكر والفر وهو قتال العرب والبربر ، وقتال الزحف أوثق من الكر والفر ، وأرهب للعدو ؛ لأنه كالحائط لا يُطمع في إزالته ، ومن هنا تظهر حكمة الثبات ، فمن ولّى العدوَّ ظهره أخل بالمصافّ ، وباء بإثم الهزيمة ، وكأنه جرّها على المسلمين ، فعُدّت من الكبائر .

والدول القديمة كانوا يقسمون الجيوش كراديس ، لأنهم حُشدوا من قاصية النواحي ، فاستدعى أن يجهل بعضهم بعضا ، فيخشى تدافعهم فيما بينهم لجهل بعضهم ببعض ، فكانوا يُقسّمونهم جموعا تضم المتعارفين ، ويسمون هذا الترتيب باسم التعبئة ، فيضعون بين يدى الملك عسكرا بقائده ورايته يسمونه

« سوُّوا صفوفكم ، وقدِّموا الدَّارِع ، وعَضُّوا على الأضراس ، والتوُّوا على أطراف الرِّماح ، وغضُّوا الأبصار ، وأخْفِتُوا الأصوات ، وأَقِيموا راياتكم ، فلا تميلوها، ولا تجعلوها إلا بأيدى شُجعانكم ، واستعينُوا بالصِّدق والصَّبر ».

وقال الأشتر : « عَضُّوا علَى النَّوَاجِذِ ، واستقبِلوا القومَ بِهَامِكم ، وشدوا شَدَّةَ قوم موتورين يثأرُون بآبائهم ، حِنَاقًا على عدوِّهم ، قد وَطَّنوا علَى الموتِ أنفسَهم » .

الظفر فى الحرب من قبيل البخت:

لا وثوق بالظفر وإن حصلت أسبابه ، وإنما هو من قبيل البخت ، لأن أسباب الغلب أمور إما ظاهرة ، وهى الجيوش ، والأسلحة ، والشجعان ، والمصاف ، وصدق القتال . وإما خفية ، وهى خدع البَشر وحِيَلهم فى الإرجاف[1] ، والتشانيع[2] ، وفى الأماكن المرتفعة ، والكمون فى الغياض[3] ، والتوارى عن العدو .

وقد تكون الأسباب الخفية سماوية ، تُلقَى فى القلوب ، فيستولى عليها الرعب ، وأكثر ماتقع المزائم عن الأسباب الخفية ، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « الحرب خدْعة »، وقالت العرب « رُبَّ حِيلةٍ أنفعُ من قَبيلة » .

---

(١) إذاعة الأخبار الكاذبة التى تبعث الرعب فى قلوب المحاربين
(٢) إشاعة أخبار الهزيمة
(٣) الاختفاء فى الأماكن الكثيرة الشجر.

وكان قتال الترك مناضلة بالسهام ، والتعبئة عندهم بالمصاف ، يقسمون أنفسهم بثلاثة صفوف ، صفا وراء صف ، فيفرغون سهامهم ، و يناضلون جلوسا ، وكل صف رده للذى أمامه .

ص ١٣١

اتخاذ الأجانب فى الجيش :

ملوك المغرب يتخذون الإفرنج فى جندهم ، لأن قتالهم بالكر والفر وضرب المصاف ، فلابد أن يكون أهل الصف متعوِّدين للثبات فى الزحف و إلا أجفلوا فانهزم السلطان والعساكر بإجفالهم ، فاحتاج الملوك إلى اتخاذ جند من الإفرنج ، عند حرب البربر و قتالهم على الطاعة ، أما فى الجهاد فلا يستعينون بهم ؛ حذَرَ ممالأتهم على المسلمين .

حفر الخنادق :

من مذاهب الأُول حفر الخنادق على عسكرهم عند ما يتقاربون للزحف ، حذرا من هجوم العدو على العسكر بالليل ، فيلوذ الجيش بالفرار ، لذلك يديرون الحفائر نطاقا عليهم ، وكان للدول عليه اقتدار باحتشاد الرجال ، فلما عزب العمران نسى هذا الشأن .

وصايا القادة :

فى وصية علىّ بصِفِّين كثير من علم الحرب والبصر بها ، قال فى كلام له :

فيكثر الاعتمار ، وتكثر الجباية التى هى جماتها ، فإذا جاء الملك العضوض ، وتكثرت عوائد الترف فإنهم يكثرون من الوزائع على الرعايا ، ويضعون المكوس (١) ، وتندرج الزيادة مقدارا بعد مقدار حتى تثقل المغارم ، وتصير عادة لأنها تدرجت ، ولم يشعر أحد بمن زادها على التعيين . فتنقبض الأيدى عن الاعتمار ، فتنقص الجباية بنقصان الوزائع . وربما يزيدون فى مقدار الوظائف (٢) جبرا لما نقص ، حتى تنتهى كل وظيفة إلى غاية ليس وراءها نفع ، لكثرة الإنفاق فى الاعتمار وكثرة المغارم ، فلا تزال الجملة فى نقص والوزائع فى زيادة ، حتى ينقص العمران . ويعود وباله على الدولة . ولذلك فأقوى أسباب الاعتمار تقليل مقدار الوظائف على المعتمرين .

المكوس أواخر الدولة:

الدولة فى أولها قليلة الحاجات لعدم الترف ، وإنفاقها قليل ، وفى الجباية وفاء بالحاجة ، ثم تأخذ فى الترف فيكثر خَرْج (٣) السلطان، ولا تفى الجباية ، فيحتاج إلى الزيادة فى مقدار الوظائف والخراج،ويدرك الدولة الهرم ، وتضعف عن الجباية ، فيستحدث صاحب الدولة أنواعا منها على البياعات ، ويزيد زيادة بالغة ، فتكسد الأسواق لفساد الآمال ، ويؤذن ذلك باختلال العمران . وتضمحل الدولة .

(١) ضرائب البيع والشراء ونحوها.
(٢) مقادير الضرائب
(٣) نفقاته.

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم « نُصرتُ بالرعب من مسيرة شهر » .

ومن الأسباب الظاهرة أن يكون فى أحد الجانبين عصبيةٌ جامعة ، وفى الآخر عصائب متعددة يقع بينها التخاذل .

ومن الخفيّة الشُّهرة ، والصيت لأن الشهرة والصيت بالأَحبار ، والأخبار يدخلها التعصّبُ والتشيُّع والأوهام ، فتختل الشهرة ، وكل ماحصل بسبب خفيّ هو الذى يعبر عنه بالبخت .

ص ٢٤٣

الجباية والمكوس :

تكون أولَ الدولة قليلةَ الوزائع كثيرة الجملة ، وآخر الدولة كثيرةَ الوزائع [١] قليلة الجملة .

والسبب أن الدولة إن كانت على سَنن الدين ، فليست تقتضى إلا المَغَارِم من الصدَقات والَخراج والجِزْية ، وهى قليلة الوزائع ، لأن زكاة المال قليلة ، وكذا زكاة الحبوب والماشية [٢] ، والجِزْية [٣] والَخراج [٤] ، وهى حدود لا تُتَعَدّى ، أما إن كانت الدولة على سنن التغلب فالبداوة تقتضى المسامحة والتجافى عن أموال الناس ،فتقِلُّ الوزيعة ،و إذا قلت الوزائع على الرعايا نشِطوا ،

---

(١) الوزائع : فئات الضريبة
(٢) أنواع من الضرائب قررها الإسلام على هذه الأنواع
(٣) ضريبة كانت تؤخذ على كل فرد من أهل الكتاب الذين فضلوا البقاء على دينهم
(٤) نسبة معينة مما تخرجه الأرض.

فيبيعون السلع على كساد وبخس ، ويتكرر ذلك عليهم فيذهب رأس مالهم ، ويتكرر ذلك على الرعايا بالعَنَت والمضايقة ، فيَقْبِضُ آمالهم عن السعى ، فتذهبُ الجباية ، وما يحصل للسلطان من هذه الأرباح بالنسبة للجباية أقل من القليل .

وقد ينتهى الحال بالأمراء أنهم يشترون الغلات والسلع ، ويفرضون من الثمن ما يشاءون ويبيعونها للرعايا بما يفرضون ، وهذه أقرب إلى فساد الرعية .

ثروة السلطان إنما تكون فى وسط الدولة : ص ٢٤٦

الجباية أول الدولة موزع على العصبية المحتاجة إليهم فى تمهيد الدولة ، فرئيسهم متجافٍ لهم عما يسمون إليه ، فله عليهم عزة ، وله إليهم حاجة ، فتجد حاشيته ووزراءه مُمْلِقين ، فإذا استفحل الملك قبض أيديهم عن الجبايات، وصار الموالى والصنائع مُساهِمين لهم فى الأمر ، فينفرد بالجباية ، فتكثر ثروته ، ويعظم حال حاشيته ، ويقْتَنُون الأموال. ثم إذا أخذت الدولة فى الهرم بتلاشى العصبية ، احتاج إلى الأعوان ، لكثرة الخوارج والثوّار ، فصار خراجه لظُهَرائه من أرباب السيوف ، وقلت الجباية ، فتتقلص النعمة عن الخواص ثم تشتدُّ حاجة صاحب الدولة إلى المال وينفق أبناء البطانة ما تأثّله آباؤهم فى إعانة صاحب الدولة ، ويرى أنه أحق بتلك الأموال ، فينتزعها ، ويعود وبال

وقد وقع ذلك بالمشرق فى أُخريات العباسيين والعبيديين ، وفرضت المغارم حتى على الحجاج ، حتى أسقطها صلاح الدين ، وكذلك بالأندلس لعهد الطوائف حتى محاه يوسف بن تاشفين .

ص ٢٤

تجارة السلطان مضرة بالرعايا :

إذا ضاقت جباية الدولة ، وقصّرت عن الوفاء بنفقاتها فتارة توضع المكوس على البياعات ، وتارة تكون بالزيادة فى المكوس ، وتارة بمقاسمة الجباة ، وتارة باستحداث التجارة والفلاحة للسلطان ، لمّا يرون التجار والفلاحين يحصلون على الفوائد مع يسارة أموالهم ، فيأخذون فى اكتساب الحيوان والنبات لاستغلاله فى شراء البضائع والتعرّض بها للأسواق ، وهو غلط عظيم من وجوه :

منها مضايقة الفلاحين والتجار فى الشراء ؛ فالرعايا متكافئون ، ومزاحمة بعضهم لبعض تنتهى إلى غاية موجودهم ، وإذا رافقهم السلطان ، وماله أعظم ، فلا يحصل أحد منهم على غرضه ، والسلطان ينتزع الكثير من ذلك بأيسر ثمن ؛ لا يجد من ينافسه فى شرائه ، فيبخس ثمنه .

ثم إذا حصلت فوائد الفلاحة و بضائع التجارة فلا ينتظرون حوالة الأسواق ، فيكلفون التاجر والفلاح شراء البضائع ، ولا يرضون فى أثمانها إلا القيم وأزيد ، فيستوعبون أموالهم ، وتبقى البضائع بأيدى من اشتروها عُروضاً جامدة ، ويمكثون عُطْلا من إدارة معاشهم ، وربما تدعوهم الضرورة إلى المال

نقْصُ عطاءِ السلطان نقصٌ في الجِبـاية :

إن الدّولة هي السوق الأعظم ، فإذا احتَجَن(١) السلطانُ الأموالَ قلّ ما بأيدي الحاشية ، وانقطع ما كان يصـل لذويهم ، وقلّت نفقاتُهم ، فيقع الفسادُ في الأسواق، وتضعف الأرباح في المتاجر، فيقلّ الخراج، لأن الخراج والجباية إنما تـكون من الاعتمار والمُعاملات ونَفَاق الأسواق، وَوَبَالُ ذلك عائد على الدولة بالنقص ، لأن المال متردِّد بين الرعية والسلطان، فإذا حبسه السلطان فقدته الرعية فنقصت الجباية .

(١) احتجرها في يده فلم يصرفها .

ذلك على الدولة بفناء حاشيتها ، وتنقوض مبانى المجد ، مثل ماوقع لبنى قحطبة وبنى برمك ، وبنى طاهر فى الدولة العباسية .

٢ ـ فرار الحاشـــية بأموالهم :

إن أهل الدولة بسبب مايتوقعون من المعاطب ، ينزعون للتخاص من السلطان بما فى أيديهم إلى قطر آخر أهنأ وأسلم ، وهو خطأ وعسير .

فإن صاحب هذا الغرض إذا كان هوالمَلِك ، فلا تمكنه الرعية من ذلك ، وفى ظهور ذلك هدم لملــكه ولنفسه .

وإذا كان من البطانة فقــل أن يُخَلِّى بينه وبين ذلك ، لأن الملوك لايسمحون بِحَل رِبقَته من الخدمة ، صنًّا بأسرارهم ، وكان بنو أمية بالأندلس يمنعون أهل دولتهم من الحج ، لما يتوهمون من وقوعهم بأيدى بنى العباس ، ولأن المــلوك إن سمحوا بذلك فلايسمحون بالمال لما يرون أنه جزء من مالهم .

وصاحب هذا الغرض إذا خلص به إلى قطر آخر تمتــد إليه أعيُن الملوك بذلك القطر ، وقد حاول أبو يحيى اللَّحيانى من ملوك الحفْصِيّين بإفريقية اللحاق بمصر فَراراً من طلب الغُزاة الذين أرادوا غزو تُونس ، وخَلَص إلى الإسكندرية بعد أن حَمَــل ماوجده ببيت المــال ، ونزل على السلطان قَلاوُون ، فلم يزل يستخلص ذخيرته شيئاً فشيئاً إلى أن حصل عليها ، ولم يبق معاشٌ لّلَّحْيَانى إلا فى جرايته التى أجراها عليه .

النَّوع البشرى ، وهى نفسُ حكمة الشّرْع فى مقاصده الضرورية الخمسة من حفظ الدين ، والنفس ، والعقل ، والنسل ، والمال . ولو كان كل واحد قادراً على الظلم ، لوُضِعَ له من العقوبات ماوُضع لغيره من المفسدات للنوع ، إلا أن الظلم لايقع إلا من أهل القدرة والسلطان ، فبُولِغ فى ذَمِّهِ وتكرير الوعيد فيه عسى أن يكون الوازع للقادر عليه من نفسه .

ص ٢٥٢

من الظلم تسخير الرعايا :

من أشدّ الظلامات فى إفساد العمران تسخيرُ الرعايا بغير حق ؛ لأن الأعمال من قبيل المتموّلات ، فإن المكتسبين معاشهم ومكاسبهم من اعتمالهم ، فإذا اتخِذوا سخريًا بطل كسبهم ، واغتصِبوا قيمةَ عملهم ، فدخل عليهم الضرر ، وذهب معاشهم ، وفسدت آمالهم ، وقعدوا عن السعى ، فأدّى ذلك إلى تخريب العمران .

من الظلم بخس مافى أيدى الناس :

من أعظم الفساد للعمران ، التسلط على أموال الناس ، بشراء ما بأيديهم بأبخس الأثمان ، ثم فرْض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الإكراه ، والبضائع التى فُرِضت عليهم بالغلاء قد يبيعونها بأبخس الأثمان ، وتعود خسارة مابين الصّفْقتَيْن على رءوس أموالهم ، وقد يعم ذلك أصناف التجار ، فتشمل الخسارة ، وتُجحِف برءوس الأموال ، فتكسد الأسواق ، ويبطل

الظلم مؤذن بخراب العمران

العُدوان على أموال الناس ذاهبٌ بآمالهم فى تحصيلها ، وإذا ذهبت آمالهم انقبضت أيديهم عن السعى ، وعلى قدر الاعتداء يكون الانقباض ، والعمران إنما هو بالأعمال ، فإذا قعد الناس كسدت أسواق العمران ، وتفرّق الناسُ فى طلب الرزق ، فخفّ ساكنُ القُطر ، وخربت أمصاره ، واختل حال الدولة .

وقد حدّث المُوبَذَانُ صاحبُ الدِّين أيامَ بَهرام : لاقِوامَ للشريعة إلا بالمِلك ، ولا عِزَّ المِلك إلّا بالرِّجال ، ولاقِوام للرجال إلا بالمال ، ولاسبيل إلى المال إلا بالعمارة ، ولاسبيل إلى العمارة إلا بالعدل .

فالظُّلم مُخَرِّبٌ للعمران ، وعائدةُ الخراب على الدولة بالفساد والانتقاض .

وليس الظلم هو أخذ المال من مالكه بغيرعِوَض ولاسببفحسب، بل هو أعمُّ من ذلك ؛ فجُبَاةُ الأموال بغيرِحقها ظَلَمَةٌ ، والمعتدون عليها ظَلَمَةٌ ، وكذلك المنتَهِبُون لها ، والمانعون لحقوق الناس ، وغُصَّاب الأملاك على العموم ــ كلهم ظَلَمَة . وو بال ذلك على الدولة بخراب العمران الذى هو مادتها .

وهذه هى الحكمة المقصودة للشارع فى تحريم الظلم ، لأنه مُؤْذِنٌ بانقطاع

انقسام الدولة

أول مايقع من الهرم فى الدولة انقسامها ، لأن صاحبها عند ماينفرد بالمجد يأنف المشاركة ، ويصير إلى قطع أسباب هذه المشاركة ، بإهلاك من استراب به من قرابته المرشّحين لمنصبه ، فربّما ارتابوا ، ونزعوا إلى القاصية ، فيستبد النازع فيها ، ويعظم أمره بتراجع نطاق الدولة حتى يقاسمها .

والدولة الإسلامية العربية حين كانت عصبية عبد مناف غالبة على مضر ، لم ينبض عرق بالخلاف . فلما خرج الأمر لبنى العباس ، وبلغت الدولة غاية الترف ، وآذنت بالتقلص عن القاصية — نزع عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس — قاصية الدولة — فاقتطعها ، وصير الدولة دولتين . ثم نزع إدريس إلى المغرب ، وخرج به ، ثم اضطرب الأغالبة فى الامتناع عليهم ، ثم خرج الشيعة واستولوا على إفريقية والمغرب ، ومصر ، والشام ، والحجاز ، وغلبوا الأدارسة ، وقسموا الدولة دولتين أخريين ، وصارت الدولة العربية ثلاثاً .

وقد ينتهى الانقسام فى الدولة إلى أكثر من دولتين ، كما وقع للطوائف بالأندلس ، وملوك العجم بالمشرق .

إذا نزل الهرم بالدولة لا يرتفع :

عوارض الهرم تحدث للدولة بالطبع ، كما تحدث فى المزاج الحيوانى . وقد

معاش الرعايا ، وتنقص جباية السلطان ، ويؤول ذلك إلى تلاشى الدولة بالتدريج .

أما أخذ الأموال مجانا ، والعدوان على الناس فى أموالهم ، وحرمهم ، ودمائهم ، وأسرارهم ، وأعراضهم ، فيُفضى إلى الفساد دَفعةً وسريعاً ، بما ينشأ من الهرج والانتقاض .

الملك وتدعو إلى الترف . فتعظم نفقات السلطان وأهل الدولة . ثم ينتشر الإسراف في الرعية ، ويخرج إلى الشكوس ، وتمتد أيديهم إلى أموال الرعايا ؛ ويكون الجند قد تجاسر على الدولة بما لحقهم من الفشل في العصبية . فتداوى ذلك بالعطايا ، ويكون جباة الأموال في الدولة قد عظمت ثروتهم ، فتسنو السعاية فيهم للمنافسة والحقد ، فتعم المصادرات وتذهب بثروتهم ، ويفقد ما للدولة من الأبهة ، ويكون الوهن قد لحق الشوكة . فينصرف صاحب الدولة إلى زيادة أرزاق الجند ، ولا يغني ذلك فيما يريد ، فتنحل عراها وتفضي إلى الهلاك .

اتساع نطاق الدولة ثم تضايقه طوراً بعد طور :

كل دولة لها حصة من الممالك بقدر توزيع عصابتها الحامية أجنادها عند ما تكون في شعار البداوة وخشونة البأس ، فإذا استفحل العز وتوفرت النعم ذهبت أخلاق الحامية ، وعادت إلى نفوسهم هيئات الجبن والكسل من خنث الحضارة ، والتطاول إلى الرياسة ، والتنازع عليها ، وقتل بعضهم بعضاً .

ويكبحهم السلطان بقتل أكابرهم . فيفقد الأمراء ، ويكثر الأتباع ؛ فيكسر ذلك من شوكة الدولة ، ويقع الخلل الأول من جهة الجند والحامية .

ويساوق ذلك السرف في النفقات ، والبذخ في المطاعم والملابس والقصور ، فيقصر دخل الدولة ويطرق الخلل الثاني من جهة المال .

يتنبه من له يقظة لعوارض الهرم ، ويظنه مُمكِنَ الارتفاع ، ويحسبه من تقصير أهل الدولة ، وليس كذلك فهى أمور طبيعية ، والعوائد هى المانعة له من تلافيها ؛ فمن أدرك أهلَه يلبسون الحرير والذهب ، ويحتجبون عن الناس لا يمكنه مخالفةُ سَلَفه ، وربما تكون العصبية قد ذهبت ، فتعوِّض الأُبّهةُ عنها ، فإذا أزيلت الأبهة مع ضعف العصبية ، تجاسرت الرعايا على الدولة ، حتى ينقضى الأمر ، وربما تحدُثُ آخرَ الدولة قوةٌ تُوهِم أن الهرم قد ارتفع ، كقوة الذُّبَال عند مقاربة انطفائه .

٢٠ — كيفية طُروق الخلل للدولة :

مبنى المُلك على أساسين : الشوكة والعصبية المعبر عنهما بالجند ، والمال الذى هو قوام الجند والملك ، وإذا طرقها الخلل طرقها فى هذين .

فالدولة لابُدّ لها من عصبية جامعة ، فإذا جاء الترف جَدَع أنوفَ أهلِ العصبية بالقتل وسلب النعمة ، فيهلكون ، ونفسد عصبية الدولة ، وتقل الحامية وينفرد صاحب الدولة ، ويحس بذلك أهل العصائب الأخرى ، فيتجاسرون عليه ، ويبادر الخوارج إلى مركز الدولة ، وربما انقسمت عند ذلك بدولتين أو ثلاث على قدر قوتها فى الأصل .

وأما المال ، فالدولة فى أولها بدوية ، يكون فيها الرفقُ بالرعايا ، والقصدُ بالنفقات ، فتتجافى عن الإمعانِ فى الجباية ، والإسرافِ فى النفقة ، ثم يعظم

دولة يستجدها ، ويرثها أبناؤه ، ويستنحل لهم الملك ، وربما يتنازعون ، ويغلب منهم من له قوة ، وهذا النوع لا يكون بينهم وبين الدولة المستقرة حرب لأنهم مستقرون فى رياستهم ، لا يطمعون فى الاستيلاء على الدولة حرب ، وإنما الدولة أدركها الهرم .

والثانى : أن يخرج على الدولة خارج ممن يجاورها ، إما بدعوة يحمل الناس عليها ، أو يكون صاحب شوكة فى قومه ، فيسمو بهم إلى الملك ؛ بالاعتزاز على الدولة وما نزل بها من الهرم ، فيتعين له ولقومه الاستيلاء .

الدولة المستجدّة تستولى على المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة :

الدولة الحادثة لابُدّ لها من المطالبة ، لأن قوتها وافية فى العصبية والاعتزاز ، فيقع بينها وبين الدولة حروب تتكرر إلى أن يقع الاستيلاء .

ولا يحصل لها الظفر بالمناجزة ، لأن الظفر يقع بأمور نفسانية ، ولذلك كان الخداع أكثر مايقع به الظفر .

والدولة المستقرة صيرت صنعة العوائد ضرورية ، فتكثر العوائق لصاحب الدولة المستجدّة ، ويكثر أتباعه ، إلا أن الآخرين أكثر ، وقد داخلهم التسليم للدولة المستقرة فيحصل الفتور ، ولا يكاد صاحب الدولة الجديدة يقاوم ، فيرجع إلى الصبر والمطاولة ، حتى ينضح هرم الدولة المستقرة ، فتضمحل عقائد التسليم ، وتنبعث الهمم للمطالبة ، فيقع الاستيلاء .

وربمـا تنافس رؤساؤهم فتنـازعوا ، وعجزوا عن مغالبة المجـاورين ومدافعتهم .

وربمـا اعتز أهل الثغور لمـا يحسّون من ضعف الدولة فيصيرون إلى الاستقلال ، ويعجز صاحب الدولة عن ردهم ، فيضيق نطاق الدولة عما كانت إلى نطاقٍ دونه .. وهكذا ، فيذهب القائم بالدولة إلى تغيير القوانين ، ليجرى حالُها على استقامةٍ ، بتكافؤ الدخل والخرج والحامية ، يروم بذلك دفعَ الخلل ، ولـكنه يتجدد فى كل طور حتى تنقرض الدولة .

واعتبر ذلك بالدولة الإسلامية : كيف اتسعت بالفتوحات ، ثم تزايدت حاميتها ، وتزايد الترف فى بنى العباس ، وطرق الخلل ، فضاق النطاق من الأندلس والمغرب إلى أن ظهر الخلاف بين بنى الرشيد ، واستبد الأمراء ، واستقل الولاة بالأطراف ، وجاء المعتضد فغيّر قوانين الدولة بإقطاع ولاة الأطراف ماغلبوا عليـه ، إلى أن افترق أمر العرب ، وتطاول الفاطميون ، ثم قامت الدولة السلجوقية، فاستولت على ممالك الإسلام حتى انقرض الخلفاء على يد « هولاكو » .

حدوث الدولة وتجددها:

هرم الدولة نوعان :

الأول : أن يستبد الولاة بالجهات القاصية عند تقلصها ، فيكون لـكل واحد

نهايتها ، فيكون العمران فى غاية الوفور . ولا ينافى ذلك ما مر من أن أواخر الدولة يكون الإجحاف بالرعايا ، لأن الإجحاف يظهر أثره فى تناقص العمران بعد حين بالتدريج ، ثم المجاعات والموتان تكثر أواخر الدولة .

أما المجاعات فلقبض الناس أيديهم عن الفلح بسبب العدوان والجبايات أو الفتن والخوارج ، فيقل احتكار الزرع . وليس صلاح الزرع بمستمر . فالمطر يقل ويكثر ، والزرع والثمار بنسبته، إلا أن الناس واثقون فى أقواتهم بالاحتكار فإذا فقد الاحتكار عظم توقع المجاعات ، وعجز عنه أولو الخصاصة ، فهلكوا .

وأما الموتان فمن المجاعات ومن الفتن والوباء ، وسببه فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة العفن والرطوبات الفاسدة . وإذا فسد الهواء ، وقع المرض فى الرئة ، أو تكثر الحميات . ولذا كان تخلل الخلاء بين العمران ضروريا ، ليذهب تموج الهواء بالفساد ، ويأتى بالهواء الصحيح ، ولذا فالموتان فى المدن الموفورة العمران أكثر .

العمران لابدّ له من سياسة :

الاجتماع للبشر ضرورى . ولا بد لهم من حاكم مستند إلى شرع يوجب انقيادهم بثواب الآخرة ، أو إلى سياسة عقلية توجب انقيادهم بثواب الدنيا .

والسياسة المدنية ليست من هذا، وإنما هى ما يجب أن يكون عليه كل واحد

وأيضا فالدولة المستقرة كثيرة الرزق ، فيكثر عندهم الجنود والأسلحة ، فيُرهِبون عدوَّهم ، وأهل الدولة المستجدة فى البداوة والفقر تسبق ، إليهم أوهام الرعب ، ويُحجِمون عن قتالهم ، فيصير أمرهم إلى المطاولة ، حتى يأخذ الدولة المستقرةَ الهرمُ والخللُ ، فينتهز صاحب الدولة المستجدة فرصةً للاستيلاء عليها .

وأيضا فأهل المستجدة مباينُون للمستقرة بأنسابهم وعوائدهم ، وهم مفاخِرون بطمعهم فى الاستيلاء ، فتتمكَّن المباعدةُ بين الدولتين سرا وجهرا . ولا يصل أهلَ المستجدة خبرٌ يصيبون منه غِرَّةً؛ لانقطاع المُداخَلة ، فيُقيمون على المطالبة ، وهم فى إحجام عن المناجزة ، حتى تزول المستقرة ويفنَى عُمرها ، ويتضح لأهل المستجدة ماخفى من هرمها وقد عظمت قوتهم بما اقتطعوه من أطرافها ، فتنبعث هممهم للمُناجزة ، وتنتهى المطاولة ، ويقع الاستيلاء .

ذلك ماحدث فى ظهور دولة بنى العباس لمّا قام الشيعة بخراسان بعد اجتماعهم على المطالبة عشْرَ سنين .

وكذا العلوية بِطَبَرِسْتان ، والعُبَيديون بالمغرب ، والسّلجوقية لما استولوا على بنى سامان .

ص ٣٦٢ وفور العمران آخر الدولة وصلته بالمجاعات والموت :

الدول فى بدايتها إذا كانت رفيقة انبسطت آمال الرعايا ، فكثر التناسل ، وتوافر العمران ، فيظهر أثره بعد جيلين ، وبانقضائهما تُشرِف الدولةُ على

الباب الرابع

البلدان . والأمصار ، وسائر العمران

-- --

الدول أقدم من المدن والأمصار :

بيان ذلك أن بناء المنازل من منازع الحضارة ودواعي الترف . والمدن والأمصار ذات هياكل وأجرام كبيرة . وهي للعموم . فتحتاج لاجتماع الأيدي والتعاون . وهي ليست من الأمور الضرورية للناس . ولابد إذا من سوقهم إليها بعصا الملك ، أو مرغبين في الأجر الذي لا يفي بكثرته إلا الملك والدولة . ولهذا كان لابدّ في تمصير الأمصار واختطاط المدن من الدولة والملك .

ثم إذا بُنيت المدينة فعمر الدولة إذا كان قصيرا وقف الحال فيها ، وتراجع عمرانها ، وإن كان طويلا فالمصانع تُشاد ، والمنازل تكثر ، والأسواق تنفسح ، أما بعد انقراض الدولة فإن كان لضواحي المدينة بادية يمدها العمران ، كان ذلك حافظا لوجودها ، وإن لم يكن لها مادة تُفيدها بترادف الساكن من بدوها زال حفظها ، وتناقص عمرانها ، وخربت ، وربما نزل بها ملك آخر ، ينخذها كرسيا ، فيحفظ سياجها ، وتستجد بعمرانها عمرا آخر .

فى خُلقه ، ليستغنوا عن الحكام ، والمجتمع الذى يحصل فيه ذلك يسمى المدينة الفاضلة .

والسياسة العقلية على وجهين :

أحدهما : يراعى المصالح على العموم ومصالح السلطان فى استقامة ملكه على الخصوص ، وهى سياسة الفُرس ، وقد أغنانا عنها الأحكامُ الشرعية .

والثانى : يراعى مصالحَ السلطان مع القهر ، والمصالحُ العامة تبعٌ ، وملوك المسلمين يجرون منها على ماتقتضيه الشريعة ، فقوانينها مجتمعة من أحكام شرعية وخُلُقيّة ، وأشياء من الشوكة والعصبية ، والاقتداء فيها بالشرع أولا ، ثم الحكماء والملوك .

وأحسن ما كُتِب فى ذلك كتابُ طاهر بن الحسين لابنه عبدالله ، لمّا ولّاه المأمون الرّقة ومصر ، فكتب إليه كتابه المشهور ، عهد إليه ، ووصاه بما يحتاجه من الآداب الدينية والخلقية والسياسةالشرعية ، وهذا الكتاب شاع أمره ، فأمر المأمون به فكتب إلى جميع العمال ليقتدوا به .

شأن الهندام ، وما اقتضته الصناعة الهندسية، واستعمل الحيل في نقل الأجرام، فتبين أن آثار الأمم ومدنها وهياكلها على نسبة قوتها واتساع ملكها .

الهياكل العظيمة لا تستقل ببنائها دولة واحدة :

والسبب حاجة البناء للتعاون . وقد تكون المباني أكثر من القدرة ، فتحتاج إلى معاودة قدر أخرى مثلها في أزمنة متعاقبة . فيظن من يراه أنه بناء دولة واحدة ، وسد مأرب بناه سبأ بن يشجب . وعاقه الموت عن إتمامه ، فأتمه ملوك حمير ، ومثله بناء قرطجنة ، وقناتها الراكبة على الحنايا ، وكثير من المباني تعجز الدول عن هدمها ، كإيوان كسرى ، حين أراد الرشيد هدمه . واستشار يحيى ابن خالد ، فقال : لا تفعل ، واتركه ، يستدل به على عظم آباء الذين سلبوا الملك من أهل ذلك الهيكل . فاتهمه بالنعرة للعجم ، وشرع في هدمه ، حتى إذا أدركه العجز بعث يستشير يحيى ، فقال : استمر ، لئلا يقال : عجز أمير المؤمنين . وكذلك اتفق للمأمون في هدم الأهرام بمصر .

ما يجب مراعاته في أوضاع المدن :

المدن قرار تتخذه الأمم عند الترف والدعوى ، فوجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية ، وجلب المنافع ، وتسهيل المرافق .

والحماية يدار عليها سياج ، وتكون في ممتنع من الأمكنة ، أو باستدارة بحر أو نهر ، وللحماية من الآفات يراعى فيها طيب الهواء، فإن الهواء إذا كان

ب
٣٠

المُلك يدعو لنزول الأمصار :

القبائل إذا حصل لهم الملك اضطروا للاستيلاء على الأمصار لأمرين

أحدهما : ما يدعو إليه الملك من الدعة والراحة واستكمال العمران .

والثانى : دفع المنازعين المشاغبين ، الذين قد يلجأون إلى المصر يعتصمون به ، فيحميهم ، ويقوم لهم مقام العساكر المتعددة ، ويكون لهم كالحصن مما يفُتّ فى عضد الأمة ، ويخضِد شوكة استيلائها ، فإذا كان بين أجنابهم أمصار ، انتظموها فى استيلائهم ؛ ليأمنوا مثل هذا الانخرام فى دولتهم ، وإن لم يكن هناك مصر ، استحدثوه ؛ لتكميل عمرانهم ، وحط أثقالهم ، وليكون شجاً فى حلق من يروم الامتناع من عصائبهم ، فتعيّن أن الملك لابد له من الأمصار .

المدن والهياكل يشيدها الملك الكثير :

إن تشييد المدن والهياكل إنما يكون باجتماع الفعلة وكثرتهم وتعاونهم ، وربما يتوهم البعض أن آثار الأقدمين ـ كإيوان كسرى ، وأهرام مصر ـ إنما كانت بقدرتهم ، ويظن أنها عظمت لعظم أجسامهم ، فينتحِل لهم أجساماً أعظم ، لتُناسِب القدر الذى صدرت المبانى عنه ، حتى ليزعمون أن عُوجَ بن عناق من العمالقة كان يتناول السمكة من البحر ، فيشويها فى الشمس ، ويُغفلون عن

والمساجد الثلاثة : مكة، والمدينة . و بيت المقدس أفضل بقاع الأرض. وقرة عين المسلمين .

فأما مكة ، فأوليتها أن الله لما بعث إبراهيم ، أوحى إليه . فترك إسماعيل وهاجر بالفلاة مكانَ البيت ، ونبعت زمزم . واتخذ إسماعيل موضع الكعبة بيتا ، وجاء إبراهيم من الشام لبناء الكعبة ، ودعا الناس إلى الحج ، و بقى إسماعيل و بنوه وأخوالهم من جُرْهُم . ثم العماليق . والناس يهرعون إليها من بنى إسماعيل ، والتبابعة ، والفرس ، ثم كثر ولد إسماعيل . وتشعبوا إلى كنانة وقريش ، وغلبت قريش على أمر البيت . و بناه قصى ، وسقفه بخشب الدوم وجريد النخل ، ثم أصابه سيل ، [illegible] جداره ثمانية عشر ذراعا ، وجعلوا الباب فوق القامة ، لئلا تدخله السيول . وأصابه حريق من النِّفط الذى رمت جيوشُ يزيدَ به ابنَ الزبير لما تحصّن به . فبنى على قواعد إبراهيم ، ورماه الحجاج بالمنجنيقات فهدمه ، ورده على قواعد قريش كما هى اليوم .

والبيت كان فضاء للطائفين ، لم يكن عليه جُدُر أيامَ النبى وأبى بكر ، ثم كثر الناس . فاشترى عمر دورا هدمها وزادها فى المسجد ، وأدار عليها جدارا ، وفعل مثله عثمانُ ، وابن الزبير ، والوليد ، وزاده المنصور والمهدى .

ومن تشريف الله له أن جعله مهبطَ الوحى والملائكة ، ومكان العبادة والحجِّ والتعظيم ، ومنع من خالف الإسلامَ من دخول الحرم ، وأوجب على

راكدا أو مجاورا للمياه الفاسدة أو المناقع المتعفنة أو المروج الخبيثة أسرع إليه العفن ، فأسرع المرض للحيوان الذى يعيش فيه .

وأما جلب المرافق فيراعى فيه الماء ؛ بأن يكون البلد على نهر أو عيون عذبة ؛ فإن الماء ضرورى ، وقربه يسهل على الساكن حياته .

وطيب المراعى ؛ إذ لابد من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب ، ولابد لها من المرعى القريب الطيب ليكون أرفق بها .

وقرب المزارع ؛ فمن الزروع الأقوات ، ومن الشجر الحطب للوقود . والسقف للبناء .

والقرب من البحر ، لتسهيل الحاجات الضرورية من البلاد النائية .

وهذه متفاوتة بتفاوت الحاجات ، وضرورة الساكن ، ولكن يجب مراعاتها وإلا أسرع إليها الخراب .

ويراعى فى البلاد الساحلية أن تكون فى جبل أو بين أمة موفورة العدد ؛ لأن المدينة إذا كانت حاضرة البحر ، ولم يكن بساحتها عصبيات ، ولا موضعها وعر ، سهُل طروقها بأساطيل العدو .

٣ – المساجد والبيوت العظيمة فى العالم :

الله فضَّل بقاعاً اختصها بتشريفه ، وجعلها مواطن لعبادته ، يضاعف فيها الثواب ، وأخبرنا بذلك على ألسن رسله ، تسهيلا لطرق السعادة .

ثم بني بيتُ لحم في المكان الذي ولد فيه عيسى . ولما جاء الإسلامُ ، وفتح عمرُ بيت المقدس ، بنى مسجدا على الصخرة ، ثم احتفل الوليد في تشييد مسجده ، وألزم ملك الروم أن يبعث الفعلة والمال للبناء ، ولما ضعف أمر الخلافة أيام العبيديين ، زحف الفرنجة إلى بيت المقدس فملكوه ، و بنوا على الصخرة كنيسة ؛ حتى إذا استقل صلاح الدين بمصر والشام ، زحف إلى الشام ، وغلب على بيت المقدس ، وهدم الكنيسة ، و بنى على الصّخرة المسجد على النحو الذي هو عليه الآن .

وأما المدينة فهي التي كان اسمها يثرب، ملكها بنو إسرائيل ثم غلبتهم عليها غسان ، ثم أُمر النبي بالهجرة إليها ، و بنى مسجده و بيوته ، وتمت كلمة الإسلام وفتح مكة ، وظن الأنصار أنه يتحول عنهم إلى بلده ، فأخبرهم أنه غير متحول حتى إذا قبض كان مَلْحَدُه بها .

وكانت للأمم القديمة مساجد يعظمونها على طريقة دياناتهم ، كبيوت النار للفرس ، وهيا كل يونان ، و بيوت العرب التي أمر النبي بهدمها .

٢ المباني في الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها :

ذلك لأن العرب أعرق في البدو ، وأبعد عن الصنائع ، فكانوا أجانب عن الممالك التي استولوا عليها ، واستغنوا بما وجدوا من مباني غيرهم ، وكان الدين أول الأمر مانعاً من المغالاة في البنيان ، فلما غلب الملك والترف ، شيّدوا المباني قريباً من انقراض الدولة ، ولم ينفسح الأمد للبناء إلا قليلا ، وليس كذلك

داخله التجرد من المَخيط ، وحَمى العائذَ به ، فلا يُصاد له وحش ، ولا يُحتَطَب له شجر .

وحد الحرم من طريق المدينة ثلاثة أميال إلى التنعيم ، ومن طريق العراق سبعة إلى الثنيَّة ، ومن طريق الطائف سبعة إلى بطن نمرة ، ومن طريق جدة سبعة إلى منقطع العشائر .

وأما بيت المقدس وهو المسجد الأقصى ، فكان أيام الصابئة موضع هيكل الزُّهرة ، يقرِّبُون إليه الزيت ، يصبونه على الصخرة ، ثم دثر الهيكل ، واتخذه بنو إسرائيل قِبلة لما خرج بهم موسى من مصر ، وصنع القبة ، ووضع فيها التابوت الذى فيه الألواح ، عِوضا عن الألواح المنزلة بالكلمات العشر لما تكسرت ، ووضع المذبح عندها ، وأراد داود بناء مسجده على الصخرة فلم يتم ، وعهد به إلى سليمان ، فبناه لأربع سنين من ملكه ، ولخمسمائة من وفاة موسى ، واتخذ عُمُدَه من الصُّفر ، وجعل به صرحَ الزجاج ، وغَشَّى أبوابَه وحيطانه بالذهب ، وصاغ هياكله وتماثيله وأوعيته ومنارته ومفتاحه من الذهب ، وجعل فى ظهره قبراً ليَضَع فيه تابوتَ العهد ، وأقام كذلك ، ثم ضربه بختنصر بعد ثمانمائة سنة ، وأحرق التوراة والعصا ، ولما أعادهم ملوك الفرس ، وتداولهم يونان والفرس والروم بَنَى صهرُهم هِيرُدُوس بيتَ المقدس على بناء سليمان ، فلما ملكهم طَيْطَش من ملوك الروم خرّبه ، ثم أخذ الروم بدين المسيح ، وجاء قُسْطَنْطِين ، وتنصَّرت أمُّه هَيْلانة ، وارتحلت إلى بيت المقدس ، و بنت كنيسة ،

أكثر وأوفر ، كان حاله في الترف أبلغ من حال المصر الذي دونه على الجملة ، ثم على الخصوصيات . فحال القاضي في الأول أوسع من حال القاضي في الثاني ، وكذا التاجر والصانع ، حتى ننتهي إلى الأمصار التي لا توفي أعمالها بضروراتها فأهلها متقاربون في الفقر .

٦

الأسعار في المدن :

الأسواق تشتمل حاجات الناس ، الضروري منها والكمالي ، فإذا استبحر المصر ، وكثر ساكنه ، رخصت أسعار الضروري من القوت ، وغلت أسعار الكمالي ، والسبب أن ضروريات القوت تتوفر الدواعي لاتخاذه . إذ لا يهمل أحد قوته . فيعم اتخاذها ، وكل منهم يفضل عنه وعن أهله فضلة تسد خلة كثيرين ، فتفضل الأقوات ، فترخص ، ولولا احتكار الناس لها بسبب توقع الآفات لبُذلت دون ثمن .

أما سائر المرافق فلا يستغرق اتخاذها أهلَ المصر أجمعين ، وإذا كان المصر موفور العمران ، كثير الترف ، توفرت الدواعي على الاستكثار منها ، فيقصر الموجود منها ، ويكثر المُستامُون لها ، ويبذل أهل الترف أثمانها بإسراف ، فيقع الغلاء .

أما الصنائع فسبب غلائها كثرة الحاجة ، واعتزاز أهل الأعمال في المدينة ، وكثرة المترفين وحاجتهم إلى استعمال الصناع وأهل الحرف للاستئثار بها .

الفرس ، فقد طالت مدتهم ، وكذلك القِبْطُ والروم وعادٌ وثمود والتبابعة ، فكانت مبانيهم أكثر وأبقى .

ص ٣١٠ : مبادئ خراب الأمصار :

الأمصار تكون أولا قليلة المساكن ، قليلة آلات البناء من الحجر والجير والرخام والزجاج ، فيكون بناؤها بدويًّا ، فإذا عظُم عمران المدينة ، كثرت الآلات بكثرة الأعمال والصناع ، فإذا تراجع عمرانها قلت الصنائع ، ففقدت الإجادة ، فيقل جلب الآلات ، ويصير بناؤهم من الآلات والأحجار التى فى مبانيهم ، ينقلونها من مبنًى إلى مبنى إلى أن يفقد الكثير منها ، فيعودون إلى البداوة ، ثم تمر فى التناقص إلى غايتها من الخراب .

تفاضل الأمصار والمدن بتفاضل عمرانها :

السبب أن الفرد غير مستقل بحاجاته ، وأن البشر متعاونون ، والأعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضروراتهم ، فتُصرف فى الترف ، وما يحتاج إليه غيرهم من الأمصار بعوضه ، فيكون لهم حظ من الغنى واتخاذ الخدم والمراكب ، فتنفق الأسواقُ ، ويكثر دخل المِصر وخرجه ، ويحصل اليسار ، ومتى زاد العمران زادت الأعمال ، فزاد الترف ، واستُنبطت الصنائع لتحصيله ، فزادت قيمتها ، وتضاعف الكسب ، فالمصر إذا فضُل ، فضل بزيادة كسبٍ ورفَه وعوائدَ من الترف لاتوجد فى الآخر ، فما كان عمرانه

ولقد ذهب المنجمون إلى أن عطايا الكواكب فيهم أكثر، ولكن السبب ما ذكرناه من كثرة الكسب بكثرة الأعمال. واعتبر ذلك في إفريقية وبرقة لما خف سكانهما وتناقص عمرانهما كيف تلاشى أهلهما، بعد كثرة الجبايات، واتساع الأحوال في دول الشيعة وصنهاجة. حتى كانت الأموال ترفع من القَيْروان إلى صاحب مصر لحاجاته؛ بحيث حمل جوهر في فتح مصر ألف حمل من المال لأرزاق الجنود.

تأثُّل العَقار والضِّياع:

تأثل العقار لا يكون دفعة واحدة، وإنما يحدث تدريجا بوراثة، أو بحوالة الأسواق. فالعقار والضياع في آخر دولة وأول الأخرى تفقد الغبطة لقلة المنفعة. فترخُص قيمتها، وتُتَملَّك بالأثمان اليسيرة، وتَتخطى بالميراث إلى ملك آخر وقد استجدّ المصر شبابه بالدولة الثانية، وانتظمت له أحوال تحصل معها الغبطة في العقار والضياع، فتعظم قيمها، ويصبح مالكها من أغنى أهل المصر.

وفوائد العقار لسد الخلة وضرورة المعاش، والقصد باقتنائها خشية الذرية الضعفاء، ليكون مرباهم بفائدته، وقد يحصل التمول والترف منه بالكثرة البالغة.

أما أهل الأمصار الصغيرة القليلة الساكن ، فأقواتهم قليلة ، فيتمسكون بما يحصل فى أيديهم ، ويحتكرونه ، فيعز وجوده ، ويغلو ثمنه ، أما مرافقهم فلا حاجة إليها ، فلا تنفق سوقها ، فتختص بالرخص .

وقد يدخل فى قيمة الأقوات المكوسُ والمغارم ، وقيمة علاجها وفلاحها ؛ وبذلك كانت الأسعار فى الأمصار أغلى من البادية ؛ إذ المكوس قليلة أو معدومة .

قصور البدو عن سكنى المصر الكثير العمران :

ص ٣١

ذلك لأنه يكثر ترفه ، وتكثر حاجات الترف ، فتنقلب ضرورات ، وتصير غالية من أجل الترف والمغارم السلطانية ، وتكثر نفقات ساكنه ، فيحتاج للمال الكثير ، والبدوىّ لم يكن دخله كثيراً ، فلا يتأثّل كسباً ولا مالا ، فيتعذر عليه سكنى المصر الكبير ، وهو فى بدوه يسد خلته بأقل الأعمال ، ومن يتشوف لسكنى المصر من البادية سريعاً مايظهر عجزه .

اختلاف الأقطار فى الرفه والفقر :

ماتوفر عمرانه وكثر ساكنه من الأوطان ، اتسعت أحوال أهله وأموالهم ، والسبب كثرة الأعمال ، لأنها سبب الثروة ، فيزيد الرفه والترف ، وتنفق الأسواق ، فيشمخ سلطانها ، ويتفنن فى اختطاط المدن والأمصار ، وربما يحسب ذلك لأن المعادن الذهبية والفضية أكثر بأرضهم ، وليس كذلك ،

ص
٢٤

الحضارة نهاية للعمران و إيذان بفساده :

الملك غاية للعصبية ، والحضارة غاية للبداوة ، وللعمران عمر محسوس ، والأربعون للإنسان غاية فى تزايد قواه ، والحضاره فى العمران كذلك ، لأن الترف إذا حصل لأهل العمران دعاهم إلى التفنن فيه ، و إذا بلغ التأنق الغاية تبعته الشهوات ، فتتلون النفس بألوان لا يستقيم معها دينها ولا دنياها .

فالتفنن فى الحضارة تعظم نفقاته ، والمصر الكثير العمران يختص بالغلاء ، فتخرج النفقات إلى الإسراف ، فتذهب بالمكاسب . و يتتابعون فى الإملاق . و يقل البيع . فتكسد الأسواق .

وداعية ذلك كله إفراط الحضاره ، وهى مَفْسدة للعمران ، وفساد أهلها من الكد فى الحاجات ، والتلوّن بألوان الشرّ فى تحصيلها ، وما يعود على النفس من الضرر بحصول لون آخر بعد تحصيلها ، فيكثر الفسق والشر والتحيُّل فى تحصيل المعاش من وجهه وغير وجهه ، فتجدهم أجْرياء على الكذب ، والمقامرة ، والفسق ، والسرقة ، والفجور فى الأَيْمان ، والربا فى البياعات ، ثم تجدهم أبصر بطرق الفسق والمجاهرة فيه ، وأبصر بالخديعة . يدفعون بها ماينالهم من القهر ، وما يتوقعونه من العقاب ، و إذا كثر ذلك فى الأمة تأذن الله بخرابها وانقراضها .

ص ٣٢١

حاجات المتمولين إلى الجاه :

إذا عظم تمول الحضرى وكثر عقاره زاحمه الأمراء والملوك ، فيتحيّلو عليه حتى يجعلوه فى ربقة حكم سلطانى وسبب من المؤاخذة ، فلابد لصاحب الثروة من حامية تذود عنه ، أو جاه أو عصبية ، وإلا أصبح نهباً .

ص ٣٢٢

حضارة الأمصار ترسخ برسوخ الدولة :

الحضارة أحوال زائدة على الضرورى ، تتفاوت بتفاوت الرفه ، وتقع عند كثرة التفنن فى أنواعها ، وتزداد استحكاما ورسوخا بطولها وانفساح أمدها ، وكثيرا مايقع ذلك فى الأمصار ، ويجىء ذلك من قبيل الدولة لأنها تجمع الأموال وتنفقها فى رجالها ، فيكون دخلها وخرجها فيهم وفيمن تعلق بهم من أهل المصر وهم الأكثر ، فتعظم ثروتهم ، وتتزيد مذاهب الترف ، وتستحكم الصناعة لديهم ، وهذه هى الحضارة .

ولهذا نجد الأمصار القاصية تغلب عليها البداوة ، بخلاف المدن المتوسطة التى هى مركز الدولة ، وذلك لمجاورة السلطان لأهلها ، وفيض أمواله فيهم .

وإذا اتصلت الدولة وتعاقب ملوكها استحكمت الحضارة فيهم .

وهذه أمور متناسبة ، منها كثرة الأمة ، وعظم المدينة ، وكثرة النعمة ، وعلى نسبة يسار الدولة يكون يسار الرعايا ، وعلى نسبة يسار الرعايا يكون مال الدولة .

الرابع : أن الدولة الثانية لابد فيها من تحويل أتباع الدولة السابقة إلى قطر يُؤمَن فيه غائلتهم ، وأكثر أهل الكرسي أشياع للسابقة ، فينقلون إلى وطنها المتمكن في مَلَكتها بالتغريب والحبس ، أو الكرامة والتلطف . وإذا ذهب من المصر أعيانُه نقص ساكنُه ، وذلك معنى اختلال عمرانه .

ثم لابد أن يستجد عمرانٌ آخر ، وذلك بمثابة من له بيت يريد إعادة بنائه ، فيخرِب ذلك البيت ثم يعيد بناءه .

والسبب الطبيعي الأول أن الدولة والملك والعمران بمثابة الصورة للمادة ، ولا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر ، فالدولة دون العمران لا تتصوّر ، والعمران دون الدولة متعذِّر . فاختلال أحدهما يؤثر في اختلال الآخر .

اختصاص بعض الأمصار بالصنائع:

أعمال المصر يستدعي بعضها بعضا ، ويختص ببعضها أهلُ المصر فيقومون عليه ، ويَستبصِرُون في صناعته ، ويجعلون رزقهم منه ؛ للحاجة إليه ، وما تستدعيه ضرورة المعاش يوجد في كل مصر ؛ كالخياط والحداد ، وما يستدعيه الترف يوجد في المدن المُستَبحِرة في العمارة والحضارة دون غيرها من المدن المتوسطة ؛ لأنها ليست داعية من كافة الناس ، وبقدر ماتزيد عوائد الترف في المصر تحدث صنائع تختص به دون غيره .

٣ **عواصم الملك تخرب بخراب الدولة:**

السبب فى ذلك أمور .

الأول : أن الدولة لابُدّ فى أولها من التجافى عن أموال الناس بتخفيف الجباية ، فتقل النفقات ، ويقصر الترف ، فإذا صار المصر الذى كان كرسيا للملك فى ملكة هذه الدولة المتجددة ، ونقصت أحوال الترف فيها ، نقصت فى الرعية ، تقليدا لمتبوعهم أو لقلة الفوائد ، فتقصر حضارة المصر ، وهو معنى الخراب .

الثانى : أن الدولة يحصل لها الغلب بعد العداوة والحرب التى تقتضى المنافاة بين أهل الدولتين ، وغلبُ أحد المتنافسين يذهب بالآخر ، فتكون أحوال الدولة السابقة منكرة عند الدولة الجديدة ، وخصوصا أحوال الترف ، فتفقد بإنكار الدولة الجديدة لها ، حتى تنشأ بالتدريج عوائد أخرى للترف ، فتكون حضارةٌ مستأنَفة ، مع قصور الحضارة الأولى ونقصها ، وهو معنى اختلال العمران .

الثالث : لكل أمة وطن ، وإذا ملكوا مُلكا آخر صار تبعا للأول ، واتسع الملك ، ولابد من توسط الكرسى بين تخوم المملكة لأنه شبه المركز ، فيبعد مكانه عن مكان الكرسى الأول ، كما وقع للسلجوقية فى عُدولهم عن بغداد إلى أصفهان ، وللعرب فى العدول عن المدائن إلى الكوفة والبصرة ، ولبنى العباس فى العدول عن دمشق إلى بغداد .

وصارت الأعجمية دخيلة ، ثم فسد اللسان العربى — بمخالطتها — فى بعض أحكامه ، وتغيّر أواخره ، وإن بقى فى الدلالات على أصله ، بخلاف لغة البدو ، فإنها كانت أعرق فى العروبية . ولما تملك العجم فسد اللسان العربى ، وكاد يذهب — لولا عناية المسلمين بالكتاب والسنة ، فأما من التتر والمغول . ولم يكونوا على الإسلام ، ذهب أمرهم ، وفسدت اللغة على الإطلاق ، إلا قليلا يقع تعليمه صناعيا . وربما بقيت بمصر والشام والأندلس والمغرب لبقاء الدين ، وأما فى ممالك العراق فلم يبق لها أثر ، حتى إن كتب العلوم تكتب باللسان الأعجمى .

٣٢ تغلب أهل العصبية فى الأمصار :

كثير من أهل الأمصار ملتحمون بالصِّهر ، و بينهم من العداوة والصداقة ما بين القبائل ، فإذا نزل الهرم بالدولة ، وتقلص ظلُّها عن القاصية ، احتاج أهل الأمصار لحماية بلدهم ، وتميّز العِليةُ عن السِّفلة ، فتطمح المشيخة إلى الاستبداد ، و ينازع كلٌّ صاحبه ، و يستوْصِلون بالأتباع ، و يَبْذُلون للأوغاد ، فيعصوصب كل لصاحبه ، و يتعين الغلب لبعضهم ، فينعطف على أكفائه بالقتل والتغريب ، و يستحدث ملكا يورّثه عَقِبَه ، فيحدث فيه ما يحدث فى الملك الأعظم من الجدة والهرم ، وربما يسمو هؤلاء إلى منازع الملوك الأعاظم ، فينتحلون السرير والمواكب وغيرها من شارات الملك ؛ لتقلّص الدولة،والتحام القرابات حتى تصير عصبية ، وغالبا ما يكون ذلك فى أهل السروات والبيوتات المرشحين لرياسة المصر ، وقد يحدث ذلك لبعض الغوغاء .

لغات أهل الأمصار :

لغات الأمصار تكون بلسان الغالبين عليها أو المختطين لها ، ولذلك كانت لغات الأمصار الإسلامية عربية ، و إن كان اللسان المُضَرى فسد إعرابه بسبب الغلب على الأمم ، والدين والملة صورة للوجود وللملك ، وكلها موادّ له،والصورة مقدمة على المادة ، والدين يستفاد من الشريعة ، وهى بلسان العرب ، فلما هجر الدين اللغات الأعجمية ، هجرت الأمم لغاتهم، وصار اللسان العربى لسانهم،

الجباية، أو من الحيوان الوحشى؛ باقتناصه من البر أو البحر ـ وهو الصيد ، أو من الدّاجن؛ باستخراج فضوله كاللبن والعسل والحرير ، أو من النبات؛ باستخراج ثمره ـ وهو الفلاحة ، أو من الأعمال فى الصنائع ، أو من البضائع بالتجارة . وهذا معنى ماقالوه : المعاش إمارة وتجارة ، وفلاحة وصناعة . فأما الإمارة فليست بمذهب طبيعى المعاش ، وأما الفلاحة فهى أقدم وجود المعاش ؛ إذ هى بسيطة وطبيعية لاتحتاج إلى علم ، والصنائع ثانيتها ، لأنها مركّبة ، ولذا لاتوجد غالبا إلا فى الحَضَر ، والتجارة تحيُّلات للحصول على مابين البيع والشراء من فائدة.

الخدمة ليست من المعاش الطبيعى :

لابد للسلطان من اتخاذ الخدمة من الجندى والشرطى والكاتب ، وهو يتكفل بأرزاقهم ، أما مادون ذلك من الخدمة فسببها ترفّع المترفعين عن مباشرة حاجاتهم ، أو عجزهم ، فيتخذون من يتولى ذلك ، ويقطعونه أجرا ، وهذه الحالة غير محمودة ؛ لأنها تزيد فى الخرج ، وتدل على العجز .

ليس من المعاش الطبيعى ابتغاء الدفائن والكنوز :

ضِعاف العقول يعتقدون أن أموال الأمم السالفة مختزنة تحت الأرض ،عليها طلاسم لايفُض ختامها إلا من استحضر ما يحله من البخور والدّعاء والقَربان ، فإذا لم يعثروا على شىء ردُّوا ذلك إلى الجهل بالطلسم ، والذى يحمل على ذلك ضعفٌ عن طلب المعاش ، وركون إلى تناوله من غير تعب ، وتمنِّى وجود

الباب الخامس

المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع

ن
٣٢

الرزق والكسب :

الإنسان مفتقر بالطبع إلى مايقوته ، والله خالق جميع مافى العالم للإنسان، ويد الإنسان مبسوطة على العالم وما فيه؛ لما له من الاستخلاف عليه ،وأيدى البشر مشتركة فى ذلك ، وما حصلت عليه يَدٌ امتنع على الآخر إلا بِعوَض، فالإنسان متى اقتدر سعى فى تحصيل حاجاته ، فتكون المكاسب له معاشا ورياشا ومتموَّلا ، فإذا عادت منفعته عليه سُمِّى رزقا ، وإن لم ينتفع به أو كان غصبا سمى كسبا ، والكسب بالسعى فى الاقتناء والقصد إلى التحصيل ، والله خلق الذهب والفضة قيمة لكل متموَّل ، وما يقتنيه الإنسان إن كان من الصنائع فالمفاد المقتنى منه قيمةُ عمله ، وإذا فُقِدت الأعمال أو قلّت تأذّن الله برفع الكسب ، فيذهب الرزق ، حتى العيون والأنهار ينقطع جريانها لقلة الإنباط والامتراء .

وجوه المعاش ومذاهبه :

المعاش هو ابتغاء الرزق ؛ بأخذه من يد الغير على قانون متعارف ــ وهو

وأعانهم على دنياهم ـ أسرعت إليهم الثروة بما يحصل لهم من قيم الأعمال ، وسعى الناس لهم فى الفلح والتجر وهم قاعدون بمنازلهم .

الكسب يحصل لأهل التملق :

الكسب على قدر العمل ، والعمل على قدر حاجة الناس إليه ، والجاه يفيد صاحبه المال ، والجاه متوزّع فى الناس طبقات ؛ لأن الإنسان لا يتم وجوده إلا بالتعاون ، وهو لا يحصل إلا بالإكراه ؛ لجهل أكثر الناس بمصالح النوع ، وقد يمتنع البعض عن المعاونة فيتعين حمله عليها ، والجاه هو القدرة الحاملة للبشر على جلب منافعهم ودفع مضارهم ، والجاه يضيق أو يتسع حسب الطبقة والطور الذى فيه صاحبه ، فإن كان متسعا كان الكسب الناشئ عنه كذلك ، وإن كان ضيّقا فمثله ، وفاقد الجاه ـ كأكثر التجار وأهل الفلاحة والصنائع ـ يصير إلى الخصاصة .

وصاحب الجاه يبذله لمن تحت يده بعزّة ، فيحتاج طالبه إلى خضوع وتملق ، والخضوع والتملق من أسباب حصول الجاه المحصّل للسعادة والكسب . وكثير من أهل الترفع والشمم لا يحصل لهم غرض الجاه ، فيقتصرون بالكسب على أعمالهم ، ويصيرون إلى الفقر ، وهذا الترفع يحصل لهم من توهم الكمال ، وأن الناس يحتاجون إلى بضاعتهم من علم أو صناعة ، أو وراثة أو نسب ، أو حيلة أو تجارب ، وهؤلاء لا يخضعون لاعتقادهم الفضل على الناس ، فيستنكف أحدهم من الخضوع ويعدّه مذلة ، ويحاسب الناس فى معاملتهم إياه بمقدار

المال العظيم دَفعةمن غير كُلفة : بالكيمياء أو بالسحر ، وذلك فى الحقيقة لاأصل له فى علم ولا فى خبر .

والكنوز و إن كانت توجدفى النادر كالرِّكاز ، فذلك بالاتفاق لا بالقصد ، فمن اختزن ماله ، وختم عليه بالطلاسم فقد بالغ فى إخفائه ، فكيف ينصِب عليه الأدلة والأمارات لمن يتبعه ؟

وأما قولهم : أين أموال الأمم قبلنا ؟ فالأموال معادن ومكاسب متوارَثة ، ربما انتقلت من قطر إلى قطر ، والمعادن يُدركها البَلاء .

وأما ماوقع بمصر من الكنوز فسببه أنهم كانوا يدفنون موتاهم بموجودهم من الذهب والجواهر ، فلما ملك الفرس واليونان بلادهم نقروا قبورهم وكشفوا عنه ، وصارت قبورهم مظَنة لوجوده .

الجاه مفيد للمال :

ص ٣٤

لأن صاحب الجاه مخدوم يتقرّب إليه بالأعمال ، يَستعمل الناس بلاعِوض فى الأعمال الكثيرة ، فتحصُل قِيَمُ تلك الأعمال ، فتفيد الغنى لأقرب وقت . ولهذا كانت الإمارة أحد أسباب المعاش .

وفاقد الجاه ولو كان صاحب مال فلا يَسار له إلا بمقدار ماله ، وهؤلاء هم أكثر التجار .

وأهل الدين إذا حسُن الظن بهم ، واعتقد الجمهور معاملة الله فى إرفادهم ،

ابتذالُ أنفسهم لأهل الدنيا ، فلذلك لاتعظم ثروتهم فى الغالب .

الفلاحة معاش المستضعَفين :

لأنها أصل فى الطبيعة ، و بسيطة فى منحاها ، ولما يتبعها من الغرم المفضى إلى التحكم ، فيكون صاحبها ذليلا بائسا ؛ بما تتناوله الأيدى من القهر والاستطالة والتسلط .

مايتوهم فى نفسه ، ويحقد على من قصّر له فى شىء ، ويستمر فى عناء من إيجاب الحق لنفسه وإباَية الناس له ، ويحصل له المقْتُ من الناس بسبب الترفع ، ويفقد الجاه من الطبقة الأولى التى هى أعلى منه ، فيفسُد معاشه ولا تحصُل له الثروة .

ومن هذا اشتهر بين الناس أن الكامل فى المعرفة محروم من الحظ ، وأن مارُزق من المعرفة اقتُطع من الحظ ، وقد يرتفع كثير من السِّفلة ، وينزل كثير من العِلية بسبب ذلك ؛ لأن السلطان يتساوى عنده كل من انتمى إلى خدمته ، وتقرب إليه بنصيحة ، فتجد كثيرا من السوقة يَتزلَّف إليه بوجوه خدمته ، ويستعين على ذلك بعظيم الخضوع والتملق ، حتى يرسخ قدمُه،فيحصل له حظ عظيم من السعادة، وينتظم فى أهل الدولة ، ويميل إليه السلطان،ويمقت المُعتزِّين بأنفسهم وأنسابهم من أهل الدولة .

القائمون بالدين لاتعظم ثروتهم :

لأن الكسب قيمة الأعمال ، وكلما كانت الأعمال ضرورية فى العمران كانت قيمتها أعظم ، وأهل هذه البضائع الدينية لاتضطر إليهم عامة الخلق ، فلا يتساوون بأهل الشوكة ولا بأهل الصنائع ، وهم لشرف بضائعهم أعِزّة على الخلق ، فلا يخضعون لأهل الجاه حتى ينالوا حظا يستدرون به الرزق ، ولا تفرغ أوقاتهم لذلك بسبب ماهم فيه من إعمال الفكر والبدن ، ولا يسعُهم

وقد يدفعونها إلى وكلائهم وحَشَمِهم ، ليبعُدوا عن هذه الأخلاق ببعدهم عن الأفعال المقتضية لها .

٦

نقل السلع :

التاجر البصير لاينقل من السلع إلا ما نَعم الحاجة إليه ، وإذا نقلها فإنما ينقل منها الوسط ، فإن العالى منها يختص به أهل الثروة وهم الأقل .

ونقل السلع من البلد البعيد ، أو في شدة الخطر في الطرقات ـ أكثر فائدة للتجار ؛ لأن السلعة تكون قليلة . لبعد مكانها . أو شدة الغرر في طريقها ، فيقل حاملوها ، وتغلو أثمانها .

الاحتكار :

احتكار الزرع لتحيُّن الغلاء مشئوم ، يعود بالتلف والخسران ، لأن الناس بسبب حاجتهم إلى الأقوات مضطرون إلى ما يبذلون من الأموال ، فتبقى النفوس متعلقة به ، وفى ذلك سرٌ وباله على من يأخذه ، وهو السر الذى اعتبره الشارع فى أخذ أموال الناس بالباطل ، لأنهم يدفعونها كالمكرهين بسبب ضرورة الأقوات ، فمن عُرف بالاحتكار ، تجتمع القوى النفسية على متابعته ، فيفسد ربحه .

رِخَص الأسعار مضر بمحترفى الرخيص :

إذا استُديم الرخص فى سلعة فسد الربح والنماء بطول المدة ، فقعد التجار

التجارة

التجارة ومحترفوها وأخلاقهم :

التجارة محاولة الكسب؛ بشراء السلع بالرِّخَص وبيعها بالغلاء ، إما باختزان السلع انتظارا لحوالة الأسواق، أو بنقلها إلى بلد تنفُق فيه ، أو ببيعها بالغلاء على الآجال . ولا بدّ فى التنمية من حصول المال بأيدى الباعَة .

وأهلُ النصفة قليل ، فلا بد من الغِش والتّطفيف المُجحِف بالبضائع ، والمَطْلِ فى الأثمان المجحف بالربح ، والإنكارِ المُسحِت لرأس المال إن لم يتقيد بالكتابة والشهادة ، فيعانى التاجر من ذلك ، ولا يكاد يحصل على التافه من الربح إلا بالعناء والمشقة ، وإذن فلا بد له من الجرأة ، أو الجاه الذى يُوقع له الهيبة ، ويحمل الحكام على إنصافه ، وأما من كان فاقد الجراءة من نفسه ، فاقد الجاه من الحكام ، فينبغى له أن يجتنب التجارة لأنه يعرض ماله للضَّياع .

وخلق التجار نازلة ، لأنهم يعانون البيع والشراء ، ولا بد لهم من المكايَسة ، وهى بعيدة عن المروءة ، ويتبع ذلك المُماحَكةُ ، والغش ، والخلابة ، والأَيمان الكاذبة ، ولذلك تجد أهل الرياسة يتحامون هذه الحرفة،

الصناعة

الصنائع لا بد لها من معلم :

الصناعة ملكة في أمر عملي فكري ، فهي عمل جسماني . فنقلها بالمباشرة أوعب وأكمل ، لأن المباشرة في الأحوال الجسمانية خصوصية أتم . والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال الفعل وتكرره حتى ترسخ صورته . ونقل المعاينة أوعب من [illegible] يكون حذق المتعلم في الصناعة .

والصنائع منها البسيط والمركب . والمركب يكون للكماليات . أما البسيط فهو المتقدم في التعليم لبساطته ، ولأنه مختص بالضروري ، فيكون سابقا في التعليم .

ولا يزال الفكر يخرج أصناف الصناعة من القوة إلى الفعل بالاستنباط حتى تكمل بالتدريج .

والصنائع في الأمصار الصغيرة ناقصة ، ولا يوجد منها إلا البسيط ، فإذا تزايدت حضارتها ، ودعا الترف إلى الصنائع خرجت من القوة إلى الفعل .

وتنقسم الصنائع إلى ما يختص بالمعاش وإلى ما يختص بالأفكار . فمن

عن السعى فيها ، وفسدت رءوس أموالهم ، فيصيرون إلى الفقر ، وتقل الجباية ، فإن الرخص المفرط يُجحف بمعاش المحترفين ، فإذا كسدت سوق صنف من الأصناف فسد حال كل المحترفين ، كالعسل إذا استديم رخصه فسدت أحوال زُرّاعه وصناعه ومنتجيه لقلة الربح .

والغلاء المُفرِط كذلك ، وإنما معاش الناس وكسبهم فى التوسط من ذلك وسرعة حوالة الأسواق .

ويُحمَد الرخص فى الزرع لعموم الحاجة إليه واضطرار الناس إلى الأقوات فيعم الرّفق ، ويرجُح جانب القوت على جانب التجارة .

عمرانها بقيت فيها آثار الصنائع ، لأن أحوالها مستحكمة ، كما نجد في الأندلس رسوم الصنائع من المباني والطبخ والغناء ، وتنضيد الفرش وصنع الآنية وسائر الصناعات التي يدعو إليها الترف وإن كان عمرانه قد تناقص ، وذلك لرسوخ قدمها في الحضارة برسوخ الدولة الأموية وماقبلها من القوط ومابعدها من الطوائف ، وكذلك حال تونس وإن كانت دون الأندلس ، إلا أنه تضاعف بما ينقل إليها من مصر ، لقرب المسافة ، وتردد المسافرين بينهما ، فينقلون من صنائعها مايقع لديهم موقع الاستحسان .

الصنائع تكثر إذا كثر طالبوها :

الإنسان لايسمح بعمله مجانا : لأنه كسبه ومعاشه ، وإذا كانت الصناعة مطلوبة كانت بمثابة السلعة ، فيجتهد الناس لتعلمها ، ليكون منها معاشهم ، وإذا لم تكن مطلوبة فلا يتوجه الناس لتعلمها ، فتفقد بالإهمال ، وأيضاً فالصنائع تطلبها الدولة ، فهي التي تنفق سوقها ، والدولة هي السوق العظمى ، فما نفق فيها كان أكثريا .

وكذلك إذا ضعفت أحوال المصر بانتقاص عمرانه تناقص فيه الترف ، فتقل الصنائع : لأن صاحبها لايصح بها معاشه ، فيفر إلى غيرها ، أو يموت ولا يكون خلفٌ منه ، فيذهب رسم الصنائع جملة .

الأول الحياكة ، والجزارة ، والنجارة، والحدادة ، ومن الثانى الوراقة، والغناء ، والشعر ، وتعليم العلم .

ص ٣٤ الصنائع تكمل بكمال العمران :

الصنائع والعلوم إنما هي للإنسان من حيث فكره ، والقوت له من حيث الحيوانية والغذاء ، فهو مقدّم على الصنائع ، وعلى مقدار العمران تكون جودة الصنائع ، لتوفّر دواعى الترف والثروة ، أما العمران البدوى فلا يحتاج من الصنائع إلا البسيط من الضروريات ، و إذا زخر العمران ، وطُلبت الكمالات كان من جملتها التأنّق فى الصنائع ، فكملت، وتزايدت صنائع تدعو إليها عوائد الترف من جزّار ، ودباغ ،وخراز، وصائغ ، وتكون من وجوه المعاش ، بل تكون من أعظم فوائد الأعمال ؛ لما يدعو إليه الترف من وجود كثير من الكمالات مثل الدهّان ، والحمّامىّ ،والطّباخ ، والهرّاس ، ومعلم الغناء والرقص، والوراقين الذين يعانون انتساخ الكتب وتجليدها وتصحيحها ، مما يدعو إليه الاشتغال بالأمور الفكرية،وقد تخرج عن الحد بخروج العمران عن الحد ، كتعليم الطيور والحُمُر ، وتعليم الحداء والرّقص والمشي على الخيوط ، وغير ذلك من الصنائع .

ص ٣٥٠ رسوخ الصنائع برسوخ الحضارة :

السبب أنها من العوائد ، والعوائد ترسخ بالتكرار ، و إذا استحكمت الصِّبغة عسر نزعها ، ولهذا نجد الأمصار التى استبحرت فى الحضارة لما تراجع

أمهات الصنائع

الصنائع كثيرة تند عن الحصر. إلا أن منها ما هو ضروري [illegible]
ومنها ما هو شريف بالموضوع.

فالضروري كالفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياكة، والشريف بالموضوع كالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب. وما سوى ذلك فتابعة أو ممتهنة في الغالب.

الفلاحة :

ثمرتها الأقوات والحبوب بالقيام على إثارة الأرض وعلاج نباته وحصاده واستخراج حبه. وهي أقدم الصنائع: لأنها محصلة للقوت المكمل لحياة الإنسان. [illegible] وهي قديمة من الحضر، وصنائع الحضر بعدها.

صناعة البناء :

أول صنائع الحضر. وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت، لأن الإنسان يفكر في دفع الحر والبرد باتخاذ البيوت المكتنفة بالسقف والحيطان. والبدو لقصورهم يبادرون للكهوف

٣ العرب أبعد الناس عن الصنائع :

والسبب أنهم أعرق فى البدو،وأبعد عن الحضر وما يدعو إليه من الصنائع. ولذلك نجد أركان العرب وماملكوه فى الإسلام قليل الصنائع ، ومثلهم البربر بالمغرب ، وأما المشرق فقد رسخت فيه الصنائع منذ ملكه الفرس والنّبَط والقِبط و يُونان والرُّوم أحقاباً متطاولة ، وأما اليمن والبحرين وعُمان والجزيرة و إن ملكها العرب إلا أنه تداول مُلكها أمم كثيرة آلافا من السنين ، فطال أمد الحضارة ، وتوفرت الصنائع و بقيت ، واختْصت بصناعة الوشْى وحوك الثياب والحرير .

٣' من أجاد صناعة قلّ أن يجيد غيرها :

مثال ذلك الخياط إذا أجاد ملكة الخياطة وأحكمها ، فلا يجيد بعدها النجارة أو البناء، إلا أن تكون الأولى لم تستحكم بعد ، والسبب أن الملكات صفات للنفس ، فلا تزدحم دفعة ، ومن كان على الفطرة كان أحسن استعداداً لقبول الملكات ، فإذا تلوّنت النفس بملكة خرجت عن الفطره ، وضعف استعدادها لقبول الأخرى ، وقل أن تجد صاحب صناعة يحكمها ثم يحكم معها أخرى على رتبة واحدة ، حتى أهل العلم بهذه المثابة .

وقد يعرف صاحب هذه الصناعة شيئاً من الهندسة ، مثل تسوية الحيطان بالميزان ، وإجراء المياه بأخذ الارتفاع ، وجر الأثقال إلى مكانها بصناعة قوة الحمل ؛ بإدخاله في المعلق من الثقب مقدرة على نسب هندسية تصير الثقيل عند معاناة الرفع خفيفاً .

صناعة النجارة :

مادتها الخشب الذي يتخذ منه البدو العمد والأوتاد والرماح والقسي والسهام ، ويتخذه أهل الحضر للسقف والأبواب والكراسي . ولا تخرج إلى الصورة الخاصة بها إلا بالصناعة . وهي ضرورية للعمران . وإذا حصل الترف والتأنق تحدث الفنون في النجارة بالغرائب كالتأليف بين القطع المخروطة والتشكيل ، حتى تبدو الأشياء مستحسنة . وتحتاج إليها في إنشاء المراكب على تشكل الحوت .

وهذه الصناعة محتاجة إلى الهندسة ، لأن إخراج الصور من القوة إلى الفعل محتاج لمعرفة التناسب في التقادير .

الحياكة والخياطة :

هما ضروريتان للعمران لحاجة البشر إلى الرفه .

فالأولى لنسج الصوف والكتان والقطن سداً في الطول وإلحاماً في العرض ، فيتم منها الأكسية والثياب .

والثانية لتقدير المنسوجات : تفصل بالمقراض قطعاً مناسبة للأعضاء

أما المتخذون للبيوت فقد يتكاثرون فى البسيط الواحد بحيث ينتاكرون ؛ فيخشَوْن طُروق بعضهم بعضا ، فيحفظون مجتمعهم بإدارة ماء أو سور يحوطهم ، و يصيرون بذلك فى مدينــة واحدة أو مصر واحد يحوطهم ، والحــكام مِن داخِلَ يدفعون بعضهم عن بعض ، ومنهم من يسكنون المعــاقل والحصون هم ومَن تحتَ يدهم .

ومنهم من يتخذ القصور المتعددة الدور والغرف ، و يبــالغ فى التنميق ، و يهيء الأسراب والمطامير للاختزان ، ومنهم من يبنى الدُّوَيْرة والبيوت لقصور حاله ، و بين ذلك مراتب .

و يُحتاج لهذه الصناعة لتأسيس المدن والهياكل .

وهذه الصناعة تــكون فى الأقاليم المعتدلة ، وأهلها متفاوتون ، منهم الماهر ومنهم القاصر .

وهى أنواع : منها البناء بالحجارة المنجَّدة ؛ تُلصق بالطين والــكِلْس ، ومنها البنــاء بالتراب ؛ يُنصَب لوْحان من الخشب متقابلان ، بينهما عرض الأساس ، يُملأ بالتراب والــكلس ، و يُركَّز بالمراكز حتى يتم الحائط .

ومن صنائع البناء أن تُجلَّل الحيطان بالــكلس ، ومنها عمل السقف بِمدّ الألواح موصولةً بالدساتر ، و يصَب عليها الــكلس ، ومنها التنميق ؛ بصنع الأشــكال المجسَّمة مــن الجص فوق الحيطان ، و بناء الجِباب والصهاريج والقنوات للماء ، و يرجع الحــكام إلى أهل هذه الصناعة فيما لهم بصرٌ به وخبرة فيما يقع من نزاع بين المتجاورين .

بالمدوا [illegible] الامرض [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

هي السودا [illegible]

[illegible] واعضم [illegible]

[illegible]

وأصل [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

ووقوع الامرض [illegible]

[illegible]

المدنيه ، ثم تأتي بالخياطة المحكمة: وصلاً ، أو بيناً ، او بيساً ، والخياطة محتصة بالعمران الحضري ، لأن أهل البدو يشملون الأثواب اشمالاً ، ولهذا كان سر تحريم المخيط في الحج لمد العلائق الدنيويه . والرجوع إلى الله كما خلقنا

ص ٣٥٩

صناعة التوليـد :

صناعه يعرف بها استخراج المولود من بطن أمه، وما يصلحه بعد الخروج ، وهي مختصه بالنساء غالباً ، ويسمى القائمة بها : القابلة ، وهي معينة للنفساء في آلام الطلق وإخراج الجنين ، وقطع الفضله عن السرة ، وتكميل الخراج ، ومراجعة النفساء لخروج الأغشيه حتى لا تبقى في الرحم ، وإصلاح أعضاء الجنين ، وتمريخ أعضائه بالأدهان ، وتجفيف رطوبات الرحم ، ثم تحنكه لرفع لهاته ، وتسعطه لاستفراغ بطون دماغه وتغرغره لدفع السدود من معاه عن الالتصاق ، وكذلك مايعرض له مده الرضاع ، مما تجد القوابل أبصر به .

وقد يستغني عن هذه الصناعه بعض الأشخاص ، إما معجزة كما روى أن النبي ولد مسروراً مختوناً واضعاً يديه على الأرض ، شاخصاً ببصره إلى السماء . وكشأن عيسى في المهد ، وإما إلهاماً كما يقبل المولود على الثدي ، وكما يحدث حتى للحيوانات العجم .

ص ٣٦٤

صناعة الطب :

صناعه ضرورية في المدن والأمصار ، وثمرتها حفظ الصحة ودفع المرض

ثم انحل نظام الدولة الإسلامية ، فانتقل شأن الخط والكتابة والعلم إلى مصر ، فلم تزل أسواقه بها نافقة ، وله معلمون لتعليم الحروف بقوانين وضعها وأشكالها ، وأما إفريقية والمغرب فصارت على الرسم الأندلسي ، حتى تقلص ظل الموحدين ففسدت رسومه ، ومال إلى الرداءة حتى إذا انتسخت الكتب ، فلا فائدة لمتصفحها إلا العناء والمشقة ؛ لكثرة الفساد والتصحيف . وقد وقع فيه ماوقع في سائر الصنائع بنقص الحضارة ، وبقيت إجادة الخط بالمشرق للعجم .

صنـــــاعة الوراقة :

لما كثرت التآليف العلمية ، والدواوين ، وحرص الناس على نقلها فانتُسخت وجلّدت ، جادت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكُتْبية ، واختصت بالأمصار العظيمة العمران ، وكانت السجلات لانتساخ العلوم والرسائل السلطانية في الرُّقوق [١] ، ثم طما بحر التأليف والتدوين ، وضاق الرّق ، فأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد [٢] ، واتخذه الناس ، وبلغت الإجادة في صناعته ماشاءت ، ثم قصرت عناية أهل العلوم على ضبط الدواوين العلمية وتصحيحها بالرواية المُسنَدة إلى قائليها ، وكانت هذه الرسوم بالمشرق والأندلس على غاية الإحكام والصحة ، ثم ذهبت بانقطاع العمران ، وكثر التصحيف والخلل .

---

(١) جمع رق ، وهو الصفحة من الجلد .
(٢) الكاغد : الورق .

فيصير الغـذاء مزيجا غريبا عن ملاءمة البدن ، والأهوية فى الأمصار تفسد بمخالطة العفن ، والرياضة مفقودة ؛ لأن أهل الأمصار وادعون ساكنون . لذلك كانت حاجتهم إلى صناعة الطب أكثر.

أما أهل البدو فمأكولهم قليل ، والأُدُم قليلة ، وهم بمعزل عن علاج الطبخ بالتوابل ، فأغذيتهم بسيطة ملائمة للبدن ، وأهويتهم قليلة العفن،والرياضة فيهم موجودة فى ركض الخيل والصيد ، فيحسن الهضم ، فتـكون أمزجتهم أصلح، فتقل حاجتهم إلى الطب .

الخط والـكتـابة :

الـكتابة من خواص الإنسان التى تميز بها عن الحيوان ، فهى تُطلِـع على مافى الضمائر ، وتتأدى بها الأغراض إلى البلد البعيد ، ويُطَّلَع بها على العلوم والمعارف ، وتـكون للإنسان بالتعليم، وعلى قدر العمران ، لذلك تكون جودة الخط فى المدينة ، وأكثر البدو أميون .

وقد بلغ الخط العربىّ الإتقان فى التبابعة للترف ، وانتقل إلى الحيرة فى آل المنذر ، ومنها لُقِّنَه أهل الطائف وقريش ، وكان لحِمْير كتابة تسمى المسند ، حروفها منفصلة ، ومنهم تعلمت مُضَر ، وكان الخط العربى ـ أول الإسلام ـ غير بالغٍ الغايةَ ؛ لمـكان العرب من البداوة ، ثم لما فتحوا الأمصار ، ونزلوا البصرة والـكوفة، استعملوا الخط وتعلموه،فترقّى واستحكم ، ثم انتشر العرب فى الأقطار وترقّت الخطوطُ لما استبحر العمران فى بغداد ، وتنافس أهل الأقطار فى ذلك،

والحَسَن فى المسموع أن تكون الأصوات متناسبة لا متنافرة . والأصوات لها كيفيات من الهمس والجهر والرخاوة والشدة ، والقلقلة والضغط .

والتناسب ألا يخرج الصوت إلى مداه دفعة ، بل بتدريج ، وبتوسط الصوت المغاير بين الصوتين ، وتناسبها فى الأجزاء أن يخرج الصوت إلى نصفه أو ثلثه .

ومن التناسب مايكون بسيطا ، والكثير من الناس مطبوع عليه لايحتاج لتعليم ، كترتيل القرآن ، ومنه مايحدث بالتركيب وهو التلحين الذى يتكفل به علم الموسيقى .

والغناء يحدث فى العمران إذا تجاوز الضرورى إلى الكمالى ، وكان لملوك العجم اهتمام به وله مكان فى دولتهم ، وأما العرب فكان لهم فن الشعر ، يؤلفونه على أجزاء متساوية فى عدد الحروف الساكنة والمتحركة ، فامتاز من بين كلامهم ، وهذا التناسب جزء من تناسب الأصوات ، ثم تغنى الحداة بالحداء إبلهم ، وربما ناسبوا بين النغمات مناسبة بسيطة ، فلما جاء الترف ، وذهب المغنون من الفرس والروم إلى الحجاز ، وصاروا موالى للعرب ، وغنوا بالعيدان والطنابير ، وسمع العرب تلحينهم للأصوات لحنوا عليها الأشعار .

وتدرجت صناعة الغناء ، حتى كملت أيام العباسيين عند إبراهيم بن المهدى وإبراهيم الموصلى ، وابنه إسحق وابنه حماد . وكان لهم غلام اسمه زرياب ، أخذ عنهم الغناء ، فصرفوه إلى المغرب ، وورث الأندلس صناعة

س ٣٦

صناعة الغنـــاء :

هى تلحين الأشعار على نِسب منتظمة ، يُوقَّع كل صوت منها فيكون نغمة ، ثم تُؤَلَّف النغمُ على نسب متعارفة فيلذ سماعها للتناسب ؛ وذلك أن الأصوات تتناسب ، فيكون صوت نصفَ صوت ، وربع آخر ، وخمس آخر ، واختلاف هذه النسب عند تأديتها يخرجها من البساطة إلى تراكيب خاصة ، وقد يُساوِق ذلك التلحينَ نغماتٌ أخرى من الجماد، بالقَرْع، أو النفخ فى آلات ، منها الشبابة [١] وهى قصبة جوفاء ذات أبخاش [٢] ، يُقطَّعُ الصوتُ بوضع الأصابع على تلك الأبخاش ، ومنها المِزمار وهو شكل القصبة منحوتة من الخشب، ذو أبخاش يصوِّت بنغمة حادة ، ومنها البُوق من نُحاس أجوف مَخرَجه فى شكل بَرْىِ القلم ، يُقَطَّع نغمُه بالأصابع ، ومنها آلات الأوتار ، وهى جوفاء على شكل الكرة مثل البَرْبَط والرَّباب ، أو مُرَبَّع كالقانون ، تُوضَع الأوتار على بَسائطها مشدُودَة فى رأسها إلى دساتر [٣] جائلةٍ لشَدِّ الأوتار ورَخْوِها ، وتُقْرَع الأوتارُ بعود أو بِوَتَرٍ مشدود بين طرفَىْ قوس ، ويقطَّع الصوتُ بتخفيف اليد فى إمراره ، واليد اليسرى توقِّع بأصابعها على أطراف الأوتار .

---

(١) الناى .
(٢) ثقوب .
(٣) مفاتيح .

الباب السادس

العلوم والتعليم

الفكر الإنسانى:

ميّز الله البشر بالفكر ، وجعله نهاية فضله على الكائنات ، لأن الإدراك وهو شعور المدرك فى ذاته بما هو خارج عن ذاته خاص بالحيوان ، والحيوانات تشعر بما ركّب فيها من الحواس الظاهرة كالسمع والبصر ، ويزيد الإنسان أنه يدرك بالفكر الذى وراء حسه ، بقوى فى بطون دماغه ينتزع بها صور المحسوسات ويجرد منها صورا أخرى .

والفكر هو التصرف فى تلك الصور وراء الحس ، وجولان الذهن فيها بالانتزاع والتركيب .

والفكر على مراتب .

الأولى : تعقّل الأمور المرتّبة فى الخارج ، وهو العقل التمييزى الذى يُحصّل منافعه ويدفع مضاره .

الثانية : الفكر الذى يفيد به الآراء والآداب فى معاملة أبناء جنسه وسياستهم ، ويَحصُل بالتجربة ويُسمّى العقلَ التجريبى .

الغناء وتناقلوه إلى أزمان ملوك الطوائف ، وانتقل إلى إفريقية والمغرب .

وهذه الصناعة آخر مايحصُل فى العمران ، لأنها كمالية .

الصنائعُ تُكسب صاحبها العقل :

النفس الناطقة للإنسان توجَد بالقوة ، وخروجها إلى الفعل إنما هو بتجدد العلوم والإدراكات وما يُكتَسب بالقوة النظرية إلى أن يصير إدراكا بالفعل وعقلا محضا ، فوجب أن يُفيدها كلُّ نوع من العلم عقلا فريدا .

والصنائع يحصل عن ملكتها قانون علمى ، فلذا كانت الحُنْكة فى التجربة تفيد عقلا ، والملكات الصناعية تفيد عقلا ، والحضارة الكاملة تفيد عقلا ، وهذه كلها قوانين تنتظم علوما فيحصل منها زيادة عقل .

والكتابة — من بين الصنائع — أكثر إفادة لأنها تشتمل على العلوم والأنظار ، لأن فيها انتقالا من الحروف الخطية إلى الكلمات اللفظية فى الخيال ، ومن هذه إلى المعانى فى النفس ، فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلة إلى المدلولات ، وهو معنى النظر العقلى ، فيُكسِب ملكةً من التعقل الذى يحصل به قوة فطنة ، وكَيَس فى الأمور ، ويُلحَق بذلك الحسابُ ، ففيه نوع تصرف فى العدد بالضم والتفريق يحتاج لاستدلال كثير هو معنى العقل .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

والسلم . لا على اى [illegible]

[illegible] حكمه [illegible]

[illegible] وعوامله [illegible] الشكر [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الثالثة : الفكر الذي يفيد العلم بمطلوب وراء الحس، وهو العقل النظري

عالم الحوادث يتم بالفكر :

عالم الكائنات يشتمل على ذوات محضة كالعناصر والآثار والمكوّنات الثلاثة : وهي المعدن والنبات والحيوان ، وعلى أفعال صادرة عن الحيوانات : فمنها منتظم ، وهي الأفعال البشرية ، وغير منتظم ، وهي أفعال الحيوانات .

والفكر يدرك الترتيب بين الحوادث ، فإذا قصد إيجادَ شيء فلابد من التفطن لسببه أو علته أو شرطه ، فلو فكر في إيجاد سقف يُكِنّه ، انتقل بذهنه إلى الحائط ، ثم إلى الأساس وهو آخر الفكر ، ثم يبدأ العمل بالأساس ، ثم بالحائط ، ثم بالسقف وهو آخر العمل ، فلا يتم فعل الإنسان إلا بالفكر في هذه الترتيبات ، وللعثور على هذا الترتيب يحصل الانتظام في أفعال البشر .

وأما الأفعال الحيوانية فليس فيها انتظام لعدم الفكر الذي يعثر به الفاعل ؛ إذ الحيوانات تدرك بالحواس ، ومدركاتها متفرقة خالية من الربط ، ولما كانت الحواس المعتبرة هي المنتظمة — وغير المنتظمة تبع لها — اندرجت أفعال الحيوانات فيها ، فكانت مسخرة للبشر ، واستولت أفعال البشر على عالم الحوادث . فكان كله في طاعته ، وهذا معنى الاستخلاف المشار إليه في قوله تعالى :
« إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً » (١)

---

(١) من الآية ٣٠ سورة البقرة

وعلم البشر هو حصول صورة المعلوم في ذواتهم ، فهو مكتسب ، والنفس التي يحصل فيها صورة المعلومات هيولانية ، تلبس صور الوجود صور المعلومات في مادتها وصورتها ، فالمطلوبات فيها مترددة بين النفي والإثبات ، فإذا صار معلوما افتقر إلى بيان المطابقة ، وربما أوضحها البرهان الصناعي لكنه من وراء الحجاب ، وليس كالمعاينة التي في علوم الملائكة .

علوم الأنبياء :

هذا الصنف من البشر تعتريهم حالة إلهية ، فتغلب الوجهة الربانية فيهم على البشرية في القوى الإدراكية والنزوعية من الشهوة والغضب ، فتجدهم متنزهين عن الأحوال البشرية إلا في الضرورات ، مقبلين على الأحوال الربانية بما تقتضي معرفتهم بالله ، مخبرين بما يوحى إليهم على طريقة وسنن معهودة لا تتبدل فيهم كأنها جبلة .

وللنفس الإنسانية استعداد للانسلاخ من البشرية ، لتصير من جنس الملائكة وقتا من الأوقات ، ثم تراجع بشريتها وقد تلقت من عالم الملكية ما كلفت بتبليغه إلى البشر وهو وحي ، والأنبياء مفطورون عليه ، وعلومهم في تلك الحالة شهادة وعيان ، لا يلحقه الخطأ ، أو الوهم ، بل المطابقة فيه ذاتية ؛ لزوال حجاب الغيب ، وحصول الشهادة الواضحة عند مفارقة هذه الحالة إلى البشرية ، ويساهم عليه من الذكاء يتردد ذلك فيهم دائما إلى أن تكمل هداية الأمة التي بعثوا لها .

وتركه ، ومن تتبع ذلك يحصل له العثور على كل قضية ، ولا بد للتجربة من زمن ، وقد يسهل على كثير من البشر تحصيل ذلك فى أقرب من زمن التجربة إذا قلد الآباء والأكابر، ووعى تعليمهم .

علوم البشر وعلوم الملائكة:

إننا نشهد فى أنفسنا ـ بالوِجدان الصحيح ـ وجود ثلاثة عوالم ، أولها عالم الحس الذى شاركنا فيه الحيوانات بالإدراك . ثم عالم الفكر الذى اختُص به البشر ، فنعلم منه وجود النفس الإنسانية علماً ضروريا بما بين جنبينا من مداركها العلمية التى فوق مدارك الحس . ثم نستدل على عالم ثالث فوقنا بما نجد فينا من آثاره التى تلقى فى أفئدتنا ، كالإرادات والوجهات نحو الحركات الفعلية ، فنعلم أن هناك فاعلا يبعثنا عليها من عالَم فوقنا هو عالم الأرواح والملائكة ، وفيه ذوات مدركة لوجود آثارها فينا مع ما بيننا و بينها من المغايرة، ويُستدل على هذا العالَم بالرؤيا ، وما يُلقَى إلينا من أمور نحن فى غفلة عنها فى اليقظة ، وهى تطابق الواقع، فنعلم أنها من عالم الحق.

وعالم البشر مشهود فى مداركنا الجسمانية والروحانية ، يشترك فى عالم الحس مع الحيوانات ، وفى عالَم العقل مع الملائكة الذين هم ذوات مجردة من الجسمانية والمادة ، وعقل صرف يتحد فيه العقل والعاقل والمعقول ، فعلومهم حاصلة دائما، مطابقة بالطبع لمعلوماتهم ، لا يقع فيها خلل .

مسائله، واستنباط فروعه من أصوله. وهذه الملكة غير الفهم والوعي الذي يشترك فيه المبتدئ والعامي والعالم.

والملكات سواء كانت في البدن أو في الدماغ جسمانية، والجسمانيات محسوسة تفتقر إلى التعليم، ولهذا كان السند في التعليم في كل صناعة إلى مشاهير المعلمين معتبرا عند كل جيل.

ومما يدل على أن التعليم صناعة اختلاف الاصطلاحات بين الأئمة فيه، وليس الاصطلاح من العلم، ولو كان كذلك لكان واحدا عند جميعهم. واختلاف الاصطلاحات يدل على أن التعليم صناعة، ولكل واحد [illegible] فيه [illegible].

وأيسر طرق هذه الملكة [illegible] المسائل العلمية. وليس المقصود من الملكة الحفظ [illegible] في المغرب ست عشرة سنة، وهي بتونس خمس سنين؛ [illegible] في المغرب [illegible] جودة التعليم.

وأهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة التعليم، حتى ليظن الكثير أن عقولهم أكمل من عقول أهل المغرب. وليس كذلك، وإنما هي آثار الحضارة في التعليم والصنائع تزيد الإنسان ذكاء.

الإنسان جاهل بالذات عالم بالكسب :

الإنسان من جنس الحيوان ، ولكن الله ميزه بالفكر ، ويبدأ من التمييز ، فهو قبل التمييز خِلْو من العلم لجهله بجميع المعارف ، ثم تستكمل صورته بالعلم الذى يكتسبه بآلاته ، وانظر قوله تعالى : « عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » (١) أى أكسبه من العلم مالم يكن حاصلا له ، فقد كشفت طبيعته وذاته ماهو عليه من الجهل الذاتى والعلم الكسبى .

العلم والتعليم طبيعى فى العمران :

ص ٣٧٥ ط : البهية

الإنسان يتميز عن الحيوان بالفكر ، وعن الفكر تنشأ العلوم والصنائع ، والفكر راغب فى تحصيل ماليس عنده من الإدراكات ، فيرجع إلى من سبقه بعلم أو زاد عليه بمعرفة أو إدراك ، فيأخذ عنهم ، ثم يتوجه إلى واحد من الحقائق ، وينظر فيما يعرض له ، ويتمرن على ذلك حتى يصير إلحاق العوارض بتلك الحقيقة ملكة ، فيكون علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علما مخصوصا ، وتتشوف نفوس الجيل إلى تحصيل ذلك ، فيفزعون إلى أهل معرفته ، ويجىء التعليم ، وهذا يبين أن العلم والتعليم طبيعى فى البشر .

التعليم من جملة الصنائع :

الحذق فى العلم إنما هو بحصول ملكة فى الإحاطة بمباديه والوقوف على

(١) آية ٥ ــ سورة العلق .

أصناف العقود

[illegible]

عمن وصعه [illegible]

والأول هو [illegible]

والذي هو [illegible]

[illegible]

وهي [illegible]

[illegible]

ثم [illegible]

هو [illegible]

العلوم وأصنافها

ص ٣٧٩ العلوم تكثر حيث يكثر العمران :

ذلك لأن التعليم من جملة الصنائع ، وهي تكثر في الأمصار على نسبة عمرانها ؛ لأنها زائدة على المعاش ، ومن تشوّف إلى العلم ممن نشأ في القرى لا بُدَّ له من الرحلة إلى الأمصار المستبحرة العمران

اعتبر ذلك بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة ، لما كثر عمرانها صدرَ الإسلام ، كيف زخرت فيها بحار العلم ، وتفننوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم ، واستنباط المسائل والفنون ، حتى أربوا على المتقدمين .

ولما تناقص عمرانها ، انطوى ذلك البساط ، وفقد العلم والتعليم بها .
وانتقل إلى غيرها من الامصار

وقد ازدهر التعليم بالقاهرة ؛ لأن عمرانها مستبحر ، وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين ، وإنما وقع فيها منذ أيام صلاح الدين ، من بناء المدارس والزوايا ووقف الأوقاف عليها استتوى التعليم ، فكثر لذلك طالب العلم ومعلموه ، وارتحل الناس إليها في طلب العلم من العراق والمغرب .

العلوم النقلية

علوم القرآن :

القرآن كلام الله المنزّل على نبيه ، وهو متواتر بين الأمة . إلا أن الصحابة رووه بطرق مختلفة في بعض ألفاظه وكيفيات الحروف في أدائها ، وتنوقل ذلك ، إلى أن استقرت منه سبع طرق ، فصارت أصولا للقراءة ، وربما زيدت قراءات أخرى . إلا أنها ليست في قوتها .

ولم يزل القراء يتداولون هذه القراءات إلى أن دوّنت العلوم ، فكتبت ، وصارت علما تناقله الناس ، حتى ملك مجاهد — من موالى العامريين — بشرق الأندلس ، فعنى بعلوم القراءات ، وظهر في عهده أبو عمرو الدّانى ، الذى بلغ الغاية في معرفتها ، وألف فيها كتاب « التيسير » .

ثم ظهر أبو القاسم الشاطبى ، فعمد إلى تهذيب ماسبقه ، وتلقينه للمتعلمين .

وربما أضيف إلى فن القراءات فن الرسم وأوضاع حروف القرآن في المصحف ؛ لأن فيها حروفا كثيرة وقع رسمها على غير المعروف .

وأما التفسير ، فالمعروف أن القرآن نزل بلغة العرب ، وعلى أساليبهم فكانوا يفهمونه ، وكان ينزل جملا وآيات ، لبيان التوحيد والفروض الدينية بحسب الوقائع ، وكان النبى يبين المجمل ، ويميز الناسخ من المنسوخ ، فعرفه

ثم إن التكاليف منها بدنى ، ومنها قلبى . وهى العقائد الإيمانية فى الذات والصفات ، والنعيم والعذاب ، والقدر ، والحجاج عنها بالأدلة العقلية — وهو علم الكلام .

ثم إن النظر فى القرآن والحديث لابد أن تتقدمه العلوم اللسانية ، وهى أصناف ؛ منها علم اللغة ، والنحو ، والبيان ، والأدب .

إلا أن مؤلفه من المعتزلة ، فيأتى حجاجه على مذاهبهم ، ولقد وصل إلينا تأليف لبعض العراقيين شرح فيه كتاب الزمخشرى ، وتعرض لمذاهبه فى الاعتزال بأدلة تزيفها ، وتبين أن البلاغة فى الآيات تؤيد أهل السنة .

علوم الحديث :

منها ما ينظر فى الناسخ والمنسوخ ، وهو من أهم علوم الحديث وأصعبها وقد كان للشافعى فيه قدم راسخة .

ومنها النظر فى الأسانيد ؛ لأن العمل بالحديث متوقف على صدق روايته عن الرسول ، فوجب معرفة رواة الحديث وألقابه بالعدالة والضبط ، وبراءتهم من التجريح أو الغفلة ، ورواياتهم من الصحابة والتابعين ، وتمييز الحديث من الصحيح ، والحسن ، والضعيف ، والمرسل ، وغير ذلك من الألقاب والمصطلحات .

ونقلة الحديث فى عصور السلف كانوا معروفين بالحجاز ، والبصرة ، والكوفة ، والشام ، ومصر ، وطريقة أهل الحجاز أعلى من سواهم ، لاستبدادهم فى شروط النقل ، وسند الطريقة الحجازية هو الإمام مالك ، ثم أصحابه كالشافعى وابن حنبل .

وقد كتب مالك كتابه « الموطأ » أودعه أصول الأحكام من الصحيح المتفق عليه ، ورتبه على أبواب الفقه .

وجاء محمد بن إسماعيل البخارى فخرج أحاديث السنة على أبوابها .

الصحابة ، وعرفوا سبب النزول، ونُقِل ذلك عنهم ، فلمّا صارت المعارف علوما، كُتب الكثير من ذلك ، ونقلت الآثار الواردة فيه عن الصحابة ، وانتهى ذلك إلى الطبرى والواقدى والثعالبي وأمثالهم ، فكتبوا فيه .

ثم صارت علوم اللسان صناعة بعد أن كانت ملكات للعرب ، فاحتيج إلى تفسير القرآن ، وصار التفسير على صنفين :

صنف نقلى عن السلف ؛ من معرفة الناسخ والمنسوخ ، وأسباب النزول ، ومقاصد الآيات ، وقد جمع المتقدمون الكثير منه ، إلا أن فى كتبهم الغث والسمين ؛ لأن مافيه عن بدء الخليقة وأسرار الوجود ، منقول عن أهل التوراة ، وظل الحال كذلك حتى رجع الناس إلى التحقيق والتمحيص ، فجاء أبو محمد ابن عطية [1] من المتأخرين بالمغرب ، فلخص تلك التفاسير ، وتحرى أقربها إلى الصحة ، ووضع كتابا متداولا فى المغرب ، وتبعه القرطبى فى كتاب آخر مشهور بالمشرق [2] .

والصنف الآخر مايرجع إلى اللسان ، من اللغة والإعراب والبلاغة ، فى تأدية المعنى ، وهذا الصنف من التفسير قلّ أن ينفرد عن الأول ؛ إذ الأول هو المقصود ، وإنما جاء ذلك بعد أن صار اللسان صناعة .

ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن كتاب « الكشّاف » للزمخشرى،

---

(١) عبد الحق بن غالب الغرناطى ، مفسر ، فقيه ، شاعر ، عارف بالأحكام ، وكتابه المذكور « المحرر الوجيز ، فى تفسير القرآن العزيز » مخطوط ، توفى ٥٤٢ هـ

(٢) كتاب « الجامع لأحكام القرآن » المعروف بتفسير القرطبى .

فأما أهل الرأى فى العراق فزعيمهم أبو حنيفة ، ومقامه فى الفقه لا يلحق ، وقد شهد له مالك والشافعى ، وأما أهل الحديث بالحجاز فإمامهم مالك ، وقد صاحبه محمد بن إدريس الشافعى ، ثم رحل إلى العراق ، ولقى أصحاب أبى حنيفة ، وأخذ عنهم ، ومزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق ، واختص بمذهب جديد ، ثم جاء أحمد بن حنبل ، وكان من المحدّثين ، وقد قرأ على أصحاب أبى حنيفة ، فاختص بمذهب آخر .

وقد وقف الاجتهاد فى الأمصار عند هذه المذاهب الأربعة ، وسار المسلمون على تقليدها ، فأما ابن حنبل فمقلدوه قليلون ؛ لبعده عن الاجتهاد . ومعظمهم بالشام و بغداد ، وأما أبو حنيفة فقلده أهل العراق ، والهند ، والصين ، وبلاد العجم ، وأما الشافعى فمقلدوه بمصر ، والعراق ، وخراسان ، وأما مالك فاختص بمذهب أهل المغرب ، والأندلس .

أصول الفقه :

هو النظر فى الأدلة الشرعية ، من حيث تؤخذ الأحكام والتكاليف .

وأصول الأدلة الشرعية هى القرآن ، والسنة المبينة له من أقوال الرسول وأفعاله .

فأما القرآن فقد حفظ بالتواتر مع المعجزة القاطعة بصحته . وأما السنة فقد أجمع الصحابة على وجوب العمل بما يصل إلينا منها بالنقل الصحيح .

واعتمد ما أجمع عليه الحجازيون والعراقيون والشاميون ، وكرر بعض الأحاديث في الأبواب المختلفة .

ثم جاء مُسْلِم بن الحجاج القشيرى، فحذا حذو البخارى، وحذف المكرر، و بوّب مُسنَده على أبواب الفقه .

ثم جاء من بعدهم السجستانى ، والترمذى ، والنسائى .

ولقد انقطع لهذا العهد تخريج الأحاديث ، و إنما تنصرف العناية الآن إلى تصحيح الأمهات المكتوبة وضبطها ، والنظر في أسانيدها .

س ٣٨ علم الفقه :

الفقه معرفة أحكام الله في أفعال المكلفين، بالوجوب ، والحظر ، والندب، والكراهة ، والإباحة ، وهى متلقاة من الكتاب والسنة ، وكان السلف يستخرجونها من الأدلة على اختلاف فيما بينهم، وقد انقسم الفقه إلى طريقتين: طريقة أهل الرأى والقياس ، وهم أهل العراق ، وطريقة أهل الحديث ، وهم أهل الحجاز .

ومقدَّم أهل العراق هو أبو حنيفة ، و إمام أهل الحجاز هو مالك ، والشافعى من بعده، وقد أنكر القياسَ طائفةٌ هم الظاهرية الذين جعلوا المدارك كلها منحصرة فى النصوص والإجماع . و إمامهم داود بن على ، كما شذَّ الشيعة بمذهب ، والخوارج بآخر ، ولكن هذه المذاهب لقيت الاستنكار والاستهجان ، ولم يبق إلا مذهب أهل الرأى ، ومذهب أهل الحديث .

والنواهى ، والبيان والخبر ، والنسخ ، وحكم العلة المنصوصة من القياس . ثم كتب فيه فقهاء الحنفية ، وحققوا تلك القواعد .

وقد كتب فيه المتكلمون أيضا ، إلا أنهم يجردون مسائل عن الفقه ، ويميلون إلى الاستدلال العقلى .

و يلحق بعلم الأصول علم الخلافيات ، وهو المناظرة بين المقلدين للأئمة فى تصحيح مذاهبهم والاحتجاج لهم ، و بيان مآخذهم من الكتاب والسنة ، ومواقع اجتهادهم .

كما يلحق به علم الجدل ، وهو معرفة الحدود والآداب الواجبة للاستدلال على حفظ رأى أو هدمه ، وآداب المناظرة فى جرى بين أهل المذاهب ، وطرق الاستدلال على الرأى .

علم الكلام :

هو الحجاج عن العقائد الإيمانية ، والرد على المبتدعة بالأدلة العقلية ، وثمرة هذا العلم هو التوحيد .

وقد أمرنا الشارع بالتوحيد المطلق ، والوجود منحصر فى المحسوسات والمعقولات ، والعقل ميزان صحيح ، وأحكامه يقينية ، إلا أننا لا نطمع أن نزن به أمور التوحيد ، والآخرة ، وحقيقة النبوة ، والصفات الإلهية ، لأن كل ذلك من وراء أطواره ، و إذا تجاوزت هذه الأشياء نطاق إدراكه ضل العقل

فتعينت دلالة الشرع فى الكتاب والسنة ، ثم نزّل الإجماع منزلتهما ؛ لأن إجماع الصحابة لا يكون إلا عن مستند ، مع شهادة الأدلة بعصمة الجماعة ، فصار الإجماع دليلا ثابتا فى الشرعيات ، ثم نظر فى طرق استدلال الصحابة والسلف بالكتاب والسنة ، فإذا هم يقيسون على الأشباه والنظائر بشروط ، فصار القياس دليلا شرعيا رابعا .

وعلم الأصول ينظر فى قيمة هذه الأدلة ، ومآخذ الأحكام منها .

ومن فصوله معرفة الناسخ والمنسوخ . ثم دلالة الألفاظ وتراكيبها على إفادة المعانى والأحكام ، والاستفادة بقوانين اللغة فى تقرير الأحكام ، مثل : أن اللغة لا تثبت قياسا ، والمشترك لا يراد به معنياه معا ، والواو لا تقتضى الترتيب ، والأمر للوجوب . . وهكذا .

ثم إن النظر فى القياس من أعظم قواعد هذا الفن ؛ لأن فيه تحقيق الأصل والفرع فيما يقاس من الأحكام .

وهـذا الفن من الفنون المستحدثة فى الملة ، فالسلف كانوا فى غنية عنه ؛ لأن استفادة الألفاظ للمعانى ملكة عندهم ، ولم يكونوا يحتاجون للأسانيد لقرب عهدهم بالنقلة ، ولأن القوانين مأخوذة منهم .

فلما انقرض السلف ، وانقلبت العلوم صناعة ، احتاج الفقهاء والمجتهدون إلى تحصيل هذه القوانين لاستفادة الأحكام .

وكان أول من كتب فيـه الشافعى فى رسالة تـكلم فيها عن الأوامر

ثم لما كثرت العلوم ، وألّف المتكلمون في التنزيه ، حدثت بدعة المعتزلة ، في صفات المعاني : كالعلم والقدرة والإرادة ، فنفوا زيادتها على الذات القديمة ، كما نفوا السمع والبصر : لأنهما من صفات الحوادث ، كما نفوا أيضاً صفة الكلام . فقالوا بخلق القرآن . وهي المسألة التي بسببها حدثت فتنة .

وقد أنكرت ذلك أهل السنة ، وقام أبو الحسن الأشعري شيخ المتكلمين ، فتوسط بين الطرق ، ونفى التشبيه ، وأثبت الصفات المعنوية ، وكتب العقائد في الصفة ، والجملة فإن هذه طريقة أهل السنة ومذهب الأشعري ، وأخذ عنه المتكلمون : [illegible] إمام الحرمين أبو المعالي ، فأملى كتاب « الشامل » ، ثم اختصره في كتاب « الإرشاد » .

ثم انتشرت علوم المنطق ، وقرأه الناس ، وحققوا الأشياء ، وتصرفوا في القواعد والمقدمات التي وضعها الأقدمون ، وخالفوا المتكلمين ، ووجدوا منه طريقة سميت طريقة المتأخرين . أدخلوا فيها الرد على الفلاسفة ، وأول من كتب في هذه الطريقة الغزالي . ثم اختلطت كتب الفلسفة بعلم الكلام لما بينهما من اشتباه المسائل ، مع أن المتكلمين ينظرون إلى الكائنات باعتبارها دليلا على وجود الخالق ، والفلاسفة ينظرون إليها من حيث الحركة والسكون ،

فيها ، فإذا التوحيد هو العجز عن إدراك الأسباب ، وكيفيات تأثيرها، وتفويض ذلك إلى خالقها .

وليس المقصود بالتوحيد الإيمان فقط ، بل الكمال فيه . كما أنه ليس المطلوب من العبادات الأعمال فقط ، وإنما حصول ملكة الطاعة والانقياد ، وتفريغ القلب للمعبود حتى تصير الطاعة فطرة ، وهى المنزلة العالية من العصمة الواجبة للأنبياء .

والشارع لما أمرنا بالإيمان بالخالق كلفنا اعتقاد تنزيهه عن مشابهة المخلوقين ، ثم توحيده ، ثم اعتقاد أنه قادر ، ومريد ، وعالم ، ثم اعتقاد بعثة الرسل ، وهذه هى أمهات العقائد ، وأدلتها من الكتاب والسنة .

إلا أنه عرض بعد ذلك تفاصيل فى هذه العقائد ، دعت إلى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل فحدث بذلك علم الكلام .

وذلك أن فى القرآن وصفاً للمعبود بالتنزيه المطلق فى آى كثيرة صريحة ، فوجب الإيمان بها ، ووقع فى كلام الرسول والصحابة تفسير لها على ظاهرها ، ثم وردت آيات أخرى توهم التشبيه فى الذات أو الصفات ، فأما السلف فآمنوا بها ، ولم يتعرضوا لمعناها ، وشذ لعصرهم مبتدعة ، اتبعوا ما تشابه من الآيات ، وتوغلوا فى التشبيه ، فوقعوا فى التجسيم ، ثم فروا من شناعة ذلك بقولهم : جسم لا كالأجسام ، وفريق منهم ذهبوا إلى التشبيه فى الصفات ، كإثبات الجهة ، والصوت ، والنزول ، ثم قالوا : صوت لا كالأصوات ، وجهة لا كالجهات .

وفريق من [illegible] لا [illegible] [illegible] ما [illegible] [illegible] [illegible] ظاهره، [illegible] ، [illegible] [illegible] في [illegible] .

وأما السلف [illegible] [illegible] الأئمة والحكماء [illegible] [illegible] النفس . [illegible] عن [illegible] .

وجاء المعتزلة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] مجردة لا [illegible] بالذات، وجعلوا الإنسان خالق [illegible] . ثم [illegible] [illegible] [illegible] الأشعرى . وأثبت الصفات القائمة بالذات .

وأما [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ، [illegible] وهو وافق [illegible] . [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] محجوبة [illegible] .

أما الظواهر الخفية كالوحى ، [illegible] ، [illegible] . فإن [illegible] [illegible] [illegible] فلنوضح أن العالم البشرى أشرف العوالم ، [illegible] أطوار :

الطور الأول : عالم جسمانى يحسه الظاهر ، ويفكر المعانى . ووجود الحاضر .

الطور الثانى : عالم النوم . وهو تصور الخيال ، بإنفاذ تصوراته فى باطنه . فيدرك بحواسه الظاهرة مجردة عن الأزمنة والأمكنة .

الطور الثالث : طور النبوة . وهو لصنف من البشر خصهم الله بمعرفته وتوحيده ، ونزّل عليهم ملائكته فى حال مخالفة لأحوال البشر .

ونظر الفيلسوف فى الإلٰهيات انما هو نظر فى الوجود المطلق . ونظر المتكلم فى الوجود من حيث دلالته على الموجد .

ص: ٤٤
مجلد: ٣
ط :
بارس

كشف الغطاء عن المتشابه من الكتاب والسنة :

نزل القرآن بالتكاليف ، وفيه ذكر لصفات الله وأسمائه ، والروح والوحى ، والملائكة ، والبعث ، وفيه حروف هجاء متقطعة لاسبيل إلى فهم المراد منها ، وسمّى هذا متشابهاً .

وقد حمله الصحابة والتابعون على الآيات التى تفتقر إلى نظر وتفسير لتعارضها مع آيات أخرى أومع العقل ، أوهو ماسوى آيات الأحكام والقصص أو مالا سبيل إلى علمه ، كشروط الساعة ، هذا هو مذهب السلف فى متشا القرآن والسنة .

أما مايرجع منها إلى أشراط الساعة ، فليس من المتشابه ؛ لأن ا استأثر بعلمها .

وأما الحروف المقطعة فى أوائل السور ، فليس بعيداً أن يكون مراداً ب الإشارة إلى بعد الغاية فى إعجاز القرآن المؤلف منها .

وأما الوحى ، والملائكة ، والروح ، والجن ، فاشتباهها آت من خف دلالتها ، لأنها غير متعارفة ، وقد ألحق بعض الناس بها كل ما خفيت دلا من القيامة ، والجنة ، والنار ، والدجال ، إلا أن الجمهور ــ ولاسيما المتكلمون لايوافق عليه .

علم التصوف :

كانت طريقة الصحابة والتابعين طريق الحق والهداية والعكوف على العبادة ، والانقطاع عن زخرف الدنيا وزينتها [illegible] .

فلما فشا الإقبال على الدنيا ، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية . ولما اختصوا بالزهد والانفراد على العبادة ، حدثت لهم مدارك خاصة : لأن المريد في مجاهدته لابد أن [illegible] حالة [illegible] إلى التوحيد والمعرفة التي هي غاية السعادة .

وأصل [illegible] .

نشأت أذواقهم [illegible] .

ثم إن الخلوة والذكر يتبعهما كشف حجاب الحس ، والاطلاع على عوالم أخرى : لأن الروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الحس الباطن قويت أحواله ، وغلب سلطانه ، واقترب من الأفق الأعلى ، وصار إلى الكشف . والمتقدمون يعتبرون هذا الكشف محنة ، ولكن المتأخرين يجهدون أنفسهم بإماتة القوى الحسية ، وتغذية الروح العاقل ، للوصول إلى هذا الكشف . وقد تكلموا في حقائق الموجودات العلوية والسفلية ، ولهم في ذلك آراء في صدور الوجود عن الفاعل ، والوحدة ، والحلول . ثم اختلطت بعض مذاهبهم بمذاهب الرافضة في الحلول ، ومذاهب الشيعة في القطب .

الطور الرابع : طور الموت الذى نفارق فيه أشخاص البشر حياتهم الظاهرة إلى وجود قبل القيامة يسمى البرزخ .

والطوران الأولان شاهدهما وجدانى ، والثالث شاهده المعجزة ، والرابع شاهده ماتنزل على الأنبياء من وحى الله فى القيامة والمعاد . . . مع أن العقل يقتضيه .

ومدارك الإنسان فى الطور الأول واضحة جلية ، بما جعل له من السمع والبصر والفؤاد ، وأما فى الطور الثانى فهى المدارك الحسية دون الجوارح ، وأما طور النبوة ، فالمدارك الحسية فيه مجهولة الكيفية ، فيرى النبى الله وملائكته ، ويسمع كلامه ، ويرى الجنة والنار ، ويدرك ذلك كما يدركه فى طوره الجسمانى بعلم ضرورى يخلقه الله فيه ، وأما الطور الرابع ، طور الموتى ، فإنهم يرون ويسمعون بمداركهم الحسية ، ولكن بعلم ضرورى كذلك يخلقه الله لهم .

وسر هذا أن النفس الإنسانية تنشأ بالبدن ومداركه ، فإذا فارقته بنوم أو موت أو وحى ، فقد استصحبت ما كان معها من المدارك مجردة عن الجوارح .

فالمدارك موجودة فى الأطوار الأربعة لكنها مختلفة فى القوة والضعف من طور إلى طور .

المعبّر [illegible]

[illegible] وعرف السه .

والخيال إذا [illegible] الروح [illegible] بصورة في [illegible]

للحس ، فلا يصوّر [illegible] الأعمى [illegible] ولا [illegible]

لا يدركها ، وإنما صوّرها من [illegible] .

والمصوّر [illegible]

المصاحة في [illegible]

قوانينه ؛ وآلت [illegible]

[illegible] .

ولما دوّنت العلوم ، كتب رجال هذه الطريقة عن الورع ، ومحاسبة النفس ، كما فعل القشيرى ، والسهروردى ، والغزالى ، وصار التصوف علما بعد أن كان عبادة فقط .

ص ٤١

علم تعبير الرؤيا :

الرؤيا وتعبيرها موجودان فى الخليقة ؛ فقد كان يوسف عليه السلام يعبر الرؤيا ، والرؤيا مدرك من مدارك الغيب ، وكانت أول مابدئ به النبى من الوحى .

وذلك أن الروح القلبى بخار لطيف ينتشر من تجويف القلب إلى الشريانات مع الدم ، وبه تكمل أفعال القوى الحيوانية بإحساسها ، فإذا أدركه الملال ، تراجع إلى مركزه القلبى ليستجم ، فتعطلت الحواس الظاهرة ، وتجرد الروح العاقل من حجاب البدن وقواه وحواسه ، ورجع إلى حقيقة الإدراك ، فاستعد لقبول مايدرك من عالمه ، ورجع به إلى البدن فى صورة أخيلة يدفعها إلى الحافظة تحفظها له إلى وقت الحاجة ، فإذا أدركت النفس ماتدركه من عالمها ، ألقته إلى الخيال ، فيصوره بالصورة المناسبة له ، أو يدفعه إلى الحس المشترك ، فيراه النائم كأنه محسوس .

أما التعبير ، فإن الروح العقلى إذا أدرك مدركه ، وألقاه إلى الخيال ، فإنما يصوره فى الصور المناسبة لذلك المعنى ، فيصور السلطان بصورة البحر ، والعدو بصورة الحية ، فإذا استيقظ ولم يعلم إلا أنه رأى البحر أو الحية ، فإن

علوم الأعداد:

٢٠

أولها الأرتماطيقي ، وهو معرفة خواص الأعداد من حيث التأليف على التوالي أو بالتضعيف مثل : أن الأعداد إذا توالت متفاضلة بعدد واحد فإن جمع الطرفين منها مساو لجمع كل عددين بعدهما من الطرفين بعدد واحد .

مثال ذلك : ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ . فـ ١ + ٦ = ٧ ، ٢ + ٥ = ٧ وهكذا .

ومثل : أن الأعداد إذا توالت على نسبة واحدة يكون أولها نصف ثانيها ، وثانيها نصف [illegible] كل عددين بعدهما من الطرفين بعدد واحد أحدهما في الآخر . مثال ذلك : ٢ ٤ ٨ ١٦ . فإن ٢ × ١٦ = ٣٢ . ٤ × ٨ = ٣٢ وهكذا .

وهذا الفن أول أجزاء التعاليم ، ويدخل في براهين الحساب . وللحكماء المتقدمين فيه تآليف كابن سينا وغيره . والمتأخرون هجروه بعد أن استخلصوا زبدته في البراهين الحسابية .

ومن فروعها صناعة الحساب : وهى حساب الأعداد بالضم والتفريق ، فالضم بالجمع والضرب ، والتفريق بالطرح أو القسمة في العدد الصحيح أو الكسر ، ويكون الضم والتفريق في الجذور . ومعناه العدد الذي يضرب في مثله . وهذه الصناعة حديثة احتيج إليها للمعاملات . وتداولوها بالتعليم الولدان .

العلوم العقلية

العلوم العقلية طبيعية للإنسان من حيث إنه ذو فكر ، وتُسمَّى علوم الفلسفة والحكمة. وهى علوم الأعداد . وعلم الهندسة ، وعلم الهيئة ، وعلم المنطق، وعلم الطبيعيات ، وعلم الإلهيات ، وعلوم السِّحر والطَّلسمات ، وعلم أسرار الحروف . وعلم الكيمياء ، وكلها تتفرع إلى فروع ، وأكثر مَن عُنى بها قبل الإسلام فارسُ والروم ، وكان للكلدانيين والسُّريانيين عناية بالسحر والنِّجامة والطلاسم ، وأما الفرس فكان شأن العلوم العقلية عندهم عظيما ، ووصلت إلى يونانَ منهم حين استولى الإسكندر على كتبهم ، وكان لها بينهم مجالٌ رحْب، واختُصَّ بها المشَّاءون ، واتصلَ سندها فى سُقراط ، وأَفلاطون ، وأرسطو معلم الإسكندر ، ولما انقرض اليونان،وأخذ القياصرة بالنصرانية، هجروا تلك العلوم وإن بقيت دواوينها فى خزائنهم ، ولما جاء الإسلام ، وابتزَّ المسلمون مُلكَ الروم،وأخذوا بحظٍّ من الحضارة، تشوَّفوا إلى هذه العلوم بما سمعوا من الأساقفة، فبعث المنصور فى طلب بعضها ، وجاء المأمون فأوفد الرسل على ملوك الروم لاستخراج علوم اليونان بالمترجمين ، وعكف عليها أهل الإسلام وأربَوْا عليها، وكان من أكابرهم الفارابىّ، وابن سينا ، وابن رشد ، وابن الصائغ ، والمجريطى.

وما يعرض لها ، مثل : كل مثلث زواياه قائمتان ، وكل متوازيين لا يلتقيان في وجه ولو خرجا إلى غير نهاية ، وأول ماترجم من كتب اليونانيين في هذا كتاب إقليدس ، وقد شرحه أو اختصره علماء العرب كابن سينا وابن الصلت ، والهندسة تفيد صاحبها إضاءة عقل ، واستقامة فكر ، لأن براهينها بينة الانتظام .

ومن فروعه : هندسة الأشكال الكرية والمخروطات ، والكلام على الكرات داخل في علم الهيئة . لأنه كلام في الكرات السماوية وما يعرض لها من القطوع والدوائر بسبب الحركات ، وأما المخروطات فينظر بها في الأجسام المخروطة من الأشكال والقطوع ، وتبرهن على مايعرض لذلك ، وفائدتها تظهر في الصنائع مثل النجارة ، والبناء ، وعمل التماثيل ، والهياكل ، وجر الأثقال .

ومن فروعه : علم المساحة . وهو استخراج مقدار الأرض المعلومة بشبر أو ذراع . ويحتاج إليه في الخراج والقسمة بين الشركاء والورثة .

ومن فروعه : علم المناظر ، وهو علم يبين به أسباب الغلط في الإدراك البصري ، بناء على أن إدراك البصر يكون بمخروط شعاعي ، رأسه نقطة الباصر ، وقاعدته المرئي ، ثم يقع الغلط في رؤية القريب كبيرا والبعيد صغيرا ، والأشباح صغيرة تحت الماء وكبيرة وراء الأجسام الشفافة . وفي هذا العلم أسباب ذلك وكيفياته بالبراهين الهندسية . ويبنى عليه معرفة رؤية الأهلة ، وحصول الكسوفات ، وقد ألف فيه اليونانيون ، وأشهر مؤلفيه من المسلمين ابن الهيثم .

ومن أحسن التعاليم عندهم الابتداء بها : لأنها براهين منتظمة ، ينشأ عنها عقل مضيء يغلب عليه الصدق ، لما فيها من صحة المباني ومناقشة النفس .

ومن فروعها الجبر : وهو صناعة يُستخرج بها العدد المجهول من المعلوم المفروض إذا كان بينهما نسبة ، وللمجهولات مراتب من طريق التضعيف ، أولها العدد ، وثانيها الشيء ، وثالثها المال ، ثم يقع العمل المفروض فى المسألة ، فتخرج إلى معادلة بين مختلفين أو أكثر ، وأول من كتب فى هذا الفن أبو عبدالله الخوارزمى ، وبعده شجاع بن أسلم .

ومن فروعها المعاملات : وهى تصريف الحساب فى البياعات والمساحات والزّكوات ، وسائر ما يعرض فيه العدد ، بحساب المجهول والمعلوم والكسر والصحيح ، والغرض من تكثير المسائل المفروضة حصول المران والدّربة بتكرار العمل حتى ترسخ الملكة فى صناعة الحساب .

ومن فروعها الفرائض : وهى صناعة حسابية فى تصحيح السهام لذوى الفروض فى الوراثات إذا تعددت وهلك بعض الوارثين ، وانكسرت سهامه على ورثته ، أو زادت الفروض عند اجتماعها ، أو كان فيها إقرار وإنكار ، فيدخلها من الحساب جزء كبير من صحيحه وكسره وجذره ومعلومه ومجهوله .

٤٦ علم الهندسة :

هو النظر فى المقادير المتصلة ، كالخط والسطح والجسم ، والمنفصلة كالأعداد ،

فى البعض ، ولا يزال يرتقى فى التجريد إلى الكلى الذى لا يجد معه آخر يوافقه فيكون بسيطا . فيجرد من الإنسان صورة النوع ، ثم منه ومن الحيوان صورة الجنس . ثم منهما ومن النبات الجنس العالى وهو الجوهر .

ثم الإدراك إما تصور للماهيات ، وإما تصديق ، وهذا الإدراك بطريق صحيح أو بطريق فاسد . فاقتضى ذلك تمييز الطريق الذى يحصّل به الفكر المطالب العلمية صحيحها من فاسدها . فكان ذلك هو قانون المنطق .

ولم يجمع مسائله إلا أرسطو فى كتابه المنطق على ثمانية أقسام : أربعة منها فى صور القياس ، وأربعة فى مادته . فالأول فى المفردات . والثانى فى التصديقات . والثالث فى القياس . والرابع فى البرهان . والخامس فى الجدل . والسادس فى السفسطة . والسابع فى الخطابة . والثامن فى الشعر . وزاد اليونان قسما تاسعا فى الكليات الخمس . وقد ترجم عن اليونان . وتداوله فلاسفة الإسلام كالفارابى وابن سينا وابن رشد . وزادوا فيه . كما فعل فخر الدين بن الخطيب ومن بعده أفضل الدين الخونجى .

علم الطبيعيات :

علم يبحث عن الجسم من جهة الحركة والسكون ، فينظر فى الأجسام السماوية والعنصرية وما يتولد عنها من حيوان وإنسان ونبات ومعدن . وما فى الأرض من عيون وزلازل . وما فى الجو من سحب ورعد وبرق . كما ينظر فى مبدأ الحركة للأجسام . وقد ترجمت كتب أرسطو فى هذا . وأتى الناس على حذوها ، كابن

ص ٢٠٤

علم الهيئة :

علم ينظر فى حركات الكواكب بطرق هندسية ، ويُبرهِن على أن مركز الأرض مُباينٌ لمركز الشمس ، ويستدل على وجود أفلاك صغيرة حاملة للكواكب داخل فلكها الأعظم ،وتعدد الأفلاك للكوكب الواحد، وإدراك ذلك إنما هو بالرَّصْد ، وكان اليونانيون يعتنون بالرصد ،ويتخذون له الآلات، أما فى الإسلام فلم يُعتَن به إلا قليلا فى أيام المأمون ، وهذه الصناعة صناعة شريفة ، ومن أحسن التآليف فيها كتاب المَجَسْطِى، وقد اختصر فى الإسلام على يد ابن سينا ، ولخصه ابن رشد .

ومن فروعه علم الأزياج ، وهو صناعة حسابية لحركات كل كوكب ، ولها قوانين فى معرفة الشهور والأيام والتواريخ ، وأصناف الحركات ، واستخراج مواضع الكواكب ، وهو التقويم ، وللناس فيه تآليف كثيرة .

علم المنطق :

وهو قوانين يُعرَف بها الصحيح من الفاسد فى الحدود المعرفة للماهيات ، والحجج المفيدة للتصديقات ، وذلك أن الإنسان يتميز بإدراك الكائنات، وهى مجردة عن المحسوسات ، بأن تَحصُل فى الخيال صورة منطبقة على جميع الأشخاص المحسوسة وهى الكلى ، ثم صورة هؤلاء المتفقين وما يتفق معهم فى

والوجوب والإمكان ، وفي الروحانيات ، وصدور الموجودات عنها ، ويسمونه علم ماوراء الطبيعة .

كتب فيه أرسطو وابن سينا وابن رشد والغزالي ، ثم خلطه المتأخرون بالفلسفة وعلم الكلام ، وهو غير صواب : لأن مسائل الكلام منقولة من الشريعة ، والتعليل بالدليل إنما هو التماس حجة عقلية تعضد عقائد الإيمان بعد فرض صحتها بالأدلة النقلية ، وليس من موضوع علم الكلام النظر في الطبيعيات والإلهيات ، والالتباس جاء من اتحاد المطالب عند الاستدلال ، مع أن الاستدلال لرد الملحدين .

ومثله خلط المتصوفة وجدانياتهم مع الكلام ، والوجدان بعيد عن المدارك العقلية .

علوم السحر والطلسمات :

هي علوم بكيفية استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثير في عالم العناصر ، بغير مُعين ، وذلك هو السحر ، أو بمعين سماوي وهو الطلسمات .

ولما كانت هذه العلوم مهجورة عند الشرائع ، كانت كتبها كالمفقودة .

وهذه العلوم كانت في السريان والكلدانيين في بابل ، وفي أهل مصر ، ثم ظهر بالمشرق جابر بن حيان ، فتصفَّح كتبهم ، ووضع بعض التآليف ، وجاء المجريطي بالأندلس ووضع كتابه « غاية الحكيم » ، ولم يكتب أحد بعده .

سينا فى الشفاء ، والنجاة ، والإشارة ، وكابن رشد ، وابن الخطيب ، والآمدى ، ونصير الدين الطوسى .

ومنه علم الطب ، وهو صناعة تنظر فى بدن الإنسان من حيث يَمرض ويَصِحّ ، وفى حفظ الصحة بالأدوية والأغذية ، وفى أسباب الأمراض ، وما لكل من دواء ، وعلامات الأمراض فى السحنة ، والفضلات ، والنبض ، وربما أفردوا بالكلام بعض الأعضاء كالعين ، وربما ألحقوا به وظائف الأعضاء .

وإمام هذه الصناعة جالينوس ، وفى الإسلام أئمة مثل الرازى ، وابن سينا ، ومن أهل الأندلس ابن زهر .

وللبادية طبٌّ تجربةٍ متوارثٌ عن المشايخ والعجائز ، وربما يصح البعض منه ، إلا أنه ليس على قانون طبيعى ، ولكن على موافقة المزاج .

والطب المنقول فى الشرعيات من هذا القبيل ، وليس من الوحى فى شىء .

ومن الطبيعيات علم الفلاحة : وهى النظر فى النبات من حيث تنميته بالسقى والعلاج ، وللمتقدمين بها عناية بالنظر فى النبات من جهة غرسه ، وتنميته ، وخواصه ، وروحانيته ، وقد تُرجم عن اليونان كتاب الفلاحة النبطية ، وكُتب المتأخرين فى الفلاحة كثيرة .

٤ — علم الإلهيات :

وهو النظر فى الوجود المطلق من الماهيات ، والوحدة ، والكثرة ،

وكذلك عمل الطلسمات في الأعداد المتحابة، وأثرها في الألفة بين المتحابين.

وقد أثبت الفلاسفة أن للنفس أثراً في بدنها من التصورات النفسانية، فإن الماشي على الحائط أو الحبل إذا قَوِيَ عنده وهْمُ السقوط فيه يسقط، وهذا التأثير جائز في غير بدنها.

والفرق بين السحر والطلسمات أن الطلسم يستعين بروحانيات الكواكب، وأسرار الأعداد، والخواص المؤثرة في العناصر كالمنجمين. ويقولون: إن السحر هو اتحاد روح بروح، والطلسم اتحاد روح بجسم، والساحر عندهم مفطور على التأثير.

والفرق بينه وبين المعجزة أنها مؤيدة بنوع خاص لصاحب الخير، والمتحدى على دعوى النبوة، ومثلها الكرامات، أما السحر فللشر، والساحر لا يثبت مع اسم الله كما حدث بين موسى والسحرة. والشريعة لم تفرق بين السحر والطلسمات والنجامة، وحظرتها كلها لما فيها من الشرر.

ومن التأثيرات النفسية الإصابة بالعين، عند ما يستحسن المعيان مدركاً من الذوات يروم معه سلب ذلك الشيء عمن اتصف به، فيؤثر فيه بفساده، وهي جبلة فطرية صاحبها مجبول عليها. ولهذا فالقاتل بالسحر يقتل، والقاتل بالعين لا يقتل.

علم أسرار الحروف:

هو المسمى بالسيمياء، ظهر عند غلاة المتصوفة بجنوحهم للكشف وتصرف

وحقيقة السحر أن النفوس البشرية واحدة النوع مختلفة الخواص بالفطرة، وهى على مراتب :

أولها : النفوس المؤثرة بالهمة من غير معين ، وهذا هو السحر .

الثانى : النفوس المؤثرة بمزاج الأفلاك فى خواص الأعداد ، وهو الطلسمات .

الثالث : النفوس المؤثرة فى القوى المتخيلة بالتأثير فى الخيالات والصور ، ثم إنزالها إلى حس الرائين بقوة النفس المؤثرة ، وهو الشعوذة .

والخاصية فى الساحر بالقوة ، وتخرج إلى الفعل بالرياضة ، وهى التوجه إلى العوالم والشياطين بالتعظيم والعبادة ، ولهذا كان السحر كفرا .

والسحر موجود ، فقد نطق القرآن بقصة هاروت وماروت ، وسُحِر النبيّ ، حتى كان يُخَيَّل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله ، فنزلت عليه فى المعوذتين « وَمِنْ شَرِّ ٱلنَّفَّاثَاتِ فِي ٱلْعُقَدِ » (١) ، وكان السحر فى بابل، وفى مصر أيامَ موسى ، فكانت معجزته من جنسه .

وشاهدنا من المنتحلين للسحر من يشير إلى كِساء أو جِلد ، ويتكلم عليه فى سره فإذا هو مقطوع ، ويشير إلى بطون الغنم فإذا أمعاؤها ساقطة ، أو إلى إنسان فإذا هو ميت .

---

(١) الآية ٤ سورة الفلق .

ومن السيمياء استخراج الأجوبة من الأسئلة بارتباطات حرفية بين الكلمات على طريقة الزايرجة ، وقد سبقت الإشارة إليها .

ص ٤٦٥

علم الكيمياء :

هو علم ينظر في المادة التي يتم بها تكوين الذهب والفضة بالصناعة والعمل الموصل لذلك ، ومعرفة المكونات ، وأمزجتها كالمعادن وغيرها ، وشرح الأعمال التي تخرج بها تلك المادة من القوة إلى الفعل : مثل حل الأجسام إلى أجزائها الطبيعية بالتصعيد والتقطير ، وجمد الذائب بالتكليس .

وفي زعمهم أنه يَخرُج بهذه الصناعة جسم طبيعي يسمونه الإكسير ، يُلقَى منه على الجسم المعدني كالرصاص والقصدير والنحاس بعد أن يُحمَى بالنار ، فيعود ذهباً ، وهي صناعة ليست طبيعية .

وما زال الناس يؤلِّفون فيها قديماً وحديثاً ، وإمامها جابر بن حيان ، ثم الطُّغرائي ، والمَجريطي ، وكلامهم فيها ألغاز يتعذَّر فهمها ، ولأبي بكر بن بشرون رسالة إلى أبي السمح في هذه الصناعة ، وهما من كبار تلاميذ المجريطي شيخ الأندلس في القرن الثالث .

ص ٤٨٣

إنكار ثمرة الكيميا ومفاسدها واستحالة وجودها :

كثير من العاجزين تحملهم المطامع على انتحال هذه الصنائع : لأن اقتناء المال فيها أيسر ، فيرتكبون المتاعب والمشاق والعطب أحياناً ، وإنما أطمعهم

فى العناصر ، وزعمهم أن طبائع الحروف وأسرارها مادامت سارية فى الأسماء فهى سارية فى الأكوان من لدُن الإبداع ، تنتقل فى أطواره ، وتعرب عن أسراره .

وقد تعددت فيه تآليف البُونِىّ وابن العربى ، وثمرته تصرُّف النفوس الربّانية فى الطبيعة بالأسماء الحسنى والكلمات الإلهية الناشئة عن الحروف المحيطة بالأسرار السارية فى الأكوان .

وقد قسموا الحروف إلى نارية ، وهوائية ، ومائية ، وترابية ؛ فالألف للنار ، والباء للهواء ، والجيم للماء ، والدال للتراب ، ثم ترجع كذلك على التوالى فيصير لكل عنصر سبعة حروف :

فللنار : الألف ، والهاء ، والطاء ، والميم ، والفاء ، والسين ، والذال .

وللهواء : الباء ، والواو ، والياء ، والنون ، والصاد ، والتاء ، والظاء .

وللماء : الجيم ، والزاى ، والكاف ، والصاد ، والقاف ، والثاء ، والغين .

وللتراب : الدال ، والحاء ، واللام ، والعين ، والراء ، والخاء ، والشين .

والتصرف فى عالم الطبيعة بهذه الحروف والأسماء المركبة منها ، والتأثر بها لا يُنكَر ؛ لثبوته بالتواتر ، وتصرُّف أصحاب الأسماء إنما يحصل لهم بالمجاهَدة والكشف من النور الإلهى والإمداد الربانى ، فيُسخِّر الطبيعة دون مدد من القوى الفلكية ، فإن خلا صاحب الأسماء عن معرفة أسرار الله وحقائق الملكوت ، اقتصر على مناسَبات الأسماء وطبائع الحروف — كان من أهل السيمياء ، لا فرق بينه و بين صاحب الطلسمات ، بل هو أضعف .

والحقيقة أن من يدّعى الحصول على الذهب بالصنعة كمن يدعى بالصنعة تخليق إنسان ، فحاصل الكيمياء أنها مساوقة الطبيعة المعدنية بالفعل الصناعى ؛ ليتم تخليق مادة تفعل فى الجسم فعلا طبيعيا تقلبه إلى صورتها، والفعل الصناعى مسبوق بتصوّرات أحوال الطبيعة المعدنية التى يقصد محاذاتها تصورا مفصلا . والعلم البشرى عاجز عن الإحاطة بها .

وحكمة الله فى الحجرين و بذورهما أنهما قيم لمكسب الناس . فلو حصل عليهما بالصنعة لبطلت حكمته .

والكيمياء إن صح وجودها فليست من الصنائع الطبيعية . ولا تتم بأمر صناعى ، و إنما هى من الأمور السحرية أو المعجزات أو الكرامات ، وأكثر من يعنى بها الفقراء العاجزون عن الطرق الطبيعية للمعيشة .

ص ٤٧٣

الفلسفة وفساد منتحليها :

العلوم عارضة للعمران . وضررها بالدين كثير ، فوجب أن يصدع بشأنها و يكشف عن المعتقد الحق فيها .

و إذا نظر الفكر فى المعقولات المجردة . فلابد من إضافة بعضها لبعض ، ونفى بعضها عن بعض بالبرهان العقلى اليقينى ، ليحصل تصور الوجود . وهذه الإضافة هى التصديق ، وهو متقدم فى النهاية على التصور؛ لأن التصديق وسيلة والتصور غاية .

فى ذلك صيرورة الفضة ذهبا ، والنحاس والقصدير فضة ، ويحسبونه من ممكنات الطبيعة ، فيعكفون عليه ابتغاء الرزق ، ويتناقلون قواعده من كتب أئمة الصناعة قبلهم ، ويتناظرون فى فهم لُغُوزها ، وكشف أسرارها ؛ كتآليف جابر بن حيان ، والمجريطى ، والطغرائى ، والمُعَيْرِبِيّ ، ومنهم من يقتصر على الدَّلْسَة ؛ كتمويه الفضة بالذهب أو النحاس بالفضة ، أو الخِفْيَة ؛ كإلقاء الشبه بين المعادن بالصناعة مثل تبييض النحاس ، ولهم سِكَّة (عُمْلَة) يُسَرِّبُونها بين الناس ، ويطبعونها بطابع السلطان ، وهؤلاء أخس الناس لتلبسهم بسَرِقة أموال الناس .

ومنهم من نزّه نفسه عن إفساد السِّكة ، وإنما يطلب إحالة الفضة للذهب والقصدير للفضة ، بالعلاج والإكسير ، فلا نعلم أحداً تمّ له هذا الغرض ، إنما تذهب أعمارهم فى العلاج والبحث ، يتناقلون حكايات وقعت لغيرهم شأنَ المُغرَمين بوساوس الأخبار .

وانتحال هذه الصنعة قديم ، ومبنَى الكلام فيها على حال المعادن السبعة المُنْطرِقة وهى الذهب ، والفضة ، والرصاص ، والقصدير ، والنحاس ، والحديد ، والخارصين ، وهل هى مختلفة بالفصول ، وكلها أنواع بذاتها ؟ كما يقول ابن سينا ، أو مختلفةُ الخواص ، وكلها أصناف لنوع واحد كقول الفارابى ؟

وقد بُنِيَ على اتفاقها فى النوع إمكان انقلاب بعضها إلى بعض لإمكان تبدُّل الأعراض ، وعلاجها بالصنعة ، ومن هنا كانت صناعة الكيمياء ممكنة ، وبُنى على الرأى الآخر إنكار الكيمياء .

إلا أن المدارك الروحية بذاته،والجسمانية بآلات الجسم . وكل مدرِك له ابتهاج بما يدركه ، والنفس الروحانية إذا شعرت بإدراكها بغير واسطة حصل لها ابتهاج ولذة لا بنظر ولا علم ، وإنما بكشف حجاب الحس ، والمتصوفة يعنون بحصول هذا الإدراك للنفس بالرياضة .

وأما قولهم : إن البهجة الناشئة عن الإدراك هي عين السعادة الموعودة — فباطل ؛ لما قرروه من أن وراء الحس مدركا آخر يبتهج بإدراكه ، وذلك لا يُعيِّنُ أنه عين السعادة الأُخرَوِيّة .

فهذا العلم غير واف بمقاصدهم مع ما فيه من مخالفة الشرائع ، وليس له إلا ثمرة واحدة هي شحذ الذهن لتحصيل ملكة الصواب في البراهين ، وهي أصح ما علمناه من القوانين . فليكن الناظر فيها متحرزا من معاطبها ، وليكن نظره فيها بعد الامتلاء من الشرعيات .

س ٩٠٤ مجلد ط : باريس

المقاصد التي ينبغي اعتمادها بالتأليف :

العلوم البشرية خزانتها النفس بما فيها من الإدراك والفكر المحصِّل لها بالتصوُّر للحقائق ، ثم بإثبات العوارض الذاتية أو نفيها ، فإذا استقرت من ذلك صورة علمية في الضمير فلا بد من بيانها لآخر : إما على وجه التعليم ، أو على وجه المفاوضة، لصقل الأفكار وتصحيحها ، وذلك البيان إنما يكون بالكلام المركب من الألفاظ ، المركبة من حروف ، لتبيِّن ضمائر المتكلمين

وحاصل مداركهم أنهم عثروا على الجسم بالحس ، ثم شعروا بالنفس بالحركة والحس ، ثم أحسوا بالعقل ووقف إدراكهم عنـده ، فقضوا أن يكون للفلك عقل ونفس كما للإنسان ، ويزعمون أن السعادة فى إدراك الوجود على هـذا النحو مع تهذيب النفس وتخلقها بالفضائل ، وأن ذلك ممكن بمقتضى العقل والفطرة ولو لم يرد به شرع ، وأن الجهل بذلك هو الشقاء ، وهذا عندهم هو معنى النعيم والعذاب .

وأرسطو هو الذى حصّل هذه المذاهب، ورتّب قانونها واستوفى مسائلها؛ لأنه المعلم الأول لصناعة المنطق ، وأخذ عنه من المسلمين الفارابى وابن سينا .

وهـذا الرأى باطل ؛ لأن إسنادهم الموجودات كلها إلى العقل قُصور عما وراء ذلك ، وكأنهم بمثابة الطبيعيين المعتقدين أن ليس وراء الجسم شىء .

والبراهين التى يعرضونها على معيار المنطق قاصرة .

أما فى الجسمانيات : فلأن المطابقة بين النتائج الذهنية وبين مافى الخارج غير يقينى ، لأن تلك كلية عامة ، والموجودات مشخصة .

وأما فى الروحانيات : فذواتها مجهولة ، لا يمكن أن نجرد منها ماهيات ، فلا يتأتى لنا برهان لإثبات وجودها إلا بالظن ، ونحن إنما يعنينا اليقين .

وقولهم : إن السعادة فى إدراك الموجودات بتلك البراهين ــ قول مزيف؛ لأن الإنسان مركب من جزءين : جسمانى وروحانى ، ولـكل منهما مدارك خاصة، والمُدرِك واحد هو الروحانى، يُدرِك تارة مدارك روحانية وتارة جسمانية؛

ومنها السَريانى ، وهو كتابة النبط والـكلدانيّين .

ومنها العِبْرانى ، وهو كتابة بنى عابر من إسرائيل .

ومنها اللّطينى خط اللطينيين من الروم، ولـكل أمة اصطلاح فى الـكتابة يعزى إليها .

ثم إن الناس حصروا مقاصد التآليف فعدُّوها سبعة :

أولها : استنباط المؤلف العلم ، بموضوعه ، وتقسيم أبوابه وفصوله ، وتتبّع مسائله ، أو استنباط مسائل ومباحث تعرض للمحقق . ويحرص على إيصاله للغير ، لتعم المنفعة .

وثانيها : أن يقف على كلام الأولين وتواليفهم ، فيحرص على إبانة ذلك لغيره ممن عساه يستغلق عليه ، وهذه طريقة البيان لـكتب المعقول والمنقول .

وثالثهـا : أن يعثر المتأخر على خطأ فى كلام المتقدم ممن اشتهر فضله . ويستوثق من ذلك بالبرهان ، فيحرص على إيصال ذلك لمن بعده ، إذ قد تعذر محوُه بانتشار ذلك وشهرة المؤلف ووثوق الناس بمعارفه .

ورابعها : أن يكون الفن قد نقصت منه مسائل أو فصول بحسب انقسام موضوعه ، فيقصد أن يتمم ما نقص ، ليكمل الفن .

وخامسها : أن تـكون مسائل العلم قد وقعت غير مرتبة ولا منتظمة فى أبوابها ، فيقصد أن يرتبها ويهذبها ويجعل كل مسألة فى بابها .

وسادسها : أن تـكون المسائل مفرقة فى أبوابها من علوم أخرى . فينبه

بعضهم لبعض ، وهــذه رتبة أولى فى البيان عما فى الضمائر ، وأشرفها العلوم ، فهى شاملة لــكل مايندرج فى الضمير .

وبعد هذه الرُّتبة من البيان رتبة ثانية ، يُؤدَّى بها مافى الضمير لمن غاب شخصه ، أو لمن يأتى بعد ، وهذا البيان منحصر فى الــكتابة ، وهى رقوم تدل أشكالها بالتواضع على الألفاظ النطقية .

وأهل البيان معتنون بإيداع مافى ضمائرهم بطونَ الأوراق بهذه الــكتابة، وهؤلاء هم المؤلفون .

والتواليف بين العلوم البشرية والأمم كثيرة،متنقلة فى الأجيال والأمصار، مختلفة باختلاف الشرائع والملل .

أما العلوم الفلسفية فلا اختلاف فيها ؛ لأنها تأتى على نهج واحد تقتضيه الطبيعة الفــكرية فى تصور الموجودات جسمانيها وروحانيهاوفلــكيّها وعنصريّها ومجردِها ومادتها .

وإنمــا يقع الاختلاف فى العلوم الشرعية لاختلاف الملل ، أو التاريخية لاختلاف خارج الخبر .

ثم الــكتابة مختلفة باصطلاحات البشر فى رسومها وأشكالهــا ، ويسمى ذلك قلما وخطا .

فمنها الخط الحِمْيَرِىّ ـ ويسمى المسنَد ـ وهو كتابة حِمْيَر وأهل اليمن الأقدمين .

التعليم

وجه الصواب فى التعليم وطرق إفادته :

تلقين العلوم يكون مفيدا إذا كان على التدريج ؛ يُلقَى للمتعلم — أولا — مسائل هى أصول الفن ؛ ويُقرَّب له شرحُها بالإجمال ، ويُرَاعَى جودةُ عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه ، فيحصُل له ملَكةٌ جزئية ، غايتها تهيئتُه لفهم الفن ، ثم يرجَع به المعلم إلى الفن ، فيرفعه فى التلقين إلى مرتبة أعلى ، ويستوفى الشرح ، ويخرج عن الإجمال ، بذكر الخلاف ووجهه ، حتى ينتهى إلى آخر الفن ، فتجودَ ملكتُه ، فإن الاستعداد فى المتعلم ينشأ تدريجا ، فبالتقريب ، والإجمال ، والأمثال الحسية يتدرج الاستعداد حتى تتم الملكة ، وإذا أُلقِيتْ عليه الغاياتُ فى البدايات كَلَّ ذهنُه ، وحسب ذلك من صعوبة العلم ، فانحرف عنه ، وتمادى فى هجرانه ، وإنما ذلك من سوء التعليم .

والمتعلم إذا حصّل ملكة ما فى علم من العلوم ، استعدّ بها لقبول ما بقى ، وحصل له نشاط فى طلب المزيد ، حتى يستولى على غايات العلم ، وإذا اختلط عليه الأمر عجز عن الفهم ، وأدركه الكلال ، وانطمس فكره ، ويأس من التحصيل ، وهجر التعليم .

إلى موضوعه وجمع مسائله ، فيظهر به فنًّا ينتظمه فى جملة العلوم ، كما وقع لعلم البيان على يدى عبدالقاهر والسكاكى .

وسابعها : أن يكون الشىء من التواليف فى أُمَّهات الفنون مطوّلا ، فيقصد بالتأليف تلخيص ذلك بالاختصار والإيجاز وحذف المكرر إن وقع ، مع الحذر من حذف الضرورى لئلا يُخلّ بالقصد .

هذه جملة المقاصد التى ينبغى اعتمادها بالتأليف ومراعاتها ، أما ماسوى ذلك فغير محتاج إليه .

العلوم الآلية لا يُوسَّع فيها :

٣

العلوم عند أهل العمران صنفان : علوم مقصودة بالذات ؛ كالشرعيات والطبيعيات ، والإلهيات ، وعلوم آليّة ، كالعربية ، والحساب ، والمنطق .

فالعلوم التي هي مقاصد لا حَرَج في توسعة الكلام فيها ، فإن ذلك يزيد طالبها تمكّنًا ، وأما علوم الآلة فلا ينبغي أن يُنظَر فيها إلا من حيث هي آلة ، ولا يُوسَّع فيها الكلام ؛ لأن ذلك مُخرِج لها عن المقصود ، وربما عاق عن تحصيل العلوم المقصودة وهي أهم ، والعمر يقصر عن تحصيل الجميع . فيكون الاشتغال بالعلوم الآلية تضييعًا للعمر ، ومضرة بالمتعلمين ؛ لصرفهم عن المقاصد إلى الوسائل .

تعليم الولدان واختلاف مذاهبه :

تعليم القرآن للولدان شعار أهل الملة ؛ لرسوخ عقائد الإيمان من الآيات والأحاديث ، ولأن التعليم في الصغر أشد رسوخًا ، وهو أصل الملكات .

وقد اختلفت الطرق في تعليم القرآن باعتبار ما ينشأ عنه من الملكات .

فمذهب أهل المغرب اقتصار الولدان على القرآن ، وأخذهم برسمه ومسائله ، لا يخلطون ذلك بحديث ولا فقه ولا شعر ، حتى لا ينقطع المتعلم دونه فينقطع عن العلم بالجملة .

وأهل الأندلس يخلطون بذلك رواية الشعر ، والترسّل ، وقوانين العربية ،

وينبغى ألا يطول التعليم فى الفن الواحد بتفريق المجالس ؛ لأنه ذريعة إلى النسيان وانقطاع مسائل الفن ، فيعسر حصول الملكة ، لأن الملكات تحصل بتتابع العمل وتكراره .

ومن الواجب ألا يُخلَط على المتعلم علمان معا ، لما فيه من تقسيم البال ، وانصرافه عن كل واحد إلى تفهم الآخر ، فيَستغلِقان معا ، وتفرّغ الفكر لتعليم ماهو بسبيله أجدر بتحصيله .

والفكر الإنسانى طبيعة فطرها الله ، وهو وجدان وحركة للنفس فى البطن الأوسط من الدماغ ، والصناعة المنطقية هى كيفة فعل هذه الطبيعة الفكرية ؛ لتعلَّم سداده من خطئه ، فالمنطق أمر صناعى مساوق للطبيعة الفكرية ، وقد يستغنى عنه النظار فى الخليقة مع صدق النية والتعرض لرحمة الله .

وقبل تعلُّم المنطق لابد من تعلم دلالة الكتابة المرسومة على الألفاظ المَقُولة ، ثم دلالة الألفاظ على المعانى المطلوبة ، ثم القوانين فى ترتيب المعانى للاستدلال بقوالبها المعروفة فى صناعة المنطق . ثم تلك المعانى مجردة فى الفكر وهى أشراك يُقتنَص بها المطلوب . وليس كل أحد يتجاوز هذه المراتب بسرعة ، بل ربما وقف الذهن فى حجب الألفاظ أو عثر فى أشراك الأدلة ، وقعد عن تحصيل المطلوب .

فإذا حصل المطلوب فليُرجَع إلى قوالب الأدلة لإفراغه فيها ، وتوْفِيَته حقه من القانون الصناعى ، ثم كُسوتِه بالألفاظ وإبرازه إلى عالم الخطاب .

ونهى أن يُخْلَط علمان إلا أن يكون المتعلم قابلا لذلك بجودة الفهم والنشاط .

ومذهب أبي بكر مذهب حسن إلا أن العوائد لاتساعده عليه ، فإنها جرت على تقديم القرآن للتبرك والثواب ، وخشـية مايعرض للولد فى جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم ، فيفوته القرآن ، فيغتنمون فى زمان الحجر تحصيل القرآن؛ لئلا يذهب خلوا منه ، ولو حصل اليقين باستمراره فى طلب العلم لـكان مذهب أبي بكر أولى ما أخذ به أهل المغرب والمشرق .

ص ٩٧

الشدة على المتعلمين مضرة بهم :

إرهاف الحد فى التعليم مضر بالمتعلم؛ لأنه من سوء الملـكة ، ومن كان مرباه بالعسف ، سطا به القهر ، وضيّق انبساط نفسه ، وذهب بنشاطها ، فدعا إلى الـكسل ، وحمل على الـكذب والخبث ، والمـكر والخديعة ، خوفا من انبساط الأيدى بالقهر عليه ، وصار ذلك عادة ، وفسدت معانى الإنسانية فيه ، من حيث الاجتماع والتمدن ، والمدافعة عن النفس والمنزل ، وكسلت النفس عن الفضائل ، وانقبضت عن غايتها ، فارتكس وعاد أسفل سافلين .

فينبغى للمعلم والوالد ألا يستبدا على الأبنـاء فى التأديب ، وألا يزيدا فى ضربهم على ثلاثة أسواط .

ومن أحسن مذاهب التعليم ماتقدم به الرشيد لأحمر معلم ولده الأمين حين قال له : ولا تمرَّنَّ ساعةً إلا وأنت مُغتنِمٌ فائدةً تُفيدُه إياها ، من غير

والخط ، إلى أن يخرج الولد وقد تعلق بالعلم جملة .

وأهل إفريقيّة يخلطون القرآن بالحديث وقوانين العلوم ، إلا أن عنايتهم بالقرآن وقراءاته أكثر ، ويتبعه عنايتهم بالخط .

وأما أهل المشرق فيخلطون فى التعليم ، وعنايتهم بالقرآن وصحف العلم وقوانينه أكثر ، وللخط عندهم قوانين ومعلمون على انفراد ، لا يتداولونه فى مكاتب الصبيان .

وأهل إفريقية والمغرب جعلهم الاقتصار على القرآن قاصرين عن ملكة الإنسان ، فالقرآن لا ينشأ عنه ملكة ؛ لأن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله ، فهم مصروفون عن احتذاء أساليبه ، فلا يحصل لصاحبه ملكة فى اللسان العربى .

وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن فى التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ، فصاروا أعرق فى اللسان العربى ، وقصّروا فى العلوم لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث ، فكانوا أهل خط وأدب .

وذهب أبو بكر بن العربى إلى تقديم العربية والشعر على سائر العلوم ؛ لأن الشعر ديوان العرب ، وتعليم العربية ضرورة بسبب فساد اللغة ، ثم الحساب ليتمرن على القوانين ، ثم القرآن فإنه يتيسر عليه بهذه المقدمة ، ثم ينظر فى أصول الدين ، ثم أصول الفقه ، ثم الجدل ، ثم الحديث وعلومه ، ومن الغفلة أن يؤخذ الصبى أوّلا بكتاب الله ، فيقرأ ما لا يفهم .

ص ٤٩٧

الرحلة لطالب العلم ولقاء شيوخه من كمال التعلم :

ذلك لأن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم تارة علما وتعليما ، وتارة محاكاة وتلقينا ، وحصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد وأقوى رسوخا ، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ، وكذلك فإن الاصطلاحات في العلوم مُخلَّطة ، ولقاء أهل العلوم يفيد في تمييز الاصطلاحات وتصحيح المعارف ، واستحكام الملكات يكون بالمباشرة .

العلماء أبعد عن السياسة :

ذلك لأنهم معتادون النظر الفكري ، وانتزاع المعاني من المحسوسات ، وتجريدها ليُحكَمَ عليها بالعموم لا بخصوص مادة ولا شخص ولا جيل ولا أمة ، ويُطَبِّقون الكلي على الخارجيات ، ويقيسون الأمور بأشباهها ، ولا تزال أحكامهم كلها في الذهن ، ولا تصير مطابقة إلا بعد الفراغ من البحث والنظر ، فهم متعودون الأمور الذهنية لا سواها .

والسياسة تحتاج مراعاة ما في الخارج وأحواله الخفية ، وقد يوجد فيه ما يمنع من إلحاقها بِشَبه ، وما ينافي الكلي ، ولا يقاس شيء من العمران على الآخر ، لأنهما إن اشتبها في أمر اختلفا في أمور .

فالعلماء إذا نظروا في السياسة أفرغوا ذلك في قالبهم واستدلالاتهم ، فيقعون في

أن تُحرِجه فتُميتَ ذهنَه ، ولا تُمعِنْ في مسامحته ، وقَوِّمْه بالقرب والملاينة ، فإنْ أباهما فعليك بالشدة .

ص ٤٨٠

كثرة التآليف في العلوم عائقة عن التحصيل :

مما أضر في تحصيل العلوم كثرة التآليف ، واختلاف الاصطلاحات ، ومطالبة المتعلم باستحضارها ، فيحتاج إلى حفظها ومراعاة طُرُقها ، ولا يفي عمره فيقع القصور إلا في القليل النادر .

كثرة الاختصارات مخلة بالتعليم :

ذهب المتأخرون إلى الاختصار في كل علم ، يُدوِّنون منه برنامجاً يشتمل على حصر مسائله ؛ باختصار الألفاظ ، وحشوها بالمعاني الكثيرة ، وقد صار ذلك مُخِلّاً بالبلاغة ، عسِراً على الفهم ، وهو فساد في التعليم ، وإخلال بالتحصيل ، لأن فيه تخليطا على المبتدئ ، بإلقاء غايات من العلم عليه ، وذلك من سوء التعليم ، لأن فيه شُغلًا كبيراً على المتعلم ، بتتبُّع ألفاظ الاختصار التي صارت عويصة بتزاحم المعاني عليها ، وصعوبة استخراج المعاني منها ، فيضيع في فهمها الوقت ، ثم الملكة الحاصلة من التعليم في المختصرات قاصرة عن الملكات التي تحصُل من الموضوعات البسيطة المطوّلة .

صناعة، ودفعوا ذلك إلى العجم للقيام به. فلما خرج الأمر من يد العرب صارت العلوم الشرعية غريبة النسبة عندهم.

أما العلوم العقلية فلم تظهر في الملة إلا بعد أن صار العلم صناعة، واختص به العجم، ولم يزل فيهم ما دامت الحضارة في أمصارهم، فلما خربت تلك وذهبت منها الحضارة، ذهب العلم من العجم جملة. واختص بالأمصار الموفورة الحضارة، ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر، فهي أم العالم وإيوان الإسلام وينبوع العلم والصنائع.

إذا سبقت العجمة إلى اللسان قعدت بصاحبها عن تحصيل علوم اللسان العربي:

والسر أن مباحث العلوم إنما هي في المعاني الذهنية والخيالية: فالعلوم الشرعية أكثر مباحثها في الألفاظ. وموادها الأحكام المتلقاة من الكتاب والسنة ولغاتها المؤدية لها، وكلها في الخيال، والعلوم العقلية كلها في الذهن واللغات ترجمان عما في الضمائر. وتؤدى بالمشافهة وممارسة البحث في العلوم، والألفاظ وسائط وحجب بين الضمائر، ولا بد لأجل اقتناص المعاني من ألفاظها من معرفة دلالاتها اللغوية وجودة الملكة. وإلا صعب اقتناصها زيادة على ما في مباحثها الذهنية من الصعوبة، وإذا كانت الملكة راسخة بحيث تتبادر المعاني إلى الذهن من الألفاظ، زال ذلك الحجاب بين المعاني والفهم، أو خف، ولم يبق إلا معاناة ما في المعاني من المباحث.

هذا إذا كان التعليم تلقينا. أما إن احتاج إلى التقييد ومشافهة الرسوم

[illegible] إلى

[illegible]

[illegible] على

[illegible] في السياسة .

٢٩ حملة العلم في الإسلام [illegible]

السبب أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة . وإنما هي أحكام الشريعة ، يتلقاها الرجال وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة . وهم عرب لم يعرفوا التأليف والتدوين ، ولا دفعتهم إليه حاجة . فلما بعد النقل ، احتيج لوضع التفاسير ، وتقييد الحديث ، ثم لمعرفة الأسانيد ، ثم فسد اللسان ، فاحتيج إلى وضع القوانين النحوية . وصارت العلوم الشرعية ملكات في الاستنباط والقياس ، واحتاجت إلى وسائل للدفاع عن العقائد الإيمانية بالأدلة ؛ لكثرة البدع والإلحاد . فصارت هذه كلها علوماً محتاجة للتعليم ، فاندرجت في الصنائع . وقد قدّمت أن الصنائع من مُنتَحَل الحضر ، والعرب أبعد الناس عنها ، والحضر لذلك العهد هم العجم ؛ للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس ، فكانت لهم صناعة النحو ، والحديث ، وأصول الفقه ، وعلم الكلام ، ومنهم أكثر المفسرين .

وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة ، فشغلتهم الرياسة والملك ؛ لأنهم أهل الدولة ، وحاميتها ، وساستها ؛ مع مافيهم من أنفة عن انتحال العلم لمّا صار

علوم اللسان العربي

اللسان العربي أركانه أربعة : اللغة ، والنحو ، والبيان ، والأدب ، ومعرفتها ضرورية لأهل الشريعة ؛ إذ مأخذ الأحكام من الكتاب والسنة ، وهما بلغة العرب ، ونقلتها عرب ، والنحو هو الأهم ، إذ به تتبين أصول المقاصد بالدلالة ، ولولاه لجهل أصل الإفادة ، وكان حق علم اللغة التقدم ، لولا أن الأوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير ، بخلاف الإعراب ، فلهذا كان النحو أهم ؛ إذ في جهله الإخلال بالتفاهم .

علـــم النحو :

اللغة هي عبارة المتكلم عن مقصوده . وهي فعل لساني ، فلا بد أن تصير ملكة للسان . وهذه الملكة للعرب من أحسن الملكات ، لدلالة أشياء غير الكلمات على المعاني ، مثل الحركات التي تعين الفاعل والمفعول ، والحروف التي تُفضِي بالأفعال إلى الذوات من غير تكلف ألفاظ أخرى .

وكانت هذه الملكة في ألسنتهم ، يأخذها الآخر عن الأول . فلما جاء الإسلام ، وفارقوا الحجاز ، وخالطوا العجم تغيرت الملكة بالاستماع للمخالفات

مقدمة ص ٥٠١

الخطية ، كان هناك حجاب آخر بين الخط والألفاظ المقولة فى الخيال ؛ لأن رسوم الكتابة لها دلالة خاصة على الألفاظ ، وما لم تُعرَف تلك الدلالة تعذرت معرفة العبارة ، ويزداد بذلك حجاب آخر أعوص من الأول .

والملة الإسلامية لما اتسع ملكها ، واندرجت الأمم فى طيها ، ودرست علومَ الأولين ، كانت أُمِّيَّة النزعة والشِّعار ، فأخذها الملك والعزة بالحضارة والتهذيب ، وصيَّروا علومهم الشرعية صناعة ، فحدثت فيهم الملكات ، وكثُرت التواليف ، وتشوفوا إلى علوم الأمم ، فنقلوها ، وأفرغوها فى قالبهم ، وجردوها من اللغات الأعجمية ، وأصبحت كلُّها بلغة العرب وخطهم ، واحتاج القائمون بالعلوم إلى معرفة الدلالات اللّفظية والخطية فى لسانهم دون سواه من الألسن التى بادت وذهبت العناية بها .

واللغة ملكة فى اللسان ، والخط صناعة فى اليد ، فإذا تقدمت فى اللسان ملكةُ العُجمة صار مقصِّرا فى اللغة العربية ودلالتها اللفظية والخطية ، وصعب فهم المعانى ، إلا أن تكون ملكة العجمة السابقة لم تستحكم ، كما فى أصاغر أبناء العجم الذين يُرَبَّوْن مع العرب ، وربما يُفضى الدَّأَبُ والمران على اللغة والخط إلى تمكن الملكة ، كما نجد فى الكثير من علماء الأعاجم ، ولكنه نادر ، وإذا قُرِن أحدهم بنظيره من علماء العرب كان باعُ العربى أطول .

ولا يُعترض ذلك بما تقدم من أن علماء الإسلام أكثرهم من العجم ؛ لأن المراد بالعجم هنالك عجم النسب لتداول الحضارة فيهم ، وأما عُجمة اللغة فليست كذلك .

علم اللغـــة :

هو بيان الموضوعات اللغوية ؛ لأنه لما فسدت ملكة اللسان في الإعراب تأدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ ، فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه ، فاحتيج إلى حفظ الموضوعات بالتدوين : خشية الجهل بالقرآن والحديث ، وكان السابق في ذلك الخليل ، فألف كتاب « العين » ، حصر فيه مركبات حروف المعجم ، من الثنائي إلى الخماسي ، بوجوه عددية ، ثم رتب أبوابه بترتيب مخارج الحروف ، وبدأ بحروف الحلق ، وبدأ منها بالعين ، وبه سمى كتابه ، وجاء أبو بكر الزبيدي ، فاختصره ، وألف الجوهري « الصحاح » على ترتيب المعجم ، فجعل البداءة بالهمزة ، وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الأخير من الكلمة ، ثم ألف من الأندلسيين ابن سيده كتاب « المحكم » على ترتيب العين ، ولخصه محمد بن أبي الحسين وقلب ترتيبه إلى ترتيب كتب « الصحاح » .

ومن كتب اللغة كتاب الزمخشري في المجاز ، وفي فقه اللغة ألف الثعالبي كتابه « فقه اللغة » ، وأكثر ما يحتاج إليه الأديب في نظمه ونثره ، حذرا من اللحن في مفردات اللغة وتراكيبها ، وهو أشد من اللحن في الإعراب .

وألف بعض المتأخرين في الألفاظ المشتركة ، وأما المختصرات المتداولة في

المتعربين ، واسمع أبو الملكات اللسانية ، ففسدت الملكة ، وخشى أهل العلوم أن تفسد جملة بطول العهد ، فينغلق القرآن والحديث على الفهوم ، فاستنبطوا من مجرى كلامهم قوانين يقيسون عليها ؛ مثل : أن الفاعل مرفوع ، والمفعول منصوب ، ثم رأوا تغيير الدلالة بتغيُّر حركات الكلمات ، فاصطلحوا على تسميته إعرابا ، وتسمية الموجب له عاملا ، وجعلوها صناعة سمَّوها علم النحو .

وأول من كتب فيه أبو الأسود الدؤلى ، بإشارة من علىّ رضى الله عنه، ثم انتهى إلى الخليل بن أحمد أيام الرشيد فهذَّب هذه الصناعة ، وأخذها عنه سِيبَوَيْهْ ، فكمَّل تفاريعها ، واستكثر شواهدها ، ووضع فيها كتابه المشهور ، ثم وضع أبو علىٍّ الفارسى ، وأبو القاسم الزجاج مختصرات للمتعلمين ، ثم حدث الخلاف بين أهلها فى الكوفة والبصرة ، وتباينت الطرق ، وكثر الاختلاف فى إعراب آى القرآن ، واختصر المتأخرون كثيرا من طولها ، كما فعل ابن مالك ، والزمخشرى ، وابن الحاجب ، ونظمها بعضهم كما فى ألفية ابن مالك .

والتآليف فى هذا الفن كثيرة ، وطرق التعليم مختلفة بين البصريين ، والكوفيين ، والبغداديين ، والأندلسيين ، وكادت هذه الصناعة تذهب بتناقص العمران ، لولا أن وصلنا من مصر ديوان ابن هِشام ، استوفى فيه أحكام الإعراب ، وتكلم عن الحروف والمفردات والجمل ، وحذف المتكرر فى أبوابها ، وأشار إلى نُكَتِ إعراب القرآن ، وسماه « المُغْنِى » ، فوقفنا منه على علم جمٍّ يشهد بعلو قدره فى هذه الصناعة .

أن محّضها السّكاكى ، ورتب أبوابها فى كتابه « المفتاح » ولخص المتأخرون أمّهات هذا الفن ، مثل « التبيان » للسّكاكى ، « والمصباح » لابن مالك ؛ و « الإيضاح » ، و « التلخيص » للقزوينى .

والمشارقة أقوم على هذا الفن ؛ لأنه كمالى فى العلوم اللسانية ، والكمالى يوجد فى العمران ، والمشرق أوفى عمرانا ، وكذلك لعناية العجم به ، وهم معظم أهل الشرق ، ومن الكتب المبنية على هذا الفن تفسير الزّمخشرى ، وقد اختص أهل المغرب بالبديع ؛ وجعلوه من علوم الأدب ، وقد حملهم على ذلك الولوع بتزيين الألفاظ ؛ وأن البديع سهل ، أما مآخذ البلاغة والبيان فتجافوهما ؛ لدقة مسائلهما وغموض معانيهما ، وممن ألف فى البديع ابن رشيق فى كتابه المشهور « العمدة » .

وثمرة هذا الفن فهمُ الإعجاز فى القرآن ، وأحوج ما يكون إليه المفسرون ، وقد وضع الزمخشرى تفسيره ، وتتبع آى القرآن بأحكام هذا الفن وما يُبدى من إعجازه ، فانفرد بهذا الفضل لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع .

ص
١٠٨

علـــــم الأدب :

المقصود منه الإجاده فى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ، فيجمعون ما تحصل به الملكة من شعر وسجع ، ومسائل من اللغة والنحو ، وأيام العرب وأنسابهم .

ويحددون هذا الفن بأنه حفظ أشعار العرب وأخبارهم ، والأخذ من كل

فى هذا الفن من اللغة فكثير مثل « الألفاظ » لابن السكّيت « والفصيح » لثعلب .

علم البيــان :

هو علم متعلق بالألفاظ ودلالتها على المعـانى : لأن الأمور التى يقصدها المتـكلم إما تصور مفردات من الأسماء والأفعال والحروف ، وإما تمييز المسند والمسند إليه والأزمنة ، ويدل عليها بالإعراب ، وهو من صناعة النحو ، ويبقى من الأمور المحتاجة للدلالة ــ أحوال المتخاطبين أو الفاعلين ، وما يقتضيه حال الفعل ، لأن لـكل مقام مقالا يختص به بعد كمال الإعراب من تقديم وتأخير ، وتأكيد ، وفصل ووصل ، وإيجاز وإطناب ، والدلالة باللفظ وإرادة لازمه .

فاشتمل هذا العلم على ثلاثة أصناف :

الأول : يبحث فى الهيئـات التى تطابق باللفظ مقتضيات الحال ، وهو علم البلاغة .

والثـانى : يبحث فى الدلالة على اللازم اللفظى وملزومه من الاستعارة والـكناية ، وهو علم البيان .

وألحقوا بهما النظر فى تزيين الـكلام بالسجع ، والتجنيس ، والترصيع ، والتورية ، وهو علم البديع .

وكتب فيها جعفر بن يحيى ، والجاحظ ، وقُدامة ، ولم تزل تُـكَمَّل إلى

يسمع فى العبارة كيفيات أخرى ، فاختلط عليه الأمر ، وأخذ من هذه وهذه ، فاستحدث ملكة ناقصة ، وهذا هو فساد اللسان العربى .

ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية ؛ لبعدهم عن بلاد العجم ، ومن اكتنفهم من القبائل لم تكن لغتهم تامة الملكة : لمخالطة الأعاجم ، وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم فى الصحة والفساد عند أهل الصناعة .

لغة العرب لهذا العهد مغايرة للغة مُضَر :

ص ١٠

ذلك أنا نجدها — فى بيان المقاصد والوفاء بالدلالة — جارية على سنن اللسان المُضرى ، لم يفقد منها سوى دلالة الحركات على الفاعل والمفعول ، فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير ، وقرائن تدل على خصوصيات المقاصد ، إلا أن البيان فى اللسان المضرى أكثر ، لأن الألفاظ بأعيانها دالة على المعانى بأعيانها ، ويبقى بساط الحال محتاجا إلى ما يدل عليه ، وكل معنى لابد وأن تكتنفه أحوال تخصه ،فيجب اعتبارها فى تأدية المقصود؛لأنها صفاته ، وتلك الأحوال فى جميع الألسن يَدَلُّ عليها بألفاظ تخصها بالوضع . أما فى اللسان العربى فيدل عليها بأحوال وكيفيات فى تراكيب الألفاظ ، كالتقديم والتأخير ، والحذف . وحركة الإعراب ، و بالحروف غير المستقلة . ولذلك تفاوتت طبقات الكلام بتفاوت الدلالة على الكيفيات ، فكان الكلام العربى أوجز من جميع الألسن .

علم بفن . يريدون علوم اللسان والعلوم الشرعية ، وسمعنا من شيوخنا أن أركان هذا الفن أربعة دواوين ، هي « أدب الكاتب » لابن قُتَيْبة ، و « الكامل » للمبرّد ، و « البيان والتبيين » للجاحظ ، و « النوادر » للقالى.

وكان الغناء فى الصدر الأول من أجزاء هذا الفن : لأن الغناء تلحين للشعر ، وكان الكُتّاب الفضلاء فى الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به ، وقد ألف القاضى أبو الفرج الأصفهانى كتابه فى « الأغانى » فجعل مبناه على الغناء فى المائة صوت التى اختارها المُغَنُّون للرشيد .

اللغة ملكة صناعية: ٥

اللغات ملكات فى اللسان للعبارة عن المعانى ، فإذا حصلت الملكة فى تركيب الألفاظ للتعبير عن المعانى ، ومراعاة التأليف الذى يُطَبِّق الكلامَ على مقتضى الحال ــ بلغ المتكلم الغاية من إفادة مقصوده للسامع ، وهذا هو معنى البلاغة .

والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال ؛ لأن الفعل يقع فتكون منه للذات صفة ، ثم تتكرر فتكون حالا ، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة، فالمتكلم من العرب كان يسمع كلام أهل جيله وكيفية تعبيرهم ، فيَلْقَنُها ، ثم لا يزال سماعه يتجدد فى كل لحظة ومن كل متكلم ، ولا يزال استعماله يتكرر إلى أن يصير ملكة ، ثم فسدت هذه الملكة بمخالطة الأعاجم ؛ لأن الناشىء صار

للأعاجم كانت أبعد عن اللسان الأصلي ؛ لأن الملكة بالتعليم ، وهذه ممتزجة من اللسانين ، فبِقَدْر مايسمعون من العجمة يبعدون عن الأولى ، حتى تكاد تنقلب لغة أخرى .

تعليم اللسان المضري :

ملكة اللسان المضري لهذا العهد فسدت . وأصبحت لغة الجيل مغايرة للغة القرآن ، وإنما هي لغة أخرى . إلا أن اللغات لما كانت ملكات كان تعلمها ممكنا ، بأن يأخذ المتعلم نفسه بحفظ كلامهم الجاري على أساليب القرآن ، والسنة ، وكلام السلف ، وفحول العرب . وكلمات المولدين ، حتى ينزل بكثرة حفظه منزلة من نشأ بينهم . ثم يتصرف في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم ، فتحصل له الملكة بالحفظ والاستعمال ، ويحتاج مع ذلك إلى سلامة الطبع ، والتفهم الحسَن لمنازِعهم ومراعاة مقتضيات الأحوال .

ملكة اللسان غير صناعة العربية :

ذلك لأن صناعة العربية هي قوانين الملكة ، فهي علم بكيفية ، وليست هي نفس الكيفية ، فهي بمثابة من يعرف الصناعة عِلما ولا يُحكِمها عملا . ولذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة إذا سئل كتابة سطرين أخطأ فيهما الصواب ، وأكثرَ اللحنَ ، وكذلك نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ،

وما زالت البلاغة في لسان العرب لهذا العهد . ونحن نجد الكثير من ألفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها ، وأساليب اللسان موجودة ، والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك . ولم يفقد إلا حركات الإعراب وهى بعض أحكام اللسان .

وإنما وقعت العناية بلسان مُضر لمّا فسد بمخالطة الأعاجم فى العراق والشام ومصر والمغرب ، وصارت ملكته على غير الصورة التى كانت ، فانقلب لغة أخرى ، والقرآن والحديث بلغته وهما أصلا الدين ، فخُشِىَ تناسيهما بفقد اللسان . فاحتيج إلى تدوين أحكامه ، وصار عِلماً مكتوبا ، وسُلَّماً إلى فهم الكتاب والسنة .

ولعلنا لو اعتنينا باللسان العربى لهذا العهد ، واستقرينا أحكامه ، نَعتَاضُ عن الحركات الإعرابية فى دلالتها بأمور أخرى ، فنكوِّن لها قوانين على غير المنهاج الأول فى لغة مضر ، فليست اللغات وملكاتها مجّاناً ، ولقد كان اللسان المُضرى مع اللسان الحميرى بهذه المَثَابة ، وتغيرت عند مضر كثير من موضوعاتها كما تشهد الأنقَال الموجودة لدينا .

والتخاطب فى الأمصار ليس بلغة مضر ، بل بلغة قائمة بذاتها ، يشهد بذلك التّغايرُ الذى يعُدُّه النحاة لحنا ، وهى تختلف باختلاف الأمصار فى اصطلاحاتهم ، وكل منهم مُتوصِّل إلى تأدية مقصوده ، وهذا هو معنى اللسان ، وفقدان الإعراب لا يضير .

وهذه اللغة بعدت عن اللسان الأول بمخالطة العجمة ، وكلما كثرت مخالطة أصحابها

كلامهم ، ور بما يعجز عن الاحتجاج بطريقة أهل النحو والبيان .

وهذا أمر وجدانى حاصل بالممارسة ، سمَّوْه الذَّوْق ، وهولا يحصل للأعاجم لقصور ملكتهم ، بسبب سبق ملكة أخرى إلى لسانهم ، واتحصيلهم لتلك القوانين من الكتب وهى لاتحصِّل الملكة وإنما تُعطِى الصناعة .

أما سيبويه وأبو على الفارسى والزمخشرى وأمثالهم من فرسان الكلام فهم أعاجم بالنسب فقط ، أما المربَى والنشأة فبين العرب .

ويجيد المنظوم والمنثور لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول ولا شيئا من قوانين صناعة العربية .

من هذا نعلم أن تلك الملكة غير صناعة العربية ، وأنها مستغنية عنها بالجملة ، وقليلا ما نجد بعض المهرة فى الصناعة بصيراً بحال هذه الملكة ، وهو اتفاق ، وأكثرهم من المخالطين لكتاب سيبَوَيْه ، الذى لم يقتصر على الإعراب بل مُلِئ بالأمثال والشواهد ، وكذلك أهل هذه الصناعة بالأندلس لقيامهم فيها على شواهد العرب وأمثالهم .

٥ ب — الذوق عند أهل البيان :

معناه حصول ملكة البلاغة للسان ، فالبليغ يتحرّى الهيئة المفيدة للبلاغة وينظم الكلام على ذلك الوجه حتى تحصل له الملكة ، فيسهُل عليه التركيب ، وإذا سمع تركيباً غير جار على هذا المنحى مجَّه ونبَا عنه سمْعُه بأدنى فكر أو حتى بغير فكر ، فإن الملكات إذا رسخت ظهرت كأنها طبيعة ، ولذلك يُظَنّ أن الصواب للعرب فى لغتهم أمر طبيعى ، وليس كذلك ، ولكنها ملكة تمكنت ورسخت ، فظهرت كأنها جبلة وطبع .

وهذه الملكة تحصل بممارسة كلام العرب ، والتفطن لخواصه لا بمعرفة القوانين . وملكة البلاغة تهدى البليغ إلى حسن التركيب الموافق لتراكيب العرب ، ولو رام حَيْداً عن هذه السبيل لما قدر ولا وافقه لسانه ، وإذا عُرِض عليه الكلام حائداً عن أسلوب العرب أعرض عنه ومجّه ، وعلم أنه ليس من

لاتتفق الإجادة فى المنظوم والمنثور معا :

والسبب فى ذلك أن مايسبق من أحدهما يصير ملكة للسان ، فإذا سبقت إحداهما ، قصرت بالمحلّ عن تمام الملكة اللاحقة ، فوقعت المنافاة . [illegible] الملكة ، وهذا موجود فى الملكات الصناعية ، وفى ملكات اللسان ، والملكات لاتزدحم ، ومن سبقت له إجادة فى صناعة قل أن يجيد أخرى .

صناعة الشعر ووجه تعلّمه :

هــذا الفن من فنون العرب ، وهو غريب النزعة ، إذ هو كلام منفصل قِطَعاً متساويةَ الوزن ، متحدة الحرف الأخير . وتسمى كل قطعة بيتا ، والحرف الأخير المتفق يسمَّى رَوِيًّا ، وتسمى جملته قصيدة ، وكل بيت مستقل عما قبله ومابعده ، فيحرص الشاعر على استقلاله ، ويستأنف كلاماً آخر ، ويستطرد للخروج من فن إلى فن .

ويراعى فيه اتفاق القصيدة فى الوزن ، حذَرَ الخروج من وزن إلى وزن يقاربه ، وللموازين شروط وأحكام تضمنها علم العروض ، وهى أوزان مخصوصة تسمى البحور ، وهى خمسة عشر بحرا .

والشعر فن شريف عند العرب ، ولذا جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم ، وكانت ملكته مستحكِمة فيهم ، وهو صعب المأخذ على من يريد اكتساب

إنقسام الأدب إلى فنَّيَ المنظوم والمنثور

٥ الشـــعر :

الشعر هو الـكلام الموزون المقفى ، أى الذى تـكون أوزانه على رَوِيٍّ واحد هو القافية ، والنثر هو الـكلام غير الموزون .

والشعر منه المدح والهجاء والرثاء .

والنثر منـه السجع ، والمرسل ، ويستعمل فى الخطب والدعاء والترغيب والترهيب .

والقرآن خارج عن الوصفين ، فليس مرسلا ولا مسَجَّعا ، بل تفصيل آيات ، ينتهى إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الـكلام عندها ، ثم يعاد الـكلام فى الآية بعدها ، ويثنى من غير التزام حرف يكون سجعا ولا قافية .

ولـكل فنّ أساليب لا تصلح للآخر ، وقد استعمل المتأخرون فى المنثور أساليب الشعر من الأسجاع والتقفية ، ولم يفترقا إلا بالوزن ، واستمر المتأخرون على هذه الطريقة ، وهو غير صواب من جهة البلاغة ، وأكثر من أخذ بهذا كتّاب المشرق وشعراؤه ، فأُولِعوا بالسجع والألقاب البديعية ، حتى ليُخِلّون بالإعراب فى الـكلمات والتصريف إذا دخلت فى تجنيس أو مطابقة لا يجتمعان معها .

الفكر ، ومن بواعثه العِشْق ، فإن استصعب مع ذلك فليتركه لوقت آخر ، ولا تُكره النفس عليه .

وليكن بناء البيت على القافية ، لأنه إن غُفِل عن بناء البيت عليها صعب وضعها في محلها ، فجاءت نافرة ، وإذا سمح خاطر الشاعر بالبيت ولم يناسب فليتركه إلى موضعه الأليق به ، وليراجع شعره بالتنقيح والنقد ، ولا يضنَّ به على الترك إذا لم يبلغ الإجادة .

ولا يستعمل فيه من الكلام إلا الأفصح من التراكيب ، والخالص من الضرورات ؛ لأنهـا تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة ، ويُجتَنَب المعقّد من التراكيب ،ويُقصَد منها ما كانت تسابق معانيه ألفاظَه ، وكثرة المعاني في البيت الواحد فيها تعقيد ، لأنها تستعمل الذهن بالغوص عليها ، فيمنع الذوق من استيفاء مدركه ، والحَكَمُ في ذلك هو الذوق .

وليتجنب الشاعر حُوشيّ الألفاظ ، والمعقّد ،والسُّوقيّ المبتذَل بالتداول .

وإذا تعذر الشعر فليراوده وليعاوده ، فإن القريحة كالضَّرع يَدِرُّ بالامتراء ويجف بالترك .

ص ٥٢٨

صناعة النظم والنثر إنما هي في الألفاظ لا في المعاني :

ذلك لأن الصانع الذي يحاول ملكة النظم أو النثر إنما يحاولها بحفظ أمثالها من كلام العرب حتى تستقر الملكة ، ويصير مثل وليد نشأ في جيل العرب ، لأن اللسان ملكة في النطق ، تحصل بالتكرار . والنطق هو الألفاظ ، أما المعاني

ملكته بالصناعة ، ولصعوبة منحاه ، وغرابة فنه ، كان محكًّا للقرائح .
ولا تكفى فيه ملكة الكلام العربى ، بل يحتاج إلى تلطّف ومحاولة فى رعاية الأساليب واستعمالها ، ويرجع ذلك إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة ، ينتزعها الذهن ، ويصيّرها فى الخيال كالقالب ، ثم ينتقى التراكيب الصحيحة ، فيرُصُّها كما يفعل البنّاء .

ولكل فن من فنونه أساليب مختلفة ، وليست قوانين البلاغة كافية فى ذلك ؛ لأنها قواعد علمية ، ولكن أساليبه ترسخ فى النفس من تتبع التراكيب فى الشعر العربى وحفظ أشعار العرب .

ولم نقف على حد أو رسم للشعر عند المتقدمين ، وقول العروضيين إنه الكلام الموزون المقفّى ليس بحد ولا رسم .

أما تعريفه الصحيح فهو : الكلام البليغ ، المبنىّ على الاستعارة والأوصاف ، المفصَّل بأجزاء متفقة فى الوزن والرّوىّ ، مستقل كل جزء منها فى غرضه ومقصده عما قبله وما بعده ، الجارى على أساليب العرب المخصوصة .

ولعمل الشعر وإحكام صناعته شروط ، أولها : الحفظ من الحر النقىّ ، وثانيها : شحذ القريحة للنسج على المنوال ، لتستحكم ملكته ، ومن شروطه نسيان المحفوظ، لتُمْحَى رسومُه الحرْفيّة الظاهرة ، ولابد من الخلوة ، واستجادة المكان المنظور وكذلك المسموع ؛ لاستثارة القريحة ، وأن يكون على جمام ونشاط. وخير الأوقات البكور ؛ عند الهبوب من النوم ،وفراغ المعدة ، ونشاط

مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ومعرفة الشروط والأحكام التى يكون بها التطابق — هى فن البلاغة ، فالتراكيب بوضعها تفيد الإسناد ، وأحوال التراكيب من تقديم وتأخير ، وتقييد وإطلاق — تفيد الأحكام المكتنفة من خارج الإسناد ، وهى قوانين لفن من فنون البلاغة هو علم المعانى . وما قصر من هذه التراكيب عن إفادة مقتضى الحال لخلل فى قوانين الإعراب أو قوانين المعانى كان قاصراً عن المطابقة ، ولحق بالمهمل .

ثم يتبع هذه الإفادةَ التفننُ فى انتقال الذهن بين المعانى بأصناف الدلالات : لأن التركيب يدل بالوضع على معنى ، ثم ينتقل الذهن إلى لازمه أو ملزومه أو شبهه ، فيكون فيها مجازاً باستعارة أو كناية . ويحصل للفكر بذلك الانتقال لذة ، كما تحصل فى الإفادة وأشد . لأن فيها ظفراً بالمدلول من دليله ، وهذا الظفر من أسباب اللذة .

ولهذا الانتقال شروط وأحكام سموها البيان .

والكلام المطبوع هو الذى كملت طبيعته وسجيته من إفادة مدلوله المقصود .

ويتبع تراكيبَ الكلام فى هذه السجية ضروبٌ من التحسين والتزيين فيحصل للكلام لذة وجمال زائد على الإفادة ، وهذه الصنعة موجودة فى الكلام المعجز وفى كلام الجاهليين بعد كمال الإفادة لكن عفوا وبغير تعمد ، وفى كلام الإسلاميين عفوا وقصداً ، وأول من أحكم طريقته حبيب بن أوس ، والبحترى ، ومسلم بن الوليد ، وقيل : أول من عاناه بشار وابن هرمة ، ثم كلثوم بن عمرو ،

فهى فى الضمائر ، وهى موجودة عند كل واحد ، فلا تحتاج لصناعة ، وتأليفُ الكلام هو المحتاج لذلك ، وهو بمثابة القوالب للمعانى ، فكما أن الأوانىّ مختلفة والماء واحد ، كذلك جودة اللغة فى الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام .

ص ٥٢٩

حصول ملكة النظم بكثرة الحفظ وجَوْدة المحفوظ :

لابد من كثرة الحفظ لمن يروم تعلم اللسان ، وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته وكثرته تكون جودة الملكة ، فمن يحفظ شعر الفحول تكون ملكته أجود ممن يحفظ شعر المتأخرين ، لأن قُوَى الملكة تنمو بتغذيتها ، والنفس وإن كانت واحدة بالنوع فهى تختلف باختلاف ما يَرِدُ عليها من الإدراكات والملكات والألوان ، والملكات تحصل لها بالتدريج ، والملكة بحسب مانشأت عليه ؛ فملكة البلاغة العالية تحصل بحفظ العالى فى طبقته من الكلام ، ولهذا كان الفقهاء وأهل العلم قاصرين فى البلاغة ؛ لما يسبق إلى محفوظهم من القوانين الفقهية والعبارات العلمية .

وهذا هو السر فى أن منثور الإسلاميين أعلى طبقة من الجاهليين لأنهم سمعوا الطبقة العالية من القرآن والحديث اللذين أعجزا البشر .

ص ٣٥١ مجلد ٣ ط : باريس

المطبوع والمصنوع من الكلام :

سر الكلام فى إفادة المعنى ، وكمال الإفادة هو البلاغة ، لأن البلاغة هى

الدين والوحى والنبوّة وأسلوب والقرآن .

ولم ينزل الوحى فى تحريم الشعر ، بل لقد سمعه النبى وأثاب عليه ، فرجعوا إلى دَيْدَنهم ، وكان لابن أبى ربيعة طبقة مرتفعة ، وكان يعرض شعره على ابن عباس، فيقف لاستماعه معجبا ، ثم جاء الملك والدولة ، وتقرب [illegible] الشعراء يمتدحونهم ويجيزهم الخلفاء ، ولم يزل كذلك صدراً من دولة العباسيين ، ثم جاء خلق لم يلن اللسان لسانهم ، وإنما تعاموه صناعة ، ثم مدحوا أمراء العجم طالبين معروفهم فقط ، فصار غرض الشعر هو الكذب والاستجداء وأنف منه أهل الهمم ، وأصبح تعاطيه مذمّة لأهل المناصب .

والعتابى ، والنميرى ، ومسلم ، وأبو نواس ، وعلى أثرهم جاء حبيب ، ثم ظهر ابن المعتز فختم على البديع .

ومن المطبوع قول قيس بن ذريح :

وَأَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ البُيُوتِ لَعَلَّنِي أُحَدِّثُ عنكِ النَّفْسَ فى السِّرِّ خاليا

وقول كُثَيِّر :

وإِنِّى وَتَهْيامى بعَزَّةَ بعد ما تخلَّيْتُ عَمَّا بيننا وتخلَّتِ

لَكا لمُرْتَجِى ظلَّ الغمامةِ ، كُلَّما تبوَّأَ منها للمقِيلِ اضمحَلَّتِ

وأما المصنوع فكثير من لدن بشار إلى ابن المعتز ، وقد تعددت أصناف هذه الصنعة ، واختلطت اصطلاحاتهم فى ألقابها والمتقدمون يجعلونها خارجة عن البلاغة ، ويذكرونها فى الفنون الأدبية .

والمنثور فى الجاهلية والإسلام كان مرسلا ، معتبر الموازنة بين جمله وتراكيبه ، حتى نبغ إبراهيم بن هلال الصابى ، فتعاطى الصنعة والتقفية ، ثم انتشرت الصناعة بعده ، والكلام المصنوع بالمعاناة والتكلف قاصر عن المطبوع ؛ لقلة الاكتراث بأصل البلاغة ، والحكم فى ذلك هو الذّوْق .

ص ٥٣١ ط : البهية

ترفع أهل المراتب عن انتحال الشعر :

كان رؤساء العرب منافسين فى الشعر ؛ لأنه ديوانهم ، يقفون بعُكاظ لإنشاده ، ويتنافسون فى تعليقه بأركان الكعبة ، ثم انصرفوا عنه لمّا شغلهم

و إنما أُتى هذا من فقدان الملكة فى لغتهم،فلو حصلت لهم لشهد ذوقهم ببلاغتها.
فالإعراب لامدخل له فى البلاغة ، مادامت أساليب الشعر وفنونه موجودة
فى هـذه الأشعار ، ويتميز عنده الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بالقرائن
لا بالحركات ، ومن أمثلة شعرهم :

تَقُولْ فتاةْ الحَىِّ سُعْدَى وهَاضْهَا — لَهَا فى ظعون البَا كِيين عَويل
أيا سائْلِى عنْ قَبرِ الزّنَاتِى خَليفه — خُذِ النّعتَ منّى لا تَـكُون هَبيل
أَيَالَهْفَ كِبْدِى ع الزّنَاتِى خَليفَهْ — قَدْ كَانْ لِأَعْقَاب الجيادِ سَبيل
قَتِيلْ فَتَى الهَيْجَا دِيَاب بن غَانِمْ — جراحه كأفواه المزاب تسيل

الموشحات والأزجال :

لمـا كثر الشعر فى الأندلس استحدث المتأخرون فنًّا منه سمّوه المُوَشّح ،
ينظمونه أَسْمَاطا أسماطا ، وأغصانا أغصانا ، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة،
و يسمون المتعدد بيتا واحدا،و يلتزمون قوافى تلك الأغصان وأوزانها ، وأكثر
ماتنتهى إلى سبعة أبيات ، و يشتمل كل بيت على أغصان بحسب الأغراض .

وقد استظرفه الناس لسهولته ، ومخترعه بالأندلس مقدّم بن مُعافر من
شعراء الأمير عبد الله بن محمد المَرْوانى ، وعنه أخـذ ابن عبد ربه ، وأول من
برع فيه عُبادة القزّاز ، شاعر المعتصم بن صمادح ، ثم جاء فى دولة الملثمين
الأعمى الطُّلَيْطِلِىّ ، ويحيى بن بَقِىّ ، وعاصرهما أبو بكر الأبيض . وابن باجة
الذى يقول :

أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد

ص ٥٣٤

الشعر طبيعة فى كل الأمم :

الشعر موجود فى كل لغة ؛ ففى الفرس واليونان شعراء ، وفى حِمْيَر كذلك. ولما فسدت اللغة فى الإعراب والموضوعات اللغوية وبناء الكلمات ، نشأت لغة أخرى خالفت لسان مُضَر ، واختلفت هى فى نفسها بحسب اصطلاحات أهل الآفاق ، ثم لما كان الشعر موجودا بالطبع : لأن الموازين على نسبة واحدة فى المتحركات والسواكن، وهى موجودة فى طباع البشر ــ لم يهجَر الشعرُ بفقدان لغة مُضَرُ ، بل إن أهل كل جيل ولغةمن العرب المستعجمين والحضر يتعاطون ما يطاوعهم فى انتحاله على نمط كلامهم .

فأما العرب فيقرِضونه اليوم على ما كان عليه سلفهم، ويأتون بالمطوّلات على مذاهب الشعر وأغراضه ، ويستطردون من فن إلى فن ، وربما هجموا على المقصود ، وأكثر ابتدائهم باسم الشاعر ، ثم ينسبون ، وربما يُلحِّنونه ويغنونه .

ولهم نظم آخر مُعَصّب على أربعة أجزاء ؛ يخالف آخرها الثلاثة الأولى فى رَوِيّه ، ويلتزمون القافية الرابعة فى كل بيت، شبيها بالمربع والمخمس ، وكثير من المنتحلين للعلوم اللسانية يستنكرونها لاستهجانها وفقدان الإعراب منها ،

بمرسية ، وسهلُ بن مالك بغرناطة، وابن الفضل بإشبيلية ، وابنُ الصَّابونى، والجزائرىُّ ، وابنُ زُهْر .

وأما المشارقة فالتكلف ظاهر على موشحاتهم ، ومن أحسنهم ابن سناء الملك المصرى ، وأحسن موشحاته :

ياحبيبى ارْفع حجابَ النُّورْ   عَنِ العِذَارْ
نَنْظُرِ المِسْكَ عَلَى الكافُورْ   فى جُلَّنَارْ
كَلِّلِى ياسُحْب تِيجَانَ الرُّبَا   بالحُلِى
واجْعَلِى سُوَارَهَا مُنْعَطَفَ   الجدْوَلِ

ولما شاع التوشيح لسلاسته وتنميقه وترصيع أجزائه نسجت العامة على منواله ، ونظموا فيه بلغتهم الحضرية من غير إعراب ، واستحدثوا فنا سمَّوهُ الزَّجَل ، وجاءوا فيه بالغرائب .

وأول من أبْدَع فيه ابن قُزْمان ، وإن قِيلَ قبلَه بالأندلس لكن لم يظهر حلاه ، ولا انسبكت معانيه إلا فى زمانه ، وكان لعهد الملثمين ، وهو إمام الزجالين ، وكانت أزجاله تُرْوَى ببغداد أكثر مما تنشر فى المغرب، ومن روائعه وصفه لتمثال أسد من الرخام يصب الماء من فيه على صفائح مدرّجة من الحجر :

وعَرِيشْ قَامْ عَلَى دُكَّانْ   بحَالْ رِوَاقْ
وأَسَدْ قَدِ ابْتَلَعْ ثُعْبَانْ   فى غِلَظِ سَاقْ
وفَتَحْ فَمُّهْ بحَالْ إنْسَانْ   فِيهِ الفُوَاقْ

مالذ لِي شَرَابُ رَاحْ عَلَى رِيَاضِ الأقَاحْ لَوْلا هَضِيمُ الوِشَاحْ
إذَا أتَى فى الصَّباحْ أوْفِى الأصِيلْ أضْحَى يقولْ
ماللشَّمُولْ لَطَمْتْ خَـــدِّى وَللشَّمَالِ
هبَّتْ فمَالْ غُصْنُ اعْتِدالْ ضَمَّـــهُ بُرْدِى
مِمَّا أبَادَ القُلوبَا يَمْشِي لَنَا مُسْتَرِيبَا يَالحَظَـــه رُدّ نُوبَا
ويَالَمَاهُ الشَّنِيبَا بَرِّدْ غَلِيـــلْ صَبّ عَلِيـــلْ
لا يَسْتَحِيلْ فِيـــهِ عن العَهْدِ لَايَزَالْ
فى كُلِّ حَالْ يَرْجُو الوِصَالْ وهوَ فِى الصَّـــدِّ

واشتهر بعـدهم فى المُوحِّدين ابن شرف الدين ، والرُّوينى ، وابن زُهير الذى يقول :

ما لِلمُـــوَلَّهِ من سُكْرِهِ لا يُفِيقْ يا لَهُ سَكْرَانْ
من غـــير خَمْرة ماللكَئِيبِ المشوقْ يَنْدُبُ الأَوْطَانْ
هل تُسْتَعَـــادْ أيَّامُنَـــا بالخَليج أو لَيَالِينَـــا
أو يُسْتَفَـــادْ مِنَ النَّسِيمِ الأرِيجْ مِسْكُ دَارِينَـــا
وادٍ يَكَـــادْ حُسْنُ المَكَانِ البَهِيجْ أنْ يُحَيِّينَـــا
والنَّهْرُ ظِـــلُّه دَوْحٌ عَلَيْهِ أنِيقْ مُورِقٌ فَيْنَـــانْ
والمَـــاءُ يجرى وعـــائِمٌ وغَرِيقْ مِنْ جَنَى الرَّيْحَانْ

واشتهر بعده ابن حَيُّون ، ومعهما المُهْر بن الفَرَس ، ثم ابن جرْمون

وكان لعامة بغداد فن يسمونه المَوَاليا ، وتحته فنون كثيرة منها القُوما ، وكَانَ وكَان ، منه مفرد ومنه في بيتين يسمونه دُو بيت ، وغالبها مزدوجة من أربعة أغصان . وتبعهم في ذلك أهل القاهرة ، وأتوا فيها بالغرائب ، وتبحروا في بلاغتها بمقتضى لغتهم الحضرية مثل قول الشاعر :

طَرَقْتِ بَابِ الخِبا قالتْ مِن الطَّارِقْ فقُلْتِ مَفْتُونْ لَا نَاهِبْ وَلَا سارِقْ
تبسَّمتْ لَاحَ لِي مِنْ ثغرِهَا بَارِقْ رجِعْتِ حَيْرَانْ فِي بَحْرِ أدْمُعِي غارِق

ومثل قول الآخر :

عِينِي الَّتِي كُنْتِ أَرْعَا كُمْ بِهَا بَاتِتْ تَرْعَى النُّجُومْ وبِالتَّسْهِيدِ افْنَاتِتْ
وِأَسْهُم البِينِ صابِتْنِي وَلَا فَاتِتْ وسَلْوِتِي عَظَّمَ اللهُ أجرَكُمْ مَاتِتْ

والأذواق في معرفة البلاغة إنما تحصل لمن خالط تلك اللغة ، وكثر استعماله لها ، ومخاطبته بها بين أجيالها ، حتى يحصل ملكتها ، لأن اللسان الحضري وتراكيبه مختلفة ، وكل من أهل الأندلس أو المغرب أو المشرق مدرك لبلاغة لغته ، ذائق محاسن الشعر من أهل جلدته .

١٩٥٨/٤/١٠ رضوان إبراهيم

وانْطَلَقْ يَجْرِى عَلَى الصَّفَاحْ وَلِفَى الصَّبَاحْ

وعاصره عيسى البَليدى ، وابن الزاهد الإشبيلى ، وأبو الحسن المقرى ، ويخلف الأسود . وجاء بعدهم مدغليس ، وابن جحدر ، ثم ابن سهل ، وابن الخطيب .

وهذه الطريقة الزجلية هى فن العامة بالأندلس ، وهم ينظمونه في سائر البحور الخمسة عشر بالعامية ، يسمونه الشعر الزجلى . ثم استُحدث فى المغرب فن آخر من الشعر فى أعاريض مزدوجة كالموشح ، نظموا فيه بلغتهم الحضرية ، وسمّوه عروض البلد ، وأول من استحدثه ابن عمير بفاس ، فنظم على طريقة الموشح ، ولم يخرج عن الإعراب كقوله :

أَبْكَانِى بِشَاطِى النَّهْرِ نَوْحُ الْحَمَامْ عَلَى الْبُسْتَانِ فِى الْغُصْنِ قَرِيبَ الصَّبَاحْ
وَكَفُّ السَّحَرْ يَمْحُو مداد الظَّلَامْ وماءُ النَّدَى يَجْرِى بِثَغْرِ الْأَقَاحْ
بَاكَرْتُ الرِّيَاضْ وَالطَّلُّ فِيهَا افْتِرَاقْ سِرُّ الْجَوَاهِرْ فِى نُحُورِ الْجِوَارْ
وَدَمْعُ النَّوَاعِرْ يَنْهَرِقْ إِنْهِرَاقْ يُحَاكِى ثَعَابِينَ عُلِّقَتْ بِالثِّمَارْ
لَوُوا بِالْغُصُونْ خَلْخَالْ عَلَى كُلِّ سَاقْ وَدَارْ الْجَمِيعْ بِالرَّوضْ دُورِ السِّوَارْ
وإِيدِ النَّدَى تَخْرَقْ جُيُوبَ الْكِمَامْ وَيَحْمِلْ نَسِيمَ الْمِسْكِ عَنْهَا رِيَاحْ
وَعَاجِ الصَّبَا يُطْلَى بِمِسْكِ الْغَمَامْ وَجَرَّ النَّسِيمْ ذِيلُو عَلَيْهَا وفَاحْ

وقد استحسنه أهل فاس ، ونظموا على طريقته ، وتركوا الإعراب ، واستفحل فيه كثير منهم ، ونوعوه إلى المُزْدَوَج والكارى والمَلْعَبَة والغَزَل .

ص	س	الصواب
٢٦٥	١٢	والمتأخرون
٢٦٦	٥	وثالثها
٢٦٩	٧	على ثمانية أقسام
٢٧١	٤	بالفلسفة
٢٧٤	١٧	واقتصر
٢٩٢	١٠	بادت

تصويبات

نثبت هنا أهم التصويبات تاركين ما لا يخفى على القارئ من هفوات .

ص	س	الصواب
٤٥	٦	موسى بن نصير
٦٥	١٠	٦
٧٦	٧	فإذا انقطعت الأمانى آمنوا
١٠٠	١١	السُّلطانية
١٠٤	٥	وسْواس
١٠٦	٥	الغَلبُ
١٠٨	١٤	سياسة
١٠٩	١٠	السياسية
١١٠	١٣	يخرج
١٣٩	١٨	من على إلى ابنه (تحذف كلمة الرضا)
١٤٢	٤	الإسراف
١٦٣	١٧	لِنقمتهم
٢٢٩	٢	تشذُّ
٢٣٢	١٠	وتسعِّطه
٢٣٣	١٤	العروق
٢٥٧	٣	والبصر

الصفحة

الباب الثانى

فهرس

صفحة

معاناة الحضر للأحكام مفسدة للبأس ـ سكنى البدو لأهل العصبية ـ العصبية بالنسبة أو ما فى معناه ـ صريح النسب للمتوحشين ـ اختلاط الأنساب ـ الرياسة فى أهل العصبية ـ الرياسة على أهل العصبية لا تكون فى غير نسبهم ـ البيت والشرف لأهل العصبية وغيرهم ـ شرف الموالى ـ نهاية الحسب أربعة آباء ـ الأمم الوحشية أقدر على التغلب ـ غاية العصبية الملك ـ الترف من عوائق الملك ـ مذلة القبيل ـ من علامات الملك التنافس فى الخلال ـ الأمة الوحشية ملكها أوسع ـ الملك ينتقل من شعب إلى شعب فى الأمة ـ المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب ـ إذا غُلبت الأمة سارع إليها الفناء ـ العرب لا يتغلبون إلا على البسائط ـ إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب ـ العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية ـ العرب أبعد عن سياسة الملك ـ البوادى والعصائب مغلوبون للأمصار .

الباب الثالث

الدولة . والملك ، والخلافة ، والمراتب السلطانية ١١٦ـ١٩٨

الملك والدولة بالعصبية ـ إذا استقرت الدولة استغنت عن العصبية ـ بعض الدول تستغنى عنها ـ الدولة العظيمة أصلها الدين ـ الدعوة الدينية تزيد الدولة قوة ـ الدعوة لا تتم بلا عصبية ـ لكل دولة

الصفحة

الباب الرابع

البلدان، والأمصار، وسائر العمران ١٩٩ـ٢١٥

الباب الخامس

المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع ٢١٦ـ٢٣٨

الباب السادس

العلوم والتعليم